
كتابي
٤١
اعترافات
جان جاك روسو
الجزء الثالث
Looloo
www.dvd4arab.com
حلمي مراد
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

اعترافات
جان جاك روسو

موجز ما جاء فى الجزءين الأول والثانى

ولدت فى (جنيف) ، فى سنة ١٧١٢ ، لأب كان يعمل فى صناعة الساعات ، ولأم توفيت عند مولدى . وبدلا من أن يكرهنى أبى لذلك ، فإنه أسرف فى حبه لى ، لأننى كنت شديد الشبه بأمى .

تنبه إحساسى قبل أن يتنبه فكرى . ثم عمد أبى إلى أسلوب خطر ، إذ أشركنى فى قراءة الروايات والكتب الدسمة.

اضطر أبى إلى أن يهجر (جنيف) عقب مشاجرة بينه وبين عسكرى فرنسى ، كادت تلقى به إلى السجن دون مبرر قانونى . فبقيت فى كنف خالى « برنار » ، الذى كان متزوجا من عمتى ، والذى أرسلنى مع ابنه إلى (بوسى) لنقيم فى رعاية القس البروتستانتى « لامبرسييه » ، ولنتلقى العلم على يديه ويدى أخته . وكانت الآنسة « لامبرسييه » تولينى حنان الأم ، ولكن عقابها إياى نبه المشاعر الحسية والشهوانية فى كيانى !

على أثر عقاب ظالم ، لذنب لم ارتكبه ، كرهت الظلم ، وولت طمأنينة طفولتى .. والحقنى خالى بمكتب موثق للعقود ، على أمل أن اشق طريقى فى المحاماة ـ فيما بعد ـ ولكنى لم استسغ هذا العمل .

قرر خالى أن من مصلحتى أن أتعلم حرفة ، فألحقنى كصبى ـ أو تلميذ صانع ـ لدى حفار كان ينقش على المعادن . وهناك اختلطت بالعمال الذين كانوا يكبروننى سنا ، فتعلمت

السرقة، لا سيما وان معلمى كان يقسو على بالعقاب والحرمان. ومع ذلك فاننى لم اكن اسرق حبا فى المال او الحيازة .. وإلى جانب هذا ، اشتد شغفى بالقراءة حتى أصبح تهوسا .

واضطرتنى قسوة معلمى ، ونفورى من حياتى هذه ، إلى الهرب من (جنيف) .. وانتهى بى المطاف إلى سيدة محسنة فى (انيسى) ، كان ملك سردينيا قد خصها بمعاش ، لأنها اعتنقت الكاثوليكية .. تلك هى « مدام دى فاران » التى أشفقت على، وأرسلتنى إلى دير نبذت فيه عقيدتى البروتستانتية ، وأصبحت كاثوليكيا .

واستطبت بعد ذلك حياة الترحال ، وعانيت الفاقة والمتاعب . ثم انتهيت إلى العودة إلى السيدة دى فاران ، التى رحبت بى ، وانزلتنى من نفسها منزلة الابن ، وأفردت لى غرفة فى دارها ، وراحت تنفق على تعليمى الموسيقى ، رغم تضاؤل مواردها .. وتعلقت بهذه السيدة تعلقا ملك على كل حواسى وعقلى .. وبمرور الأيام صرت أدعوها « ماما » !

وكانت هذه الحياة أبهج من أن تدوم . فقد أوفدتنى « ماما » مرة لأعاون السيد « لوميتر » ، الذى كان رئيسا لفرقة الموسيقى بكنيسة (انيسى) ، والذى اختلف مع بعض رهبان الكنيسة فشاء أن يفر من وجوههم .. وقد رافقته إلى (ليون) ، حيث أخذت تعاوده نوبات الصرع ، لفرط إسرافه فى الشراب ، ففررت منه فى إحدى هذه النوبات ، وعدت إلى (انيسى) .. وإذا بى أفاجأ بأن « ماما » قد رحلت فى بعض شئونها ، ولم أدر لها مقصدا أو مقرا !

وأقمت فترة مع « فينتور » ، وهو شاب كنت أعرفه من قبل، وكان يزعم أنه موسيقى موهوب. وكان لبقا، ،أنيقا، مرحا، يستهوى النساء . وفى تلك الأثناء ، كان أبى قد تزوج من امرأة على شيء من الدهاء والقول المعسول، وشغل عنى بأولاده منها.

وانتهى بى المطاف إلى (لوزان) ، حيث رحت اتكسب عيشى بتدريس الموسيقى ، باذلا جهدى ـــ فى الوقت ذاته ـــ إلى تنمية معرفتى بها . وحاولت إذ ذاك أن أكون ملحنا ، دون ما إلمام كاف بأصول التلحين ، فمنى لحنى الأول بفشل ذريع ، جعلنى أعيش فى حزن وهوان لفترة من الوقت .

ولم اكف طيلة هذه الأحداث عن الحنين إلى « ماما » ، لا لحاجتى المادية فحسب ، وإنما لحاجتى القلبية قبل كل شيء! .. ومع ذلك ، فإن تعلقى بها ـــ رغم ما كان عليه من تأجج وقوة ـــ لم يكن ليحول بينى وبين أن أحب غيرها . ولكن ، على غير شاكلة حبى لها !

وقدر لى أن أذهب إلى باريس ، ولكننى لم الق فيها الحظ الذى كانت تصوره لى أحلامى . على أننى ظفرت هناك بنبأ جعلنى أنطلق من جديد بحثا عن السيدة دى « فاران ». وهكذا أخذت أجوب الأقاليم على غير هدى ، متعرضا للتشرد ، والتضور جوعا ، والنوم فى الطرقات .. حتى عرفت أخيرا ان « ماما » الحبيبة قد استقرت فى (شامبيرى) ، فخففت إليها .. وما كان أحلاه من لقاء !

واستطاعت « ماما » أن تحصل لى على [illegible] فى

« المساحة » ، فبدأت أكسب عيشى بعمل مشرف ! .. وكانت هذه خير خاتمة لباكورة صباى !

وأقمت فى دار « ماما » ، ولكنها لم تكن فى بهاء دارها الأخرى فى (انيسى) ، إذ كانت موارد «ماما» فى تضاؤل ، وكانت أمورها مضطربة . وفى هذه الحياة الجديدة ، اكتشفت أن «ماما» كانت على علاقة بخادمها الوفى « كلود آنيه » . وكان شابا لا يكبرنى بكثير ، ولكنه كان رزينا وقورا ، غدا منى بمثابة المربى . ومع أننى لم أنج من الألم ، إذ أدركت أن ثمة من استطاع أن يعيش مع «ماما» فى مودة تفوق مودتى كثيرا ، إلا ان وفائى للسيدة امتد إلى الشاب، فقد كنت راغبا فى سعادتها هى قبل شىء!

وانصرفت إلى الموسيقى ـــ فى تلك الأثناء ـــ فى استغراق ملك على حواسى ، وحملنى على أن استقيل من عملى فى «المساحة» ، وأن أستعين على الحياة بتدريس هذا الفن . وقادنى هذا إلى المجتمع الراقى، وإلى دور ذوى الجاه والثراء . وبقدر ما تعرضت للمغازلات من فتيات ونساء هذا الوسط ، فإن سذاجتى ـــ التى ذهبت إلى درجة الغباء ـــ كانت تفوت على الفرص . إلى أن أحست « ماما » بأن إحدى السيدات كانت توشك أن توقعنى فى أحابيلها، فأشفقت على من مخاطر شبابى، ورأت أن تنقذنى منها بأغرب طريقة خطرت لامرأة فى مثل ظروفها .. بأن تمنحنى نفسها !

وأخذت « ماما » تروى عطشى إلى النساء من معينها .. على أن العلاقة البدنية لم تفسد شيئا من براءة علاقاتنا العاطفية والروحية والفكرية ، كما أنها لم تؤثر على علاقة كل منا

بخادمها وعشيقها « كلود آنيه » ، بل قامت بين «ثلاثتنا» زمالة قد لا يكون لها مثيل على الأرض ! .. وما لبث « آنيه » أن مات ـــ وهو فى ريعان شبابه ـــ فحللت محله فى تدبير شئون «ماما» وماليتها . ولاحظت أن مواردها كانت فى نضوب ، فأخذت أعمل جاهدا على أن أجنبها هاوية الافلاس .

وانتهى بى التفكير إلى وجوب الحصول على عمل ، كى أعول من دخله « ماما » إذا ألمت بها الفاقة . وفى سبيل ذلك رأيت أن أتعلم التلحين ، فكان هذا الاتجاه عاملا جديدا على تبديد مواردها المتضائلة ! .. وكذلك شرعت فى تأليف الأغانى .

وقضيت عامين أو ثلاثة بين الموسيقى ، ومجالسة الحكام وذوى الجاه، والرحلات .. وما لبثت صحتى أن أخذت تتداعى، وغلبنى الاكتئاب والأسى والتشاؤم ، فنصح لى الطبيب بأن أقيم فى الريف . وسرعان ما استأجرت « ماما » منزلا ذا حديقة وبستان ، فى ضيعة (شارميت) . وهناك ، نعمت بأهنأ فترة فى حياتى .. مع « ماما » !

ولكنه كان هناء قصير الأجل .. ففى تلك الأثناء ، شعرت بضعف فى القلب ، وضيق فى التنفس ، وطنين فى الأذنين، وتراخ فى حيويتى ، مما أوحى إلى بأن عمرى لن يطول ، فرأيت أن استمتع بما تبقى منه أعظم استمتاع . وأقبلت على دراسة العلوم والآداب ، كما أكثرت من الأسفار ، أنشد علاجا لعللى.

وفى إحدى هذه الأسفار ، التقيت بالسيدة دى « لارناج » وكانت تكبرنى فى السن كثيرا ، ولكنها راحت تعمل على إغوائى،

حتى إذا رأت ما كان الخجل والتردد يخلقانه من قيود تشل إقبالى عليها ، لم تتورع عن أن تكون هى البادئة بالعناق والتقبيل . وأصبحت عشيقتى خلال الرحلة . ولو أننى عشت مائة عام ، لما استطعت أن أفكر قط فى هذه المرأة الفاتنة دون أن يطفى السرور على ! .. كانت متعتى مع « ماما » مشوبة بالأسى والضيق .. أما مع السيدة دى لارناج، فقد كنت فخورا برجولتى ، مزهوا بسعادتى .

وكانت صدمة لى أن عدت إلى « ماما » ، فوجدت أن شابا قد حل محلى أثناء غيابى .. وكان شابا جاهلا ، مغرورا ، استطاع أن يفرض على « ماما » سلطانه ، فلم أستطع أن أطيق بقاء إلى جوارها ، وقررت ان أهجر الدار ، وأن أرحل إلى باريس ، لأعرض على « الأكاديمية » طريقة ابتكرتها لتسجيل « النوتة » الموسيقية بالأرقام بدلا من العلامات .

الكتاب الثانى

وصلت إلى باريس فى خريف سنة ١٧٤١ .. واستطاع بعض من حملت إليهم خطابات للتوصية ، أن يمكننى من التقدم إلى « الأكاديمية » برسالتى التى قدر لى أن يناقشنى فيها علماء لم يكن بينهم من له إلمام كاف بالموسيقى ، فانتهوا إلى الحكم بعدم صلاحية طريقتى . وبدلا من أن أستسلم للقنوط ، أسلمت نفسى للخمول وللقدر ، ورحت أقتر على نفسى لأفيد بما تبقى من مواردى المتضائلة .

والآن .. تعال نتابع « روسو » وهو يشق طريقه إلى قمة المجد فى المجتمع الباريسى .

ولقد كانت السكينة ، واللذة ، والثقة التى استسلمت بها لهذه الحياة الخاملة المنعزلة ـ بالرغم من أننى لم أكن أمتلك موارد تمكننى من أن أستمر فيها ثلاثة أشهر ـ من الصفات الفذة فى حياتى ، ومن الظواهر العجيبة فى طباعى ! .. كانت الحاجة البالغة إلى أن أجد من يعنى بى ، هى عين الشىء الذى جردنى من الجراة على أن أظهر بين الناس .. كما أن الضرورة التى كانت تدعونى إلى زيارة الناس ، جعلت الزيارات أمرا لا أطيقه ، حتى أننى كففت عن زيارة أعضاء المحفل أنفسهم وغيرهم من رجال الأدب ، الذين قد تعرفت إليهم . وأصبح « ماريفو » والراهب دى « مابلى » و « فونتنيل » هم الوحيدون ـ تقريبا ـ الذين ظللت أزور دورهم فى بعض الأحايين . كذلك أطلعت أولهم على مسرحيتى الهزلية «نارسيس» فراقت له، وتكرم بأن أدخل عليها بعض التنقيح !.. وكان « ديدرو » يصغرهم كثيرا فى السن، فقد كان يقاربنى عمرا . وكان مولعا بالموسيقى، ملما بنظرياتها ، ومن ثم فاننا كنا نتحدث عنها ، كما أنه كان يحدثنى عن مشروعاته الأدبية ، فخلق هذا بيننا رابطة من الود القوى دامت خمس عشرة سنة ، وكان من المحتمل أن تدوم زمنا أطول ، لو أننى لم أدفع دفعا ـ لسوء الحظ ـ إلى مهنته ذاتها .. وكان هو صاحب الذنب فى ذلك !

ولن يمكن تصور الطريقة التى استغللت فيها هذه الفترة القصيرة ، الثمينة ، التى سبقت اضطرارى إلى أن أتسول قوتى !.. فلقد حفظت عن ظهر قلب أجزاء من الشعر كنت قد درستها قبل ذلك مائة مرة ونسيتها .. واعتدت أن أتمشى كل صباح ـ فى حوالى الساعة العاشرة فى حدائق

(لوكسمبورج) ، حاملا « ڤيرجيل » أو « روسو » فى جيبى (١)، وأروح أردد فى ذهنى ــ حتى موعد الغداء ــ أحد الأناشيد القدسية ، أو أحد أناشيد الرعاة ، دون أن يثبط من عزيمتى أننى كنت واثقا من أننى لن ألبث ــ إذ أردد الجزء الذى اخترته ليومى ــ أن أنسى الجزء الذى حفظته بالأمس .. وتذكرت أن الأسرى الاثينيين ــ بعد هزيمة « نيسياس » فى (سيراكيوز) ــ (٢) كانوا يستمدون قوتهم من ترديد أشعار « هوميروس » . ولقد كان الدرس الذى استخلصته من هذه، كى أعد نفسى للفاقة ، هو أن أروض ذاكرتى البديعة على حفظ جميع الأشعار عن ظهر قلب !

* * *

وكانت لدى طريقة مبتكرة مكينة أخرى فى الشطرنج ، الذى كنت اكرس له بانتظام فترة ما بعد الظهر ــ من الأيام التى لم اكن أذهب فيها إلى المسرح ــ فى مقهى « موجى » . وقد تعرفت هناك إلى السيد دى « ليجال » ، وإلى سيد يدعى « هوسون » ، وإلى « فيليدور » ، وإلى جميع لاعبى الشطرنج الكبار فى ذلك العهد ، دون أن أحرز مزيدا من التقدم فى اللعب . على أننى لم اكن أرتاب فى أننى لن ألبث أن اغدو فى النهاية أقوى منهم جميعا ، وكان هذا ــ فى رأيى ــ كافيا

---

(١) يقصد ديوانى الشاعرين « ڤيرجيل » و « جان باتيست روسو » .

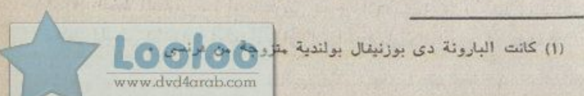
(٢) كان نيسياس من أشهر القادة الاغريق الذين برزوا فى حروب البلوبونيز ، وقد هزم وهلك فى حملة صقلية فى سنة ٤١٣ قبل الميلاد .

لأن يمدنى بمورد للعيش . وكنت كلما استهوتنى فكرة طائشة جديدة ، رحت أتدبرها بنفس الطريقة دائما .. كنت أقول لنفسى : « ان الذى يبرز فى شىء ، يطمئن دائما إلى أنه منشود. فلنبرز إذن ، فى أى شىء ، وإذ ذاك أغدو مرغوبا .. إن الفرص سانحة ، وعلى كفاءتى يتوقف ما بقى من الأمر ! » .. ولم يكن هذا التفكير الصبيانى وليد سفسطتى ، وإنما كان نتاج كسلى. فقد كنت فى جزعى من الجهود الضخمة السريعة التى كانت خليقة بأن ترهقنى ، أسعى إلى أن ازين كسلى لنفسى ، وإلى أن أدارى خجلى من نفسى بحجج ملائمة !

وهكذا مكثت ساكنا إلى أن انتهت نقودى . واعتقد أننى كنت على استعداد لأن اقبع حتى آخر « سو » لدى ، دون اى قلق ، لو لم يوقظنى الأب « كاستيل » ــ الذى كنت أذهب لزيارته أحيانا ، وانا فى طريقى إلى المقهى ــ من سباتى . ولقد كان الأب « كاستيل » مخبولا ، ولكنه كان ــ برغم هذا ــ رجلا طيبا . وقد غاظه أن رآنى أبدد وقتى وامكانياتى بهذا الشكل، دون أن افعل شيئا . فقال لى : « ما دام الموسيقيون ، وما دام العلماء ، يأبون أن يغنوا بطريقتك ، فعدل من اوتارك ، وجرب النساء ، ولعلك تكون ــ فى هذه الناحية ــ اكثر توفيقا !.. لقد تحدثت عنك إلى السيدة دى « بوزينفال » ، فاذهب لزيارتها ، واذكر أنك قادم من لدنى !.. انها امراة طيبة ، يسرها أن ترى شخصا من موطن زوجها وابنها (١) ، ولسوف

---

(١) كانت البارونة دى بوزنيفال بولندية متزوجة من فرنسى



تلتقى فى دارها بابنتها السيدة دى « بروجلى » ، وهى امرأة زكيـة .. وهناك السيدة « دوبان » ، وهى الأخـرى ممن حدثتهن عنك ، فاحمل اليها مؤلفك ، لأنها تتوق إلى رؤيته ، وسوف تحسن استقبالك ! .. إن المرء لا يسـتطيع أن يبرم عملا فى (باريس) إلا بوساطة النساء ، فهن كالمنحنيات ، التى يكون الحكماء بمثابة الخطوط التقاربية (١) لها .. فالفريقان يتقاربان باستمرار ، ولكنهما لا يتماسان أبدا ! » .

وبعد أن أرجأت هاتين المهمتين المتعبتين من يوم إلى آخر ، استجمعت أخيرا شجاعتى ، وذهبت لزيارة السيدة «بوزينفال» ، فاكرمت وفادتى ، وإذ دخلت السيدة دى « بروجلى » الغرفة ، بادرتها قائلة : « ها هو ذا ، يا ابنتى ، السـيد روسـو الذى حدثنا عنه الأب كاستيل ! » . فاطرت السـيدة دى بروجلى مؤلفى ، وقادتنى إلى معزفها ، لترينى أنها كانت معنية به . ووجدت أن الساعة قد شارفت الواحدة ، فأردت الانصراف ، غير أن السيدة دى بوزينفـال قالت لى : « انك على مسافة بعيدة من مسكنك ، فامكث ، وتناول غداءك هنا » . ولم أكن بحاجة إلى إلحاح .. وبعد ربع ساعة ، أدركت أن المائدة التى دعتنى إليها كانت مائدة الخدم !.. فقـد كانت السيدة دى بوزينفال طيبة ، ولكنها كانت ضيقة الأفق ، شديدة الاعتداد بعراقة أصلها البولندى ، وليست لديها فكرة تذكر عن الاحترام

---

(١) الخط التقاربى ـ أو التقريبى ـ فى الهندسـة ، هو خط مسـتقيم يطابق المنحنى تطابقا لا نهائيا .. أى انهما يتقاربان دائما دون أن يتماسا !

الواجب للمواهب . وقد حكمت على ـ فى هـذه المناسبة ـ بمسلكى أكثر منها بملبسى الذى كان ـ برغم بساطته المتناهية ـ لائقا كل اللياقة ، ولا ينم قط عن رجل يؤاكل الخـدم .. لا سيما واننى كنت قد نسيت الطريق إلى مائدة الخـدم من زمن طويل ، ولم أكن راغبا فى أن اتعلمها من جـديد (١) .. وقلت للسيدة دى بوزينفال ـ دون أن ابدى غضبى ـ اننى تذكرت أن لا بد لى من العودة إلى مسـكنى لمهمة بسـيطة . فاقتربت مدام دى بروجلى من أمها ، وهمست فى أذنها ببضع كلمات كان لهـا تأثير سريع ، إذ نهضت مدام دى بوزينفـال لتسـتبقينى قـائلة : « اننى أقصـد أن يكون تشريفك إيانا بالغداء .. معنا ! » . ورأيت أن التشبث بالكرامة عمل أخرق ، فمكثت . وإلى جانب ذلك ، كان لطف السيدة دى بروجـلى قد ملك قلبى ، وجعلنى أرتاح إليها ، فكنت جد مغتبط بتناول الغداء معها . وداخلنى الأمل فى أنها لن تندم ـ إذا ما عرفتنى جيدا ـ على أنها أولتنى هذا الكرم . ولقد تناول الغداء هناك أيضا ، السيد رئيس (لاموانيون) ، وهو من أعظم أصـدقاء الأسرة ، وكان ـ كالسـيدة دى بروجلى ـ يألف اللهجـة الباريسية الموجزة ، التى تتألف من كلمات صغيرة ، كلها كنايات بسيطة رفيعة .. ولم يكن لجان جاك البائس مجال للتألق فى هذا المضمار ! .. وكنت من حسن الادراك بحيث أننى لم أشأ

---

(١) يعنى « روسو » أنه كان قد نسى معاشرة الخدم وارتفع فوق مستواهم ولعلنا نذكر ـ مما جاء فى الجزء الأول ـ انه عاش خادما فترة من الزمن .

ان أتظرف بالرغم من « منيرفا » (١) ، فأمسكت لسانى !..
ما كان اسعدنى لو أننى كنت دائما بهـــذه الحكمة ؟.. لقد كنت بهذا جديرا بالا أتردى فى الدرك الذى أجدنى اليوم فيه !

ولقد استأت لما بدوت عليه من ثقل الفهم ، ولعجزى عن أن أبرر ــ فى نظر السيدة دى بروجلى ــ ما فعلته هى من أجلى. لذلك لجأت ــ بعد الغداء ــ إلى موردى المعهود . فقد كانت فى جيبى رسالة شعرية ، كتبتها إلى « بريسو » أثناء مقـــامى فى (ليون) ، ولم تكن الحرارة تعوز هذه القصـــاصـة ، فعمدت إلى قراءتها ، واستطعت ان أحمل ثلاثتهم على البكاء . ولقد خيل إلى ــ سواء عن غرور ، أو عن صدق فى تأوبلاتى ــ أننى رأيت عينى السيدة دى بروجلى تقولان بنظراتهمـــا لأمهـــا : « ما رأيك يا ماما ؟!.. افكنت على خطأ إذ قلت لك إن هـــذا الرجل كان أكثر جـــدارة بأن يتناول غـــداءه معنـــا منه مع وصيفاتك ؟ » .. وكنت حتى تلك اللحظـــة مثقـــل القلب ، ولكننى شعرت بالرضى بعد أن ثأرت لنفسى على هذا النحو . ولقد تمادت السيدة دى بروجلى قليلا فى الراى الطيب الذى داخلها نحوى ، معتقدة أننى لن البث أن اثير ضجة فى (باريس)، وأن أغدو ذا حظوة لدى النساء . ولكى ترشدنى فى هذا المجال الذى كنت غير خبير به ، أعطتنى « مذكرات الكونت ... » ، قائلة : « ان هذا الكتاب مرشـــد ستحتاج إليه فى المجتمع ،

---

(١) مينرفا ربة الذكاء والحرب والفنون لدى الرومان . ويشير « روسو » بهذا التعبير الى انه لم يشأ ان يدعى ما كان بعيدا عن أن يسعفه فيه ذكاؤه

وستحسن صنعا إذا أنت استعنت به بين وقت وآخر ! » .
ولقد احتفظت لأكثر من عشرين عاما ، بهذه النسخة ، معترفا بفضل اليد التى جاءتنى عن طريقها ، وإن كنت كثيرا ما أضحك للراى الذى لاح أن هذه السيدة قد ارتأته عن مؤهلاتى للظرف والملاطفة .. ومنذ اللحظة التى طالعت فيها هذا الكتاب ، رغبت فى أن أخطب ود صاحبه . وقد حققت الأحداث هذه الرغبة ، فاذا هو الصديق الصادق الوحيد لى بين رجال الأدب (١) .

وجرؤت ــ منذ ذلك الحين ــ على أن أطمئن إلى أن السيدة البارونة دى بوزينفال ، والسيدة المركيزة دى بروجلى ــ وقد اهتمتا بأمرى ــ لن تدعانى طويلا بلا مصـــدر للعيش . ولم أخطىء الحـــدس ! .. فلنتكلم الآن عن دخولى دار الســـيدة « دوبان » ، الذى كانت عواقبه أطول مدى وأجلا !

❋ ❋ ❋

كانت السيدة « دوبان » ــ كمـــا هـــو معـــروف ــ ابنة صمويل برنار ، والسيدة فونتين .. وكن ثلاث أخـــوات ، من الممكن ان يدعين بالحســـان الثلاث : السيدة ديلا توش ــ التى فرت إلى انجلترا مع دوق كينجستون ــ والســـيدة دارنى ، عشيقة السيد الأمير دى كونتى ، بل ــ بالأحرى ــ صديقته ،

---

(١) عقب « روسو » ــ فى هامش مذكراته ــ على هذا بقوله : « هكذا ظللت أعتقد طويلا !» وعن اقتناع راسخ ، حتى اننى عهدت اليـــه ــ منـــذ عودتى الى باريس باعترافاتى . اذ أن جان جاك الحـــذر المستريب ، لم يؤمن قط بوجود الغدر والخداع ، الا بعد أن وجد نفسه ضحية لهما » .

الصديقة الوحيدة المخلصة ، وكانت امرأة جديرة بأن تعبد ، للطف وطيبة شخصيتها الفاتنة ، بقدر ما هو لذكائها المستحب، والمرح الـذى لم يكن يفارق طباعهـا .. وأخـيرا ، السيدة « دوبان » ، أجمل الثلاث ، والوحيدة منهن التى لم يكن ثمة عوج يعاب عليها فى مسلكها !.. وكانت جزاء كرم ضـيافة السيد دوبان ، إذ أن أمها منحته اياها ، مع منصب « الملتزم العام » (١) وثروة ضخمة ، عـرفانا لحسن حفـاوته بها فى إقليمه !

وكانت ــ عندما رأيتها لأول مرة ــ لا تزال من أجمل نساء باريس . وقد استقبلتنى فى غرفة زينتها ، وكانت ذراعاهـا عاريتين ، وشعرها مهوشا ، وثوبها مهدلا .. وكان مثل هذا الاستقبال الأول جـديدا على ، فلم يحتمله راسى البـائس ، واضطربت ، وارتبكت .. وموجـز القول اننى شغفت هوى بمدام دوبان !

ولم يلح أن اضطرابى قد أحدث أثرا سيئا ، إذ أنها لم تبد ما ينم عن أنها لاحظته . وفى استقبالها للكتاب ولمؤلفه ، راحت تحدثنى عن مشروعى حديث الملمة به .. وغنت ، وصـاحبت غنائها بالعزف ، واستبقتنى للغـداء ، واجلستنى إلى جانبها حول المائدة . وما كان ثمة ما يدير راسى اكثر من هذا ، فاذا بى اغدو مجنونا بها !.. وسـمحت لى بأن اتردد عليهـا ، فاستغللت ــ بل أسأت استغلال ــ هذا السماح ، إذ أصبحت

(١) الملتزم العام : هو الموكل بتحصيل الضرائب .

أذهب إلى دارها فى كافة الأيام تقريبا ، وأتناول الغداء هناك مرتين أو ثلاثا فى الأسبوع ، وكنت أموت شوقا إلى مصارحتها بحبى ، ولكننى لم أجسر على ذلك ، فقد ضاعفت من خجلى الطبيعى عدة أسباب .. كان دخول أى بيت من بيوت الأثرياء المرفهين ، بمثابة باب مفتوح للحظ ، فلم أشأ ــ فى موقفى إذ ذاك ــ أن أتعرض لإغلاق هذا الباب . ثم إن السـيدة دوبان كانت ــ برغم لطفها ــ رصينة وباردة ، فلم أجـد فى مسلكها شيئا مشجعا يثير جراتى . وكانت دارها متألقـة كأية دار أخـرى فى باريس ، فى ذلك الحين ، وملتقى جماعات لم يكن ينقصها سوى أن يقل عددها بعض الشىء لكى تغدو نخبة من كل نوع من علية القـوم . فلقـد كانت السيدة تحب أن ترى جميع المتألقين : من عظماء ، وأدباء ، ونساء جميلات .. وما كان ليرى عندها سوى الدوقات ، والسفراء ، وذوى الاشرطة الزرقاء (١) .. ومن الممكن اعتبار السيدة الأميرة دى روهان ، والسيدة الكونتة دى فوركالكييه ، والسـيدة دى ميربـوا ، والسيدة دى برينوليه ، والليدى هيرفى ، بين صديقاتها !.. كما أن السيد دى فونتنيل ، والراهب دى سان بيير ، والراهب ساليه ، والسيد دى فورمو ، والسيد دى بيرنى ، والسـيد دى بوفون ، والسيد دى فولتير ، كانوا من أفراد ندوتها ومن رواد مائدتها . ولو أن مسلكها المتحفظ لم يجتـذب إليها عددا كبيرا من الشباب ، لكانت الجماعة التى اعتـادت الاجتماع فى

(١) لقب يطلق على فرسان الطيف المقدس ، على أن من المحتمل ان يكون روسو قد استعمله هنا بمعنى : المبرزين من القوم .

دارها ، صفوة مختارة ، وبالتالى أكثر وقارا !.. وما كان لجان جاك البائس أن يزين لنفسه فكرة أن يتألق كثيرا وسط كل هؤلاء!.. لذلك فاننى لم اجسر على أن أفضى للسيدة بعواطفى؛ ولكنى لم أعد أطيق صمتا ، فجرؤت على الكتابة . وقد احتفظت بالخطاب يومين ، دون أن تذكر لى شيئا عنه . وفى اليوم الثالث ، ردته إلى مع بضع كلمات تأنيب ، قالتها بلهجة باردة تجمد لها دمى !.. وحاولت أن اتكلم ، ولكن الكلمات ماتت على شفتى ، وخبا وجدى الفجائى مع أملى . وبعد هذا الإعلان الكتابى لحبى ، واصلت العيش بقربها كذى قبل ، دون أن أحدثها عن شىء من عواطفى ، ولو بنظرات عينى !

ولقد ظننت أن حماقتى أصبحت منسية ، ولكنى كنت مخطئا !.. وكان السيد دى فرانكويى ، نجل السيد دوبان ، وابن زوج السيدة دوبان (١) ، يقارب السيدة فى السن ، ويقاربنى . وكان لامع الذكاء ، مليح الهيأة ، يحسن الظهور بمظاهر العظمة . ويقال إنه كان مقربا إلى السيدة دوبان ، لا لشىء إلا لأنها زوجته من امرأة شديدة الدمامة ، ولكنها ضافية اللطف ، وعاشت معهما فى وئام تام ، وكان السيد دى فرانكويى يحب المواهب ويتكفل بمساعدة أصحابها ، ومن ثم فان الموسيقى ــ التى كان يلم بها إلماما عظيما ــ كانت وسيلة

---

(١) أى انه كان ثمرة زواج سابق للسيد دوبان . ويلاحظ أن « دى » قبل الاسم ، معناه أن صاحبه يحمل لقبا ، وهذا يبرر عدم حمل « فرانكويى » لاسم دوبان !

ورباطا بيننا .. ولهذا اعتدت أن ألقاه كثيرا ، فتعلقت به . وقد اوعز إلى ــ فجأة ــ بأن السيدة دوبان أصبحت ترى أن زياراتى أكثر مما كان ينبغى ، ورجانى أن اكف عنها !.. ولعل هذه الإشارة كانت فى محلها ، لو انها صدرت عند ما أعادت السيدة الخطاب إلى . أما وقد صدرت بعد ثمانية أيام ــ أو عشرة ــ ودون أى سبب آخر ، فقد لاحت لى غير ذات موضوع. ومما زاد الموقف غرابة ، أن هذا لم يضعف الحفاوة ــ التى كنت أقابل بها فى دار السيد والسيدة دى فرانكويى ــ عن ذى قبل ! على أننى خففت من ترددى عليهما ، وكنت موشكا أن أقطع زياراتى تماما ، لولا أن السيدة دوبان ــ مدفوعة بنزوة لم أتبين إذ ذاك حقيقتها ــ سألتنى أن أعنى ، لثمانية أيام أو عشرة ، بابنها الذى كان إذ ذاك قد فقد مربيه السابق، وكان من المنتظر أن يبقى وحيدا ريثما يصل المربى الجديد . ولقد قضيت هذه الأيام الثمانية فى عذاب ، لم يكن ليجعله محتملا سوى لذة إرضاء السيدة دوبان!.. إذ كان «شينونسو» المسكين (١) قد أصيب بخبل كاد أن يجر الخزى على الأسرة ، وكان سببا فى موته بعد ذلك ، فى جزيرة (بوربون) . ولقد كنت ــ أثناء وجودى بجواره ــ أحول بينه وبين أن يؤذى نفسه أو يؤذى غيره . وما كانت هذه المهمة بالسهلة ، كما أننى لم أكن لأتولاها ثمانية أيام أخرى ، ولو منحتنى السيدة دوبان نفسها فى مقابل ذلك !

***

---

(١) « شينونسو » هو اسم ابن مدام دوبان .

وأولانى السيد دى فرانكويى صداقته ، فعملت معه ، وبدأنا نتلقى سويا منهجا فى الكيمياء لدى « رويل » . ولكى أكون على مقربة منه ، تركت نزلى ـ « سان كينتان » ـ وانتقلت للاقامة فى « ساحة التنس » بشارع (فرديليه) ، الذى كان يفضى إلى شارع (بلاتيير) ، حيث يقيم السيد دوبان . وهناك ، نشأ عن إصابتى ببرد أهملته ، أن وقعت فريسة التهاب رئوى كدت اموت منه . وكثيرا ما كنت اصاب فى شبابى بتلك الأمراض الالتهابية : التهابات البلورة (ذات الجنب) ، والتهابات اللوزتين ـ التى كنت ضحية سهلة لها بوجه خاص ـ وغيرها ، مما لا أرانى بحاجة إلى تسجيله هنا ، وكانت جميعا تدفعنى إلى حيث أرى الموت عن كثب كاف لأن آلف شكله !.. وسنح لى الوقت ـ أثناء نقاهتى ـ للتفكير فى حالى، وللرثاء لجبنى ، وضعفى ، وكسلى الذى كان ـ برغم ما كنت اكتوى به من نار ـ يتركنى أذبل فى خمول ذهنى على أبواب الفاقة !

وكنت فى اليوم السابق لوقوعى فى المرض ، قد ذهبت لمشاهدة « أوبرا » لروبيه كانت تمثل إذ ذاك ، وقد غاب عنى اسمها . وبالرغم من أن تعنتى فى الحكم على مواهب سواى جعلنى دائما لا اطمئن إلى مواهبى ، فاننى لم استطع أن أكبح نفسى عن ملاحظة أن الموسيقى كانت باردة ، فاقدة الحرارة ، خلوا من الابتكار والتجديد . وكنت أجرؤ ـ فى بعض الأحيان ـ على أن اقول لنفسى : « يخيل إلى ان بوسعى أن أصنع خيرا من هذا » .. بيد أن الفكرة ـ الباعثة على التهيب ـ التى

داخلتنى عن تلحين « الأوبرا » ، والأهمية التى كنت أسمع الاخصائيين يخلعونها على مثل هذا العمل ، ثبطت عزيمتى فى الحال ، وجعلتنى أتضرج خجلا لجراتى على التفكير فى ذلك!.. ثم، أين لى بمن يرضى بأن يزودنى بالأقوال اللازمة لأية «أوبرا»، وأن يتجشم عناء تنسيقها وفقا لهواى ؟.. ولقد عاودتنى هذه الأفكار عن الموسيقى والأوبرا ، أثناء مرضى ، فرحت ابان هذيانى أنظم الأغانى والثنائيات والأناشيد الجماعية .. وأوقن أننى نظمت قطعتين أو ثلاثا لفورى ـ وعفو الخاطر ـ ربما كانت جديرة بإعجاب الأساتذة ، لو انهم سمعوها تؤدى .. ولو تسنى تسجيل أحلام امرىء محموم ، فأية أشياء جليلة وعظيمة قد يتيسر استخلاصها أحيانا من هذا الهذيان !

ولقد ظلت موضوعات الموسيقى والأوبرا هذه ، تشغلنى أثناء نقاهتى ، ولكن فى توارد أكثر هدوءا . وبدافع من التفكير فى ذلك ـ بل وبالرغم من نفسى ـ اعتزمت أن أرضى نفسى ، وأن أحاول وضع « أوبرا » ، بكلامها وموسيقاها ، دون معونة من أحد . ولم تكن هذه أول محاولة لى ، إذ كنت قد ألفت فى (شامبيرى) أوبرا ومأساة ـ أوبرا تراجيدى ـ بعنوان «ايفيس وأنا كساريت » ، وكنت من حسن الإدراك بحيث رميت بها فى النار !.. كما نظمت فى (ليون) أخرى بعنوان « اكتشاف الدنيا الجديدة » ، لم ألبث بعد أن قراتها على السيد «بورد» ، والراهب دى « مابلى » ، والراهب « تروبليه » وغيرهم ، أن انتهيت بها إلى عين المصير ، بالرغم من أننى كنت قد كتبت

موسيقى المطلع والفصل الأول ، وعندما اطلع « دافيد » على الموسيقى ، أنبأنى بأنها كانت تحتوى على مقاطع تليق ببونوتشينى(١).

وفى هذه المرة ، أتحت لنفسى وقتا للتفكير فى مشروعى ، قبل أن أمد يدى إلى العمل . ورسمت لفكرة مسرحية بطولية راقصة (باليه) ثلاثة موضوعات مختلفة ، فى ثلاثة فصول مستقلة ، لكل منها لون من الموسيقى مغاير لما للآخرين . ونسجت كل منها حول غراميات أحد الشعراء ، ثم أسميتها « عرائس الشعر اللطاف » (٢) .. وكان الفصل الأول يدور حول « تاس »(٣) ، وقد صيغت موسيقاه فى أسلوب قوى . أما الفصل الثانى ، فكان عن « أوفيد » ، وكانت موسيقاه رقيقة ، فى حين أطلقت على الفصل الثالث اسم « أنا كريون »، وقد روعى فيه أن يفوح بأنفاس الاطراء والمديح !.. وجربت براعتى ـ فى البداية ـ فى الفصل الأول ، فعكفت عليه بحماس

---

(١) اشتهر بهذا الاسم ثلاثة من الموسيقيين الايطاليين ، كانوا أبا وابنيه ، وقد أقام أصغر الابنين ردحا فى انجلترا ، وكان أكثر الثلاثة شهرة .

(٢) Les Muses Galantes

(٣) تاس : هو الشاعر الايطالى توركاتو تاسو ، ويعتبر من أعظم أصحاب ملاحم البطولة . وقد عاش فى القرن السادس عشر . ولهذا اختار « روسو » طابع القوة للفصل الذى نسجه حوله . أما « أوفيد » ، فكان شاعرا لاتينيا ، اقترن اسمه بالحب والهوى ، برغم ما قاساه فى حياته من شجون ومتاعب ، حتى أنه مات منفيا . أما « أنا كريون » ، فكان شاعرا غنائيا تفوح أغانيه بتمجيد اللهو والطعام واللذة .

مكننى ـ للمرة الأولى ـ من أن أتذوق لذائذ توقد القريحة فى التلحين ! .. وفى ذات مساء كنت أهم بدخول دار « الأوبرا »، وإذا بى أجدنى نهبا للأفكار ، وإذا بها تطغى على ، فرددت نقودى إلى جيبى ، وأسرعت إلى غرفتى وأغلقتها على نفسى ، وارتميت على السرير ، بعد أن أحكمت ستائر النافذة لأحول دون تسرب ضوء النهار .. وهناك ، أسلمت نفسى تماما للالهامات الشعرية والموسيقية ، فوضعت بسرعة ، وفى سبع ساعات أو ثمان ، أروع قسم من الفصل !.. وبوسعى أن أقول إن حبى للأميرة دى « فيرارى » ـ إذ اننى كنت « تاس » إذ ذاك ـ ومشاعرى النبيلة المترفعة إزاء أخيها الظالم ، أتاحت لى ـ لليلة واحدة ـ من المتع ما كان يفوق مائة مرة ، كل ما كنت خليقا بأن أجده بين ذراعى الأميرة نفسها (١) .. ولم يبق فى رأسى ـ فى الصباح ـ سوى قسط بسيط مما نظمته ولحنته ، ولكن هذا الجزء ـ الذى شوهه الاجهاد والنعاس تقريبا ـ لم يخفق فى أن يكشف عن قوة المقطوعات التى تبقت كالأطلال !

وفى هذه المرة ، لم أمض بعيدا فى هذا المشروع كثيرا ، نظرا لانصرافى إلى الشئون الأخرى . ولم تكن السيدة دى بوزينفال، والسيدة دى بروجلى ـ اللتين ظللت أزورهما من وقت لآخر ـ قد نسيتانى تماما فى غمرة تعلقى بأسرة دوبان . فقد حدث أن عين السيد الكونت دى مونتيجى ـ الذى كان ضابطا فى

---

(١) كانت الأميرة أجمل نساء عصرها ، وقد تصور « روسو » أنه « تاس » الذى تدله فى هواها ، وثار على مظالم أخيها !

الحرس ـ سفيرا فى (فيينا) . وكان مدينا بسفارته إلى « بارجاك »(١) الذى كان قد ثابر على مصاحبته . كما أن أخاه ـ الشيفالييه دى مونتيجى ـ كان « فارس الكم » للسيد ولى العهد(٢) . وقد كان على معرفة بهاتين السيدتين(٣) ، وبالراهب « ألارى » ـ عضو المحفل الفرنسى ـ الذى كنت أزوره ، فى بعض الأحيان ، كذلك . وإذ علمت السيدة دى بروجلى بأن السفير كان يبحث عن سكرتير ، رشحتنى لديه . وشرعنا نبحث الأمر ، فطلبت خمسين « لوى » كمرتب ، وهو مبلغ كان قليلا بالنسبة لمنصب يتطلب الحرص على المظهر . ولكنه لم يشأ أن يدفع سوى مائة « بيستول »(٤) كما كان على أن أتكفل بنفقات سفرى ، وكان هذا اقتراحا يدعو للضحك ، ومن ثم فلم يقدر لنا أن نتفق ، وفاز السيد دى فرانكويى ـ الذى بذل قصارى وسعه ليحول بينى وبين الرحيل ـ بمآربه ، فمكثت بينما رحل السيد دى « مونتيجى » مصطحبا معه سكرتيرا آخر يدعى السيد « فولو » ، كانت وزارة الخارجية هى التى رشحته له . ولكنهما لم يكادا يبلغان (فيينا) ، حتى

(١) كان بارجاك هو الخادم الخاص للكردينال دى فلورى ، الذى كان واسع النفوذ لدى الملك .

(٢) فرسان الكم : طائفة من النبلاء كانوا يجمعون بين التدين والبطولة ، وكانوا يتولون رعاية الأمراء الفرنسيين حتى يتموا تعلمهم .

(٣) السيدة دى بوزينفيل وابنتها .

(٤) كان « اللوى » اذ ذاك ٢٤ فرنكا ، و « البيستول » ١٠ فقط .

اختلفا واشتجرا . وإذ رأى « فولو » أنه سيضطر إلى العمل مع رجل مجنون ، هجره هناك ، ولم يعد لدى السيد دى مونتيجى سوى راهب شاب يدعى دى « بينى » ، كان كاتبا تحت إرشاد السكرتير ، ولم يكن فى مركز يؤهله لأن يملأ المنصب . ومن ثم اضطر السفير إلى أن يلجأ إلى مرة أخرى . وقد أفهمنى أخوه « الشيفالييه » ـ الذى كان موفور الذكاء ـ أن ثمة امتيازات معينة تتصل بمنصب السكرتير ، وبهذا أفلح فى أن يغرينى بقبول الألف فرنك(١) .. كما تسلمت عشرين « لوى » لنفقات رحلتى .. فبادرت إلى السفر !

من سنة ١٧٤٣ إلى سنة ١٧٤٤

وعند (ليون) ، تمنيت أن أتخذ طريق (مون سينى) ، لأزور « ماما » المسكينة ، زيارة عابرة . بيد أننى انحدرت مع نهر (الرون) ، ثم انتقلت بالبحر إلى (طولون) . وكان ذلك بسبب الحرب ، وبداعى الاقتصاد ، وللحصول ـ كذلك ـ على جواز للسفر من السيد دى « ميربوا » ، الذى كان يشرف على الإقليم إذ ذاك ، والذى كنت موفدا إليه بتوصية . وإذ لم يكن بوسع السيد دى مونتيجى أن يستغنى عنى ، فقد راح يكتب لى الرسائل تلو الرسائل ، متعجلا سفرى . ولكن حادثا عاقنى .

كان الطاعون يتفشى إذ ذاك فى (مسينا) . وكان الأسطول البريطانى يرسو هناك ، فزار المركب التى كنت عليها ، وقد

(١) يبدو انه يقصد قيمة المرتب السنوى .

عرضنا ذلك عند وصولنا إلى (جنوا) ــ بعد رحلة طويلة شاقة ــ إلى أن نحتجز تحت المراقبة الصحية ثمانية وعشرين يوما . وترك لنا الخيـــار بين البقاء على ســـطح المركب ، أو فى المعزل الصحى ، الذى أنذرنا بأننا لن نجد فيه شيئا ، اللهم إلا الجدران الأربعة ، إذ لم يكن الوقت قد اتسع لتأثيثه . واختار الجميع البقاء فى السفينة ، ولكن الحر المرهق ، وضيق المكان ، وتعذر التريض على القدمين ، والحشرات ، جعلتنى أفضـــل المعزل . فاقتدت إلى مبنى كبير ذى طابقين . وكان عاريا تماما ، فلم أعثر فيه على نافذة ، ولا منضدة ، ولا سرير ، ولا مقعـــد .. بل ولا كرسى منخفض بلا مسند لأجلس عليه ، ولا حزمة من القش أرقد عليها .. وأحضروا إلى معطفى ، والحقيبة الصغيرة التى تضم ثياب النوم ، وحقيبتى الكبيرتين ، ثم أغلقت دونى أبواب ضخمة ، ذات أقفال هائلة .. وبقيت هناك ، حرا فى أن أتجول وفق هـــواى ، من حجرة إلى أخرى ، ومن طـــابق إلى آخر ، دون أن التقى فى كل مكان بغير العزلة والتجـــرد من الأثاث !

ولم يحملنى كل هذا على أن أندم لاختيارى المعـــزل دون المركب ، بل رحت أدبر أمورى ــ كما لو كنت « روبنصن » (١) جديدا ــ للأيام الثمانية والعشرين ، وكأننى كنت مقبـــلا على الاقامة طيلة العمر ، وكنت أتســـلى ــ فى البدايـة ــ باصطياد القمل الذى التقطتـــه على المركب . فلما أصبحت نظيفـــا فى

(١) يقصد « روبنصن كروزو » (م)

النهاية ، بفضل تغيير الثياب الداخلية والخارجية ، تحولت إلى تأثيث الحجرة التى اخترتها ، فصنعت حشية بديعة من ستراتى وأقمصتى ، وملاءات من عدة مناشف خطت بعضها إلى بعض، وغطاء من إزارى المنزلى (الروب دى شامبر) ، ووسادة من معطفى الذى لففته ، واتخذت مقعدا من إحدى حقيبتى بعـــد أن وضعتها على أحد جانبيها العريضين ، ومنضدة من الحقيبة الأخرى بعد أن اقمتها على أحد جانبيها الضيقين ، وأخرجت ورقا ومحبرة ، ونسقت حوالى اثنى عشر كتابا كنت امتلكها ، لتكون مكتبة . وقصارى القول اننى هيأت مقامى تهيئا طيبـــا حتى اننى كنت فى ذلك المعزل العارى أنعم باقامة تعدل اقامتى فى مسكنى بساحة التنس فى شارع (ديلا فيرديليه) ، فيمـــا عدا الستائر والنوافذ !.. وكانت وجباتى تقدم فى كثير من مظاهر الأبهة ، إذ كان يرافقها جنديان شهرا حربتيهما فى طرف بندقيتيهما . وكان دهليز الســـلم بمثابة قاعة مائدتى ، كمـــا كانت عرصة السلم بمثابة مائدة ، فاذا ما أعد الغداء ، دق الذين احضروه ناقوسا ــ أثناء انسحابهم ــ لتنبيهى إلى انه قد آن لى أن اجلس إلى المائدة .

وعندما كنت أنصرف عن القراءة أو الكتابة ، أو استكمال تأثيث حجـــرتى ــ بين الوجبـــات ــ كنت أتمشى فى مقبـــرة البروتستانت ، التى كانت بمثابة ساحة لمسكنى ، أو اصعد إلى برج يطل على الميناء ، حيث يتســنى لى رؤية الســـفن فى دخولها وخروجها . وقضيت على هذا النسق أربعة عشر يوما ، وكنت قمينا بأن أقضى الأيام العشرين بأسرها دون أن اضجر

لحظة ، لولا السيد دى « جونفيى » ـ المبعوث الفرنسى ـ الذى كنت قد تمكنت من أن أرسل إليه خطابا معبقا بالخل ، ومعطرا ، وشبه محترق .. فقد أنقص مدة احتجازى ثمانية أيام ، قضيتها فى داره ، حيث اعترف بأننى وجدت من راحة المقام ما لم أجده فى معزلى .. وقد ابدى لى عطفا قويا ، كما ان سكرتيره « ديبون » كان شابا طيبا ، اصطحبنى إلى بيوت عديدة ـ سواء فى جنوا أو فى الريف ـ حيث كانت التسرية موفورة . وقد وثقت معه روابط المعرفة والتراسل ، التى ظللنا نرعاها ردحا طويلا من الزمن . وما لبثت أن استأنفت رحيلى ـ راضيا مرتاحا ـ مخترقا سهل (لمباردى) . وزرت (ميلان) ، و (فيرونا) ، و (بريسيا) ، و (بادوا) ، ثم وصلت فى النهاية إلى (البندقية) ، حيث كان السفير فى انتظارى ، وهو نافد الصبر !

* * *

ووجدت أكداسا من الرسائل ـ سواء من البلاط الملكى أو من السفراء الآخرين ـ لم يكن فى وسع السفير أن يقرأ ما كتب منها بالشفرة ، برغم إنه كان يملك كافة مفاتيح الشفرة اللازمة لذلك . ولما لم أكن قد عملت قط فى منصب من هذا النوع ، ولا رأيت فى حياتى شفرة حكومية ، فقد خشيت ـ فى البداية ـ أن أرتبك ، ولكننى تبينت أنه لم يكن ثمة ما هو أسهل من ذلك .. وفى أقل من أسبوع ، كنت قد حللت رموز الرسائل جميعا ، إذ أنها لم تكن ـ فى الواقع ـ تستحق عناء . فقد كانت السفارة القائمة فى البندقية قليلة العمل دائما ، فضلا عن أن مثل هذا الرجل ـ السيد دى مونتيجى ـ لم يكن ممن يعهد



واتخذت مقعدا من احدى حقيبتى بعد أن وضعتها على أحد جانبيها العريضين ومنضدة من الحقيبة الاخرى .

إليهم بأية مفاوضات . ولقد كان فى حيرة بالغة إلى أن وصلت، فما كان ليعرف كيف يملى رسائله ، ولا كيف يكتب بخط مقروء . ومن ثم فانى كنت عظيم النفع له ، وقد شعر بذلك ، فأحسن معاملتى . وكان ثمة باعث آخر حمله على ذلك ، فلقد تولى أعمال السفارة ـ بعد رحيل سلفه السيد دى فرولاى ، الذى اختبل عقله ـ القنصل الفرنسى ، الذى كان يدعى السيد لوبلون ، ثم واصل إدارتها منذ وصول السيد دى مونتيجى ريثما يدربه على نظام العمل . ولقد جنح السيد دى مونتيجى ـ فى غيرته من أن سواه كان يؤدى عمله ، برغم أنه كان عاجزا عن أدائه بنفسه ـ إلى كراهية القنصل ، فما أن قدر لى أن أصل ، حتى جرده من مهام سكرتير السفارة ، ليكلها إلى . ولما كانت هذه المهام غير منفصلة عن لقب « سكرتير السفارة »، فقد دعانى إلى أن أحمل هذا اللقب . وما أوفد ـ طيلة بقائى معه ـ أحدا سواى بهذه الصفة إلى مجلس الشيوخ أو إلى مندوبيه (١) . والواقع أنه كان من الطبيعى أن يفضل أن يكون فى منصب سكرتير السفارة رجل تابع له ، عن أن يكل هذا المنصب إلى القنصل أو موظف كتابى معين بمعرفة البلاط .

ولقد أدى هذا إلى أن أصبح مركزى جد ملائم ، ومنع أفراد

---

(١) كان من عادة مجلس شيوخ جمهورية البندقية ـ فى ذلك الحين ـ أن يتباحث مع سفراء الدول الأجنبية ، عن طريق مندوبين يوفدهم اليهم ، ومبعوثين يوفدهم السفراء اليه . وقد كان مجلس الشيوخ ـ فى بعض نظم الحكم ـ ذا سلطة تنفيذية . وهكذا كان فى البندقية .

بطانته ، الذين كانوا من الإيطاليين ـ كما كان أتباعه ومعظم خدمه ـ من أن ينازعونى الأولوية فى داره . وقد استغللت بنجاح ما كان لهذا المركز من سلطان ، فى صون حقوقه الديبلوماسية ، وأعنى بذلك حصانة مقره ضد المحاولات التى بذلت مرارا عديدة لانتهاكها ، والتى كان موظفوه ـ من أبناء البندقية ـ لا يحفلون بمقاومتها . ومن ثم فاننى لم أسمح قط للخارجين على القانون باللجوء إلى هذا المقر ، بالرغم من أننى كنت خليقا بأن أجنى من وراء ذلك نفعا كبيرا ، ما كان صاحب السعادة ليتورع عن مقاسمتى إياه ! .. بل إنه جرؤ على أن يستبيح لنفسه حقوق السكرتيرية التى يطلق عليها اسم « أعمال الديوان » . ومع أن الحرب كانت قائمة ، إلا أن هذا لم يعف من إصدار عدد لا بأس به من جوازات السفر ، وكان يدفع عن كل جواز منها ، « سيكان » (١) للسكرتير الذى ينجزه ويصدق عليه . وقد اعتاد كل من سبقونى أن يتقاضوا هذا السيكان من الفرنسيين ومن الأجانب على السواء . بيد أننى وجدت هذا الإجراء غير عادل ، ومع أننى لم أكن فرنسيا، فاننى ألغيته بالنسبة للفرنسيين ، وإن رحت أتقاضى حقى ـ فى غير ما تساهل ـ من كل من عداهم . فلما أرسل لى المركيز سكوتى ـ شقيق الشخص الذى كانت له الحظوة لدى ملكة أسبانيا ـ يطلب يوما جوازا ، دون أن يرسل لى السيكان . فطالبته به ، وهو اجتراء لم ينسه قط ذلك الإيطالى المفطور على الانتقام . ومنذ أن أصبح هذا الاصلاح الذى أدخلته على رسوم

---

(١) السيكان عملة تتراوح قيمتها بين ٩ و ١٢ فرنكا .

الجوازات معروفا ، لم يعد يتقدم للحصول على جوازات سوى جحافل من منتحلى الجنسية الفرنسية ، الذين كانوا يزعمون ـ فى رطانة محتملة ـ أن هذا من أقليم (بروفانس) ، والآخر من (بيكار) ، والثالث من (بيرجندى) . ولما كنت قد أوتيت سمعا مرهفا ، فاننى لم أكن أخدع قط ، وما أظن أن إيطاليا واحدا استطاع أن يسلبنى « سيكانى » ، أو ان فرنسيا واحدا دفعه لى . وكنت من الغباء بحيث أنبأت السيد دى مونتيجى ـ الذى لم يكن يعلم شيئا عن اى شىء ! ـ بما فعلت . فاذا كلمة « سيكان » تجعله يفتح أذنيه ، وبدون أن يبدى لى رأيا بصدد إلغاء الرسم للفرنسيين ، طلب أن أسوى معه الحساب بشأن الآخرين ، واعدا إياى بمنافع فى مقابل ذلك ! ..

ورفضت اقتراحه عن احتقار لضعته اكثر منى عن تأثر من أجل مصلحتى ، والح على ، فاذا بغضبى يحتدم ، وقلت فى تحمس شديد : « لا ياسيدى .. أن لسعادتك أن تحتفظ بما هو حق لك ، ودع لى ما هو حقى ، فلن أنزل عن « سو » واحد منه ! » . وإذ رأى انه لم يكسب شيئا بهذه الوسيلة ، عمد إلى وسيلة أخرى ، ولم يخجل من أن يقول إننى ما دمت أحصل على مكاسب من أعمال ديوانه ، فمن العدل أن اتحمل نفقات هذا الديوان . ولم اشأ أن أجادل فى هذا الأمر ، ومن ذلك الحين أخذت أبتاع من مالى المداد ، والورق ، وشمع الأختام ، وشمع الإضاءة ، والأشرطة ، وما إلى ذلك .. حتى خاتم الدولة الذى أصلحته ، دون أن يدفع من نفقات إصلاحه شيئا !.. ولم يحل هذا دون أن أعين جزءا صغيرا من ايراد

عملية الجوازات للراهب دى بينى ، الذى كان شابا طيبا ، والذى كان أبعد من أن يطلب لنفسه شيئا من هذا القبيل . وإذا كان قد تلطف نحوى ، فاننى لم أكن أقل كرما نحوه ، ومن ثم فقد عشنا معا فى وئام على الدوام .

***

ولقد وجدت عملى ـ إذ مارسته ـ أقل إرهاقا مما توقعت بالنسبة لرجل عديم الخبرة ، قدر له أن يعمل مع سفير لم يكن يفوقه فى شىء ، بل إنه كان بجهله وعناده يعرقل ـ وكأنما كان يسر بهذه العرقلة ـ كل ما كان يلهمنيه الادراك السليم وبعض أضواء المعرفة لأتقن خدمته وخدمة الملك ! .. وكان أكثر أعماله انطواء على ادراكى ، هو ارتباطه بالمركيز دى « مارى » ، سفير أسبانيا ، الذى كان بارعا ، أريبا ، وكان بوسعه ان يقوده من أنفه إلى حيث شاء ، لولا أنه ـ نظرا لارتباط مصالح التاجين ـ كان يمحضه عادة خير النصح ، فكان الآخر يضيع نفع هذا النصح ، إذ كان دائما يدس عليه بعض آرائه الخاصة عند التنفيذ !.. وكان الشىء الوحيد الذى اشتركا فى عمله ، هو اغراء البندقيين بالتزام الحياد . وكان هؤلاء لا يكفون عن ادعاء الأمانة فى صون الحياد ، مع أنهم كانوا يمدون الجنود النمسويين ـ علانية ـ بالذخائر ، بل وبالمجندين الذين كانوا يزعمون أنهم هاربون من قواتهم .. اما السيد دى مونتيجى ـ الذى أعتقد أنه كان يبغى إرضاء الجمهورية(١) ـ فلم يكن يتوانى ، بالرغم

(١) حكومة جمهورية البندقية .

من بياناتى عن أن يحملنى على أن أؤكد فى كل رسائله أنها لم تكن تنتهك الحياد إطلاقا . وكان عناد هـذا الرجل المسكين وغبـاؤه يضطراننى إلى أن أكتب وأرتكب ـ فى كل لحظـة ـ سخافات كنت مجبرا على أن أكون الوسيط فيهـا ، ما دامت هذه رغبته ، ولكنها كانت ـ فى بعض الأحيـان ـ تجعل أداء واجباتى أمرا لا يطاق .. بل أمرا غير ميسور عمليا !.. مثال ذلك : أنه كان يصر اصرارا مطلقا على أن يكون الشطر الأكبر من رسائله إلى الملك ورسائله إلى الوزير مكتوبا بالشفرة ، برغم أن أيا من هذه أو من تلك لم يكن يشتمل على شىء ما يجعل مثل هذه الحيطة لازمة !.. ولقد أوضحت له أنه لم يكن ثمة وقت كاف بين يوم الجمعة ـ الذى كانت رسائل البلاط تصل فيه ـ ويوم السبب ـ الذى كانت رسائلنا تصدر فيه ـ لكتابة هذه بالشفرة ، ولكتابة الكمية الكبيرة من الرسـائل التى كان على ان أعدها ليحملها البريد فى اليوم ذاته . فابتكر لذلك خطـة بديعة ، تلك هى أن أعد ـ فى يوم الخميس ـ ردود الرسائل التى يكون مقدرا لها أن تصل فى اليوم التالى !.. ولقد تراءت له هـذه الفكرة موفقـة ـ بالرغم مما وسعنى أن أقوله عن استحالة ، بل وسخف ، تنفيذها ـ حتى إنه حتم اتباعها ، فلم اكن اخفق قط ، طيلة المدة التى مكثتها معه بعد ذلك ـ فى أن احمل إليه فى صباح يوم الخميس ، مسـودة مصوغة من الكلمات القـلائل التى كان يلقيها فى مناسبات عابرة خـلال الأسبوع ، والتى كنت أسجلها فى مفكرتى ، ومن بعض البيانات والأخبار البسيطة التى كنت التقطها من هنـا ومن هنـاك ، لأتزود بها فى هذه المهمة العجيبة ! .. اقول إننى لم اخفق قط

فى أن اقدم إليه فى صباح يوم الخميس مسـودة للرسائل التى ينبغى تصديرها فى يوم السبت ، فيما عدا بعض إضافات أو تعديلات كنت أؤديها فى عجلة ، على ضوء الرسائل التى تصل فى يوم الجمعة ، والتى كانت رسائلنا تعتبر ردا لها !

وكانت له نزوة اخرى ، غاية فى الطرافة ، أضـفت على مراسلاته صبغة مضحكة لا سبيل إلى وصفها : تلك هى إرسال كل نبأ إلى مصدره ، بدلا من تركه يأخذ مجراه العادى .. فكان يرسل الانباء الواردة عن البلاط إلى السـيد اميلو (١) ، وتلك الواردة عن باريس إلى السيد دى موريبا ، وتلك المتعلقـة بالسويد إلى السيد دافرينكور ، وتلك الخاصـة ببطرسبورج إلى السيد ديلاشيتاردى .. بل أنه كان يرسل إلى كل منهم أحيانا الأنباء الواردة منه هو بالذات ، والتى كنت أجـرى تعديلات طفيفة عليها !.. ولما كان قد اعتاد أن يلقى نظرة على الرسائل الموجهة إلى البلاط وحدها ـ دون بقية ما كنت أحمله إليه ليوقعه ـ فانه كان يوقع الرسائل الموجهة إلى السفراء الآخرين دون أن يقرأها ، مما جعلنى اكثر مقدرة على أن أصوغ هذه الأخيرة وفقا لمزاجى ، أو ـ على الأقل ـ على أن أبدل من الأنباء ، فلا أوجه لكل منهم عين الأنباء التى سبق أن أرسلها ! .. بيد أنه كان من المستحيل على أن أصوغ الرسائل الهامة فى أسلوب معقول ، بل اننى كنت أعتبر نفسى سـعيدا ، إذا لم يخطر بباله أن يدخل عليها بضعة أسطر متعجلة من وحى

---

(١) كان السيد اميلو وزيرا للخارجية ، وكان

أفكاره . فقد كان هذا يضطرنى إلى العودة إلى نسخ الرسالة التى زانها بهذه السخافة الجديدة .. السخافة التى كان لابد من تكريمها بنسخها ـ بسرعة ـ بالشفرة ، إذ انه لم يكن يوقع الرسالة بدونها !.. ولقد راودنى الاغراء عشرين مرة ـ مراعاة لسمعته ـ بأن أنقل بالشفرة شيئا غير الذى قاله ، ولكنى كنت ادرك ان ليس ثمة ما يبيح لى إطلاقا مثل هذا الانحراف عن الأمانة ، فكنت ادعه يهذى على مسئوليته ، قانعا بأن أصارحه برايى ، وبأن أؤدى الواجب المفروض على نحوه !

***

وهذا ما حرصت على أن أفعله دائما بأمانة وجلد وحمية كانت تستحق جزاء غير ذاك الذى تلقيته فى النهاية .. كان قد حان لكى أكون ـ ولو لمرة واحدة ـ كما هيأتنى السماء التى أنعمت على بفطرة طيبة ، وكما أهلتنى التربية التى تلقيتها على أيدى أفضل النساء وتلك التى أتحتها لنفسى .. وهذا ما حدث فعلا !. فقد كنت وحيدا ، بلا أصدقاء ولا ناصحين ، وبلا تجربة ، فى بلد أجنبى ، وفى خدمة أمة أجنبية ، وفى وسط ثلة من الأنذال الذين كانوا يستحثوننى على أن أحذو حذوهم فى سبيل مصلحتهم ، ومن أجل التخلص من عار وجود مثل صالح بينهم .. على أننى بدلا من أن أفعل أى شيء من هذا القبيل ، اخلصت الخدمة لفرنسا ـ التى لم أكن مدينا إليها بأى واجب ـ وكنت أكثر إخلاصا فى خدمة السفير فى كل ما كان موكولا إلى ، كما ينبغى ان يقال بحق !.. وإذ لم يكن ثمة ما يؤخذ على فى منصب كهذا ، جد مكشوف للأنظار المتطلعة ، فقد استحققت

وظفرت بتقدير حكومة الجمهورية (١) ، وتقدير السفراء الذين كنا نتبادل معهم الرسائل ، وحب كل الفرنسيين المقيمين فى البندقية . ولم يشذ عن ذلك القنصل الذى خلفته ـ للأسف ـ فى المهام التى كنت أدرك أنها من حقه ، والتى جلبت على من المتاعب أكثر مما جلبت من السرور !

وإذ انصاع السيد دى مونتيجى دون تحفظ للمركيز دى « مارى » ـ الذى لم يكن ليهتم بتفصيلات واجبات السفير الفرنسى ـ أهمل هذه الواجبات إلى درجة انه لم يكن من المحتمل أن يدرك الفرنسيون ـ الذين كانوا فى البندقية ـ أن لفرنسا سفيرا مقيما فى المدينة ، لولاى أنا !.. ولما كانوا دائما يطردون دون ما استماع إلى شكواهم ـ كلما نشدوا حمايته ـ فانهم أصبحوا يزدرونه ، ولم ير واحد منهم قط فى معيته أو على مائدته ، التى لم يكن ـ فى الواقع ـ يدعوهم إليها اطلاقا . وكنت كثيرا ما آخذ على عاتقى أداء ما كان ينبغى على رئيسى أن يؤديه ، وأؤدى للفرنسيين ـ الذين كانوا يلجئون إليه أو إلى أنا ـ كل ما كان فى طوقى من خدمات . ولقد كنت خليقا بأن أفعل فوق ما كنت أفعل ، لو أننى كنت فى أى بلد آخر .. ولكننى لم أكن أملك ـ بحكم منصبى ـ أن أقابل أى شخص من ذوى النفوذ ، فكنت كثيرا ما أضطر إلى أن ألجأ إلى القنصل .. وكان لدى القنصل من دواعى الحذر ـ نظرا لاستقراره مع أسرته فى البلد ـ ما كان يمنعه من أن يفعل كل ما كان يهوى

(١) حكومة جمهورية البندقية .

.. على أننى كنت أجسر أحيانا ـ عندما أراه صامتا لا يجرؤ على الكلام ـ على الاقدام على تصرفات خطرة ، قدر لى التوفيق فى كثير منها . وإنى لأذكر مغامرة منها ، لا تزال ذكراها تحملنى على الضحك وما أظنه يخطر ببال أحد ، أن رواد المسرح بباريس مدينون لى بكورالين وأختها كايى، وإن لم يكن ثمة ما هو أصدق من هذا . فلقد تعاقد «فيرونيز»ـ أبوهما ـ على الانضمام وابنتيه إلى الفرقة الإيطالية . وبعد أن تسلم ألفى فرنك لنفقات الرحلة ، لم يسافر وإنما انضم ببساطة إلى مسرح « سان لوك »(١) بالبندقية ، حيث اجتذبت كورالين ـ برغم أنها كانت لا تزال طفلة ـ كثيرا من الناس . فكتب السيد الدوق دى جيفر ـ الأمين الأول للديوان الملكى ـ إلى السفير مطالبا بالأب وابنتيه ، وأسلمنى السيد دى مونتيجى الخطاب ، وكانت كل التعليمات التى زودنى بها ، هى : « انظر هذا الأمر ! » . فذهبت إلى السيد لوبلون ، ورجوته أن يخاطب السيد الذى كان يمتلك مسرح « سان لوك » ، والذى كان من أعضاء مجلس الشيوخ ـ ويدعى ، على ما أظن ، « جستنياتى » ـ فيقنعه بأن يسرح فيرونيز ، الذى كان متعاقدا لخدمة الملك . ولم يكن لوبلون متحمسا للمهمة ، فأساء أداءها ، وتعلل « جستنيانى » بمختلف الحجج ، فلم يسرح فيرونيز . واغتظت .. وكنا فى « الكرنفال » ، فاستقللت زورقا وقد تقنعت ، وذهبت إلى قصر « جستنيانى ». وبهت كل من رآنى فى جندولى

---

(١) أضاف روسو الى هذا قوله : « لست واثقا من أنه لم يكن مسرح « سان صموئيل » ، فان الأسماء الصحيحة تغيب من ذاكرتى تماما »

وأنا فى ثيابى الرسمية ، إذ أن البندقية لم تر شبيها لهذا العمل من قبل . ودخلت القصر ، وأوحيت بأن يعلن السيد بمقدمى على أننى « السيدة ذات القناع » ، وما أن دخلت عليه ، حتى أزحت قناعى ، وأعلنت اسمى ، فامتقع وجه عضو الشيوخ ، وجمد مشدوها . وإذ ذاك قلت له فى لهجة أبناء البندقية : « سيدى ، يؤسفنى أن أزعج سعادتك بزيارتى ، ولكن فى مسرح « سان لوك » ـ التابع لك ـ رجلا يدعى فيرونيز ، تعاقد على خدمة الملك ، وقد طولبت به دون جدوى. لذلك جئت أطالب به باسم صاحب الجلالة ! » . وأحدث هذا القول ـ على إيجازه ـ أثرا . فلم أكد انصرف ، حتى هرع صاحبنا إلى محققى الدولة القضائيين ، الذين أوضحوا له الموقف ، ففصل فيرونيز فى اليوم ذاته . وكان أن أوفدت إلى هذا من أنذروه بأنه إذا لم يرحل فى خلال أسبوع ، فسوف أعمل على إلقاء القبض عليه .. ومن ثم رحل !

* * *

وفى مناسبة أخرى ، انقذت ربان سفينة تجارية من مأزق ، بجهودى وحدها ، ودون معونة أى شخص تقريبا . وكان الربان من أبناء (مارسيليا) ، ويدعى « أوليفييه » ، وقد نسيت اسم السفينة ، فقد اشتجر ملاحوه مع « الاسكلافونيين »(١) الذين كانوا فى خدمة الجمهورية . وكان من جراء الشغب الذى ارتكب ، أن احتجزت السفينة

---

(١) أبناء بلاد الكروات .

وفرضت عليها تحفظات بلغ من قسوتها أن أحدا — سوى الربان — لم يكن يملك أن يصعد إليها أو أن يغادرها دون إذن. ولجأ الربان إلى السفير ، الذى صرفه فى جفاء ، فلجأ إلى القنصل ، ولكنه قال له إن مسألته لم تكن مسألة تجارية ، وأنه لا يملك التدخل . وإذ لم يدر الرجل ما يفعله بعد ذلك ، جاءنى فأوضحت للسيد دى مونتيجى أن عليه أن يسمح لى بأن أرفع مذكرة إلى مجلس الشيوخ . ولست أذكر ما إذا كان قد أذن لى، ولا ما إذا كنت قد قدمت المذكرة ، وإنما أذكر تماما أن المساعى التى بذلتها لم تنته إلى شىء ، وظل التحفظ قائما ، فلجأت إلى عمل حازم قدر له النجاح ، إذ أوردت بيانا عن هذه المسألة فى رسالة إلى السيد دى « موريبا » ، وإن لقيت عناء كبيرا فى إقناع السيد دى مونتيجى بأن يجيز هذا البيان . وكنت أعرف أن رسائلنا كانت تفتح فى البندقية — برغم أنها لم تكن تستحق هذا العناء — إذ كنت أملك الدليل على ذلك ، فمثلا فى الفقرات التى اعتدت أن أجدها منقولة بالنص فى الصحيفة الرسمية .. وهو لون من عدم الأمانة حاولت عبثا أن أحمل السفير على أن يحتج عليه . وكانت غايتى من الحديث عن هذا الحادث المكدر فى الرسالة ، هى أن أستغل فضول سلطات البندقية ، لكى أرهبهم وأحملهم على أن يطلقوا سراح السفينة .. فإن الربان كان مسوقا إلى الافلاس قبل أن يصدر رد البلاط عن هذه المسألة ، لو أنه اضطر لانتظار هذا الرد .. بل إننى أقدمت على إجراء آخر، إذ زرت السفينة لأستجوب الملاحين ، واصطحبت الراهب « باتيزيل » — كاتم أسرار القنصل — الذى لم يأت إلا كارها .

فقد كان هؤلاء المساكين جميعا يخشون أن يغضبوا مجلس الشيوخ . ولما لم يكن بوسعنا أن نصعد إلى سطح السفينة ، بسبب الحظر المفروض ، فقد بقيت فى جندولى ، وقمت بالتحقيق من هناك ، موجها أسئلتى بصوت مرتفع ، وإلى كل الملاحين تباعا ، وقد صغت هذه الأسئلة بحيث تستدعى إجابات فى صالحهم . ولقد حاولت أن أحمل باتيزيل على أن يسألهم وأن يعد التقرير بنفسه ، وهو أمر كان من مهامه — فى الواقع — أكثر مما كان من مهامى ، ولكنه لم يشأ أن يوافق على ذلك اطلاقا ، ولم ينبس بكلمة واحدة ، بل أنه كاد يأبى أن يوقع التقرير بعد أن وقعته أنا .. على أن هذه الخطة — المنطوية على شىء من الجراة — كانت موفقة للغاية ، فأفرج عن السفينة قبل أن يصل جواب الوزير بوقت طويل . وأراد الربان أن يقدم لى هدية ، فقلت له وأنا أدق كتفه ، دون أن أبدى استياء : « كابتن أوليفييه ، أتظن أن رجلا لا يتقاضى الفرنسيين رسم الجوازات — وهو حق مقرر له — يرضى أن يتقاضاهم ثمن حماية الملك ؟ » .. ورغب الربان فى أن أتناول الغداء معه على سطح السفينة — على الأقل — فقبلت مصطحبا سكرتير السفارة الأسبانية ، المدعو « كاريو » — وكان رجلا ذكيا بالغ اللطف ، غدا بعد ذلك سكرتيرا للسفارة الأسبانية فى باريس، وقائما بالأعمال فيها .. وقد كنت مرتبطا معه بروابط من الود، تماثل تلك التى كانت بين سفيرينا !

ولقد كنت خليقا بأن أغدو سعيدا ، لو أننى عرفت — إذ رحت أفعل كل ما وسعنى من خير ، فى تجرد من المصلحة

الذاتية ــ كيف ادخل قدرا كافيا من النظام والانتباه على كل هذه المسائل الدقيقة ، حتى لا أغدو مستغفلا ، فأخــدم الغير على حساب مصالحى !.. ولكن أتفه الأخطاء فى منصب ــ كذاك الذى كنت أشغله ــ لا تمر دون تبعات ، ومن ثم فقــد كنت أستنزف كل انتباهى فى الجهد لتفادى اية اخطاء مضادة لعملى .

***

ولقد كنت ــ فى كل ما يتعلق بواجبى الرئيسى منظمــا إلى أقصى درجات النظام ، ودقيقا إلى أقصى درجات الدقــة . وفيما عدا بضعة أخطاء اضطرنى التعجل المفرط إلى ارتكابها فى صوغ الشفرة ــ وقد اشتكى منها معاونو الســيد اميلو ذات مرة ــ لم يأخذ على السفير ، أو أى امرىء سواه ، اهمالا فى اداء أى واجب من واجباتى ، وهو أمر كان جديرا بالملاحظــة بالنسبة لرجل شديد الإهمال وشديد التهور مثلى .. بيد أننى كنت اغفل واهمل فى تصرفى فى المســائل الخاصة التى كنت آخذها على عاتقى ــ أحيانا ــ فكان حب الانصاف يجعلنى أتحمل دائما اللوم من تلقاء نفسى ، قبل أن يفكر أى امرىء فى أن يشكو منه !.. ولن اذكر ــ فى هذا المجال ــ سوى حادث واحد ، كان له أثر فى رحيلى عن البندقية ، وقدر لى أن أشعر بآثاره ــ بعد ذلك ــ فى باريس !

ذلك أن طاهينا ــ وكان يدعى « روسيلو » ــ أحضر من فرنسا ســندا قديما بمائتى فرنك ، كان أحــد صناع الشعر المستعار ــ من أصدقائه ــ قد تسلمه من نبيل بندقى يدعى « جانيتو نانى » ، فى مقابل قلنسوات من الشعر المســتعار .

واحضر لى « روسيلو » هذا السند ، ورجانى أن احاول عمل أى شىء بصدده ، بالإجراءات السليمة . وكنت أعرف ــ كما كان يعرف هو الآخر ــ أن العادة التى كانت متبعــة لدى نبلاء البندقية ، هى ألا يدفعــوا قط أية ديون تحملوها فى الخارج ، ما داموا قد عادوا إلى وطنهم . فاذا بذل أى سعى لقسرهم على الدفع ، أرهقوا الدائن التعس بالارجاء الطــويل المتــكرر ، وبالنفقات ، حتى تثبط عزيمته ، ولا يلبث أن يعــدل ــ فى النهاية ــ عن المطالبة ، أو يقبل اية تسوية ضئيلة !. ورجوت السيد لوبلون أن يتحدث إلى « جانيتو » فاعترف هذا بالورقة ، ولكنه أبى أن يدفع قيمتها . وبعد كفاح طويل ، وعده بأن يدفع ثلاثة « سيكانات » . فلما حمل إليه لوبلون السند ، لم تكن السيكانات الثلاثة حاضرة ، فلم يكن ثمة بد من الانتظار .. وفى خلال هذه المهلة ، دب الخلاف بينى وبين السفير ، فخرجت من خدمته . وقد تركت أوراق السفارة فى اتم نظام ، ولــكن سند « روسيلو » لم يوجد بينها قط . وأكد لى السيد لوبلون أنه كان قد رده إلى ، وكنت أعرف أنه من النبل بحيث لا يرقى إليه الشك ، ولكننى عجزت عن تذكر ما جرى لهذا السند . ولما كان جانيتو قد أقر بالدين ، فقد رجوت السيد لوبلون أن يحاول الحصول منه على السيكانات الثلاثة فى مقابل ايصال ، أو أن يستدرجه إلى تجديد السند بنسخة أخرى منه ، ولكن « جانيتو » رفض الأمرين ، إذ علم بضياع السند .. فعرضت على روسيلو السيكانات الثلاثة ــ من جيبى الخاص ــ كسداد للسند ، ولكنه أبى أن يأخذها ، وأخبرنى بأن أسوى الأمر مع الدائن الباريسى ، الذى أعطانى عنوانه ، ولكن صانع الشعر

المستعار ، طالب بسنده أو بدينه كاملا ، إذ علم بما حدث . فما الذى كنت أضن به — فى سورة غيظى — فى مقابل العثور على هذا السند اللعين ؟!.. ودفعت المائتى فرنك من مالى ، فى وقت كنت فيه فى أشد الضيق المالى . وهكذا كان ضياع الوثيقة سببا فى حصول الدائن على دينه كاملا ، فى حين انه لو كان قد تسنى — لسوء حظه — العثور على السند ، لوجد عناء فى انتزاع العشرة « ايكو » (1) الموعودة من صاحب السعادة جانيتو نانى !

ولقد جعلتنى المقدرة — التى استشعرتها فى نفسى — على أداء عملى ، مفعما بالميل إليه .. وفيما عدا صحبتى لصديقى « كاريو » ، وللفاضل « التونا » — الذى لن ألبث أن اتحدث عنه — وفيما عدا بعض ألوان الترويح البريئة — التى تمثلت فى التردد على ساحة سان مارك وعلى المسرح — وبعض زيارات كنا نقوم بها سويا فى أغلب الأحيان .. فيما عدا ذلك ، كانت واجباتى هى الأسباب الوحيدة للتسلية والمتعة . ومع أن عملى لم يكن شاقا أكثر مما ينبغى ، لا سيما ازاء العون الذى كنت ألقاه من الراهب دى « بينى » ، إلا أن مراسلاتنا كانت كثيرة جدا ، كما اننا فى فترة حرب ، ومن ثم فلم تكن تعوزنى الشواغل ، بل كنت أقضى شطرا كبيرا من النهار فى العمل — فى كافة الأيام — كما أننى كنت أعمل ، فى أيام البريد ، إلى منتصف الليل أحيانا . وكنت أكرس بقية الوقت لدراسة المهنة التى شرعت فى ممارستها ، والتى كنت — على ضوء البداية

---

(1) العشرة ايكو تعادل فى قيمتها السيكانات الثلاثة .

الناجحة — أعول كثيرا على أن أبلغ فيها منصبا طيبا فيما بعد .. والواقع انه لم تكن ثمة سوى فكرة واحدة عنى لدى الجميع ، ابتداء من السفير الذى كان راضيا عن خدماتى رضاء تاما ، فلم يشك منها قط .. وما جاء كل الغضب — الذى ثار فيما بعد — إلا عن أننى حين ألفيت شكاياتى لا تلقى أذنا سامعة ، طلبت إعفائى من العمل . وكان كل سفراء الملك ووزرائه — الذين كنا على تراسل معهم — يهنئونه على كفاءة سكرتيره ، وهو ما كان يجب أن يثير اعتزازه ، ولكنه أحدث أثرا عكسيا فى رأسه السىء التفكير . وكانت بين هذه التهانىء واحدة بالذات ، تلقاها فى ظرف حرج ، فلم يغتفرها لى قط . وهى جديرة بأن أتكبد عناء شرحها .

وذلك انه كان قليل المقدرة على مقاومة ما يضايقه ، حتى انه فى يوم السبت ذاته — وهو يوم ارسال كل الرسائل تقريبا — لم يكن ليقوى على الصبر عن الخروج ريثما ينتهى العمل ، وإنما كان يستحثنى باستمرار متعجلا رسائل الملك والوزراء ، ليوقعها فى عجلة ، ثم يهرع إلى حيث لم أكن أدرى ، تاركا معظم الرسائل الأخرى بدون توقيع ، مما كان يضطرنى — عندما لا تكون هناك سوى أخبار عادية — إلى أن أصوغها فى قالب نشرات الأخبار .. أما حين تكون هناك مسائل متعلقة بخدمة الملك ، فقد كانت الضرورة تدعو إلى توقيع الرسائل ، فكنت أتولى توقيعها بنفسى . وقد فعلت ذلك بصدد رسالة هامة كنا قد تسلمناها من السيد « فانسان » ، القائم بأعمال الملك فى (فيينا) . وكان ذلك فى الوقت الذى سار فيه الأمير لوبكوفيتش ، زاحفا على (نابولى) ، والذى قام فيه الكونت دى جاج

بتقهقره الذى لا ينسى ، والذى كان أروع عمل عسكرى فى القرن كله ، وكان حديث أوربا . وكان النبأ الذى بلغنا ، هو أن رجلا ـ أرسل إلينا السيد فانسان أوصافه ـ كان قد غادر (فيينا) ، معتزما المرور بالبندقية ، قاصدا ـ متخفيا ـ إلى (ابروتسى) ليعمل على إثارة الناس عند اقتراب النمسويين . ونظرا لغياب السيد دى مونتيجى ـ الذى لم يكن ليهتم بشىء ـ فاننى أرسلت إلى السيد المركيز « ديلوبيتال » هذا النبأ الذى كان فى وقته المناسب ، حتى ليحتمل أن يكون آل « بوربون » مدينين إلى جان جاك المغبون بفضل الابقاء على مملكة نابولى !

وإذ شكر المركيز ديلوبيتال زميله ـ كما كان ينبغى ـ امتدح له سكرتيره (١) والخدمات التى أداها للقضية المشتركة فاذا الكونت دى مونتيجى ـ الذى كان جديرا بأن يلوم نفسه على إهماله فى هذه المسألة ـ يخال انه يلمح لوما خلال هذه التهنئة ، فحدثنى عنها فى استياء . وكنت قد اقدمت على أن افعل مع الكونت دى كاستيلان ـ السفير الفرنسى فى القسطنطينية ـ ما فعلته مع المركيز ديلوبيتال ، وإن كان النبأ أقل اهمية . وإذ لم تكن ثمة وسيلة لإرسال البريد إلى القسطنطينية سوى الرسل الذين اعتاد مجلس الشيوخ أن يوفدهم من آن إلى آخر إلى « بايله » (٢) ، فقد كان السفير

(١) أى « جان جاك روسو » نفسه .

(٢) « البايل » : لقب سفير البندقية فى القسطنطينية .

الفرنسى ينبأ بمواعيد رحيل هؤلاء الرسل ، ليتمكن من الكتابة إلى زميله إذا راى داعيا لذلك . وكان هذا الاخطار يصدر قبل الرحيل بيوم أو اثنين ، ولكن السيد دى مونتيجى لم يكن يلقى اعتبارا كافيا ، ومن ثم فقد كانوا يكتفون باخطاره قبل رحيل البريد بساعة او اثنتين ، لمجرد مراعاة الشكليات !.. وكان هذا يضطرنى ـ فى كثير من المرات ـ إلى أن أعد الرسالة فى غياب السفير . وكان السيد دى كاستيلان يذكرنى ـ فى رده ـ بعبارة التكريم ، وكذلك كان السيد دى جونفيى ـ فى جنوا ـ يفعل ، فكان كل تعبير عن حسن رأيهما فى شخصى ، سببا لخلافات جديدة ..

* * *

وأعترف بأننى لم أحاول أن أتحاشى فرصة التعريف بنفسى ولكننى لم أكن أسعى إلى ذلك فى غير المناسبات اللائقة . وكان يبدو لى أن الانصاف يبيح لى ـ إذ أحسن الخدمة ـ أن أطمع فى الجزاء الطبيعى للخدمات الطيبة ، ألا وهو التقدير من أولئك الذين كانوا يملكون تقديرها ومنح الجزاء عنها . ولست أملك أن أقول ما إذا كانت دقتى فى أداء مهامى كانت ـ فى نظر السفير ـ سببا مشروعا للشكوى والاحتجاج ، ولكن الذى أملك أن أقوله هو أن هذه الشكوى كانت هى الشكوى الوحيدة التى اعتاد أن يرددها إلى يوم فراقنا !

وكانت داره ـ التى لم يكن يحسن إدارتها اطلاقا ـ مليئة بالسفلة : كان الفرنسيون يلقون هناك أسوأ معاملة ، بينما كانت للإيطاليين المكانة العليا .. وحتى فيما بين هؤلاء ، كان

المستخدمون الصالحون الذين الحقوا منذ وقت طويل بخدمة السفارة ، يطردون فى غير ما إنصاف، وكان من هؤلاء المستشار الأول للسفير ، الذى شغل المركز نفسه فى عهد سلفه الكونت دى فرولاى ، والذى كان يدعى ــ على ما أعتقد ــ الكونت « بياتى » ، أو ما يقرب من هذا الاسم . . أما المستشار الثانى ــ وكان السيد دى مونتيجى هو الذى اختاره بنفسه ــ فكان شقيا من (مانتوى) ، يدعى « دومينيك فيتالى » ، وقد عهد إليه السفير بشئون داره ، فاستطاع بالتملق وبالشح الخسيس أن يكتسب ثقته ويغدو اثيرا له ، مما اضر بمن كان قد ظل بالدار من أمناء قلائل ، وبالسكرتير الذى كان على رأسهم . . وعين الرجل الشريف أمينه ، تثير دائما قلق اللئام . وقد كان هذا وحده كافيا لأن يجعل هذا الرجل يكرهنى ، بيد أن كراهيته كانت ترجع ــ كذلك ــ إلى سبب آخر ضاعف منها إلى حد كبير . ولا بد لى من أن أبدى هذا السبب ، ولكم أن تدينونى إذا كنت مخطئا !

ذلك انه كان للسفير ــ وفقا لتقليد راسخ منذ أمد طويل ــ مقصورة فى كل من المسارح الخمسة . وكان يعين ــ على مائدة الغداء ، فى كل يوم ــ المسرح الذى يعتزم الذهاب إليه ، فكنت انا الذى يليه فى الاختيار، على أن يأخذ المستشارون المقصورات الأخرى . وكنت آخذ ــ عند انصرافى ــ مفتاح المقصورة التى

اخترتها . ففى ذات يوم ، لم يكن فيتالى ــ الذى كان يحتفظ بالمفاتيح ــ موجودا ، فعهدت إلى ساع كان فى خدمتى ، بأن يحضر لى مفتاحى فى دار عينتها له . ولكن فيتالى لم يرسل المفتاح ، بل قال إنه قد تصرف فى شأنه . ومما زاد من غيظى ، أن الساعى ادلى بهذا النبأ أمام الملأ . فلما كان المساء ، حاول فيتالى أن يتقدم ببضع كلمات يعتذر بها ، ولكننى لم انصت إليه ، بل قلت له : « تعال غدا أيها السيد ، فقلها فى نفس الساعة ، وفى نفس الدار التى تلقيت أنا الاهانة فيها ، وامام الناس الذين شهدوها . . والا ، فسوف أطالب بعد غد ــ ومهما يكن ما يحدث ــ بأن يغادر أحدنا هذه السفارة ! » . وأفحمته لهجتى الحاسمة ، فجاء إلى الدار فى الساعة المحددة ، واعتذر علانية ، فى صغار يليق به ولكنه راح يرسم خطته على مهل . وبينما كان يبدى لى احتراما بالغا ، راح يعمل على شاكلة الإيطاليين (١) ومع أنه لم يستطع ان يحمل السفير على فصلى، إلا أنه اضطرنى إلى أن أستقيل من تلقاء نفسى !

ومن المحقق أن مثل هذا الوغد لم يكن أهلا لأن يعرفنى ، ولكنه عرف عنى ما كان يخدم أغراضه . . عرف أننى كنت من الطيبة واللين بحيث أحتمل المظالم غير المقصودة ، واننى من الكبرياء بحيث لا أحتمل الاهانات المتعمدة ، واننى احب

---

(١) يقصد الدس فى الخفاء ، والنميمة وما إليهما من الأساليب .



التواضع والوقار فى المناسبات الملائمة ، واننى لم أكن أقل حرصا على ما ينبغى لى من تكريم ، منى على أداء ما هو واجب على منه للغير .. وهذا ما استغله ووفق بفضله إلى مضايقتى . فقد قلب السفارة راسا على عقب ، وازال منها ما كنت قد بذلته لصون الأصول ، وترتيب المراكز ، والدقة ، والنظام . والبيت إذا خلا من امراة ، احتاج إلى قواعد للنظام أقسى بقليل مما يحتاج إليه سواه ، فى سبيل التمكين للاحتشام من أن يسوده مقترنا بالكرامة والوقار . أما هذا الرجل ، فانه سرعان ما جعل من دارنا مباءة للخلاعة والفجور ، ووكرا للأنذال والفاسقين . وخلع منصب المستشار الثانى (١) على قواد (٢) مثله ، كان يمتلك دارا للدعارة (٣) فى (كروا دى مالت) ـ صليب مالطة ـ فكان هذان اللئيمان فى وئام تام ، وعلى وقاحة تعادل فجورهما !.. فلم يعد فى الدار ركن واحد يليق برجل شريف ، فيما عدا غرفة السفير وحدها .. بل إن هذه أيضا لم تكن كما ينبغى !

ولما كان صاحب السعادة قد اعتاد الا يتناول عشاء قط ، فقد كانت تمد لنا ـ المستشارين وأنا ـ مائدة خاصة فى المساء ،

---

(١) اذ انه خلف الكونت بياتى فى منصب الأمين الأول .

(٢) فى الأصل الفرنسى ... Maq

(٣) qui tenait b ... public

يجلس إليها الراهب دى بينى والسعاة كذلك . وكان المرء حريا بأن يلقى فى أحقر الحانات خدمة أكرم ، وأدوات للمائدة انظف ، وطعاما أحسن مما كان يقدم إلينا إذ ذاك ! .. فما كنا لنحظى بغير شمعة واحدة صغيرة سوداء ، وصحاف من القصدير ، وشوكات من الحديد . ولقد كنت خليقا بأن أتحمل ما كان يدور فى السر ، لولا أننى حرمت من جندولى ، فأصبحت الوحيد ـ بين سكرتيرى السفراء ـ الذى يضطر إلى أن يستأجر جندولا أو أن يسير على قدميه . ولم يكن يرافقنى ـ إذا ما أوفدت إلى مجلس الشيوخ ـ سوى خدم صاحب السعادة السفير (١) . وإلى جانب هذا ، كان كل ما يحدث فى السفارة لا يخفى على أهل المدينة ، فقد كان كل موظفى السفير يرفعون عقائرهم بتلك الأنباء . وكان « دومينيك » ـ السبب الأوحد فى كل هذا ـ هو أكثرهم إمعانا فى رفع صوته ! .. فقد كان يعلم أن المعاملة غير الكريمة التى كنا نلقاها ، انما كانت تمسنى أكثر مما تمس سواى . وكنت الوحيد ـ من موظفى الدار ـ الذى يتورع عن الكلام خارجها ، ولكننى كنت ارفع صوتى بالشكوى للسفير .. لا مما كان يجرى فحسب ، بل منه هو نفسه كذلك إذ كان ـ بفضل التحريض الخفى من

---

(١) كان المألوف أن يرافق سكرتير السفارة اذا ما أوفد نائبا عن السفير : حاجب رفيع الدرجة ومستشار .



مستشاره الخبيث ــ يوجه إلى فى كل يوم إهـــانة جــديدة . ولما كنت مضطرا إلى الانفاق عن سعة لكى أظهر فى مستوى أقرانى ، وفى مظهر يليق بمنصبى ، فاننى لم أستطع أن أدخــر « سو » واحدا من مخصصاتى ، وكنت إذا ما طلبت من السفير نقودا ، راح يحدثنى عن تقديره وثقته ، وكان هــذا كاف لأن يملأ جيبى ولأن يمدنى بكل حاجاتى !

* * *

وانتهى هذان الشــقيان(1) إلى أن عبثا برأس سيدهما الذى لم يكن سليم التفكير أصلا ، فقاداه إلى الإفلاس عن طريق استدراجه باستمرار إلى شراء سلع زائفة كانا يقنعانه بانها تحف أثرية . كما حملاه على أن يستأجر قصرا ــ فى (برينتا) ــ بأجر يعادل ضعف قيمته ، واقتسما الفرق مع المالك . وكانت الغرف مبطنة بالقيشانى ، ومزدانة بأعمدة وأركان من أجمــل أنواع الرخام ، وفقا للطراز الذى كان شائعا فى البلاد . ولقد عمد السيد دى مونتيجى إلى تغطية كل هذه الزخارف ، بألواح من خشب الصنوبر ، متعللا بحجة عجيبة ، هى أن هذا هــو الذى كان متبعا فى الدور الباريسية ! .. ولحجة أخرى كهذه ، كان هو السفير الوحيــد ــ فى البندقية ــ الذى جرد سـعاة ســـفارته من السيوف ، وخدمه الخصوصين من العصى ..

---

(1) المستشاران الإيطاليان ■

هكذا كان الرجل الذى راح يكرهنى ، لمجرد أننى كنت أخدمه بأمانة . ولعله كان صادرا فى ذلك عن تفكيرٍ مشـــابه لنفس التفكير الذى حمله على التصرفات السالفة الذكر !

ولقد كنت أحتمل صابرا تصرفاته المهينــة ، وقســـوته ، وسوء معاملته ، طالما ظللت أراها صادرة عن الطباع التى جبل عليها ، دون أن أحسبها صادرة عن كراهية . ولكننى لم أكــد أتبين أن الخطة كانت مرسومة لحرمانى من الاعتبار الذى كنت أستحقه بفضل خدماتى الصـــادقة ، حتى عقدت العزم على أن أستقيل من منصبى . وكان أول دليـــل تلقيتــه على سوء نيته ، هو ذاك الذى حدث بمناسبة مأدبة كان عليه أن يقيمها للسيد الدوق دى مودينى وأسرته ، عنــدما حلوا بالبندقية . فقد انبانى بأنه لن يكون لى محـــل فى تلك المأدبة . فأجبتــه مستاء ــ ولكن فى غير غضب ــ بأننى قــد اعتدت أن أحظى بشرف تناول الغداء على مائدة السفير يوميا ، فاذا أبدى السيد الدوق دى مودينى ــ عند مجيئه ــ أننى يجب أن أغيب عن المائدة ، فمن اللائق بكرامة صاحب السعادة (السفير) ، ومن الواجب على ، الا أنصـــاع لهذه الرغبة . فقـــال فى حدة : « ماذا ؟! .. أيطالب سكرتيرى ــ وهو لم يبلغ مرتبة المستشار ــ أن يتناول الغداء مع عاهل ، فى حين أن مســـتشارى لن يحضرا المأدبة ؟! » . فأجبت : « أجل يا سيدى ، فان المنصب الذى شرفتنى سعادتك به ، يرفع مقامى ــ طالما كنت أشغله ــ

إلى درجة تجعل لى الأولوية حتى على مستشاريك ، أو أولئك الذين يقال عنهم انهم مستشاروك ، ومن ثم فان لى حق الحضور فى مناسبات ليس لهم أن يحضروها . وأنت لا تجهل أن التقاليد الرسمية ، والعرف المتبع من زمن أبعد من أن يذكر ، تحتم على — فى اليوم الذى تحضر فيه التشريعات الرسمية — أن اتبعك فى ثياب التشريفة ، وأن احظى بحضور مآدب قصر « سان مارك » معك . ولست أدرى كيف لا يجوز للشخص الذى يجلس فى مأدبة عامة مع « الدوج » (١) ومجلس شيوخ البندقية ، أن يجلس مع السيد الدوق دى مودينى بالذات ، إلى مائدة واحدة ؟! » . ومع أن حجتى كانت فوق كل رد ، إلا ان السفير لم يسلم بها . غير اننا لم نجد فرصة لتجديد النزاع . إذ أن السيد الدوق دى مودينى لم يأت للغداء على مائدته قط !

* * *

ومنذ ذلك الحين لم يكف السفير عن مضايقتى ، وعن امتهان حقوقى ، مغتصبا الامتيازات البسيطة التى تتعلق بمنصبى ، فكان يجردنى منها ليخلعها على عزيزه فيتالى . وانى لواثق من أنه لو استطاع أن يجرؤ على إيفاده — بدلا منى — إلى مجلس الشيوخ ، لفعل . وكان يستخدم الراهب دى بينى عادة ، لكتابة خطاباته الخاصة فى حجرة مكتبه ، فعهد

---

(١) لقب كان يطلق على رئيس الدولة فى البندقية .

إليه بأن يكتب إلى السيد دى موريبا تقريرا عن مسألة الربان أوليفييه ، لم يذكرنى فيه البتة ، مع أننى كنت الوحيد الذى تدخل فى المسألة .. بل انه أنكر على شرف التحقيق الرسمى الذى قمت به — والذى أرسل إلى السيد دى موريبا نسخة منه — وعزاه إلى باتيزيل ، الذى لم ينبس ببنت شفة . فلقد أراد أن يغيظنى وأن يرضى صاحب الحظوة لديه ، دون أن يستغنى عنى برغم ذلك ، إذ شعر بأنه لم يكن ليعثر على خليفة لى ، بنفس السهولة التى عثر بها على خليفة للسيد دى فولو — سلفى — الذى كان قد أشاع فى الخارج فكرة صحيحة عنه !.. ولم يكن له غنى عن سكرتير يعرف اللغة الإيطالية، نظرا لمراسلاته مع مجلس الشيوخ .. لم يكن فى غنى عن سكرتير قادر على أن يكتب كل رسائله ، ويدبر كل أموره ، دون تدخل منه .. سكرتير يجمع بين المقدرة على أن يخدمه بأمانة ، والهوان الذى يجعله يروق للسيدين المستشارين المدللين ! .. ومن ثم فقد أراد أن يستبقينى وأن يكيدنى فى آن واحد ، بأن يمسكنى بعيدا عن وطنى وعن وطنه ، دون ما نقود تمكننى من العودة . ولعله كان جديرا بأن ينجح لو أنه سعى إلى ذلك بمزيد من الحكمة . ولكن فيتالى كان يرى آراء أخرى ، وكان يبغى حملى على الرحيل ، وقد وفق فى غايته . فما أن تبينت أننى كنت أبذل جهودى ، وأن السفير كان ينظر إلى خدماتى وكأنها جرائم ، [illegible] لى . .

وأننى لم يعد لى أن أطمع ـ طالما ظللت معه ـ فى غير المضايقات فى الداخل ، وعدم الانصاف فى الخارج .. وأن الأذى الذى كان يحاول أن يلحقه بى قد يفوق فى الضرر ما قد أكسبه من رضائه إذا أنا بقيت فى خدمته ، نظرا لما كان قد اجتلبه على نفسه من سخط عام .. ما أن تبينت كل هذا ، حتى قررت أن أستأذنه فى أن يعفينى من العمل ، مفسحا له الوقت كى يحصل لنفسه على سكرتير . على أنه ظل سادرا فى مسلكه ، دون أن يجيب بنعم أو لا . فلما رأيت أن الأمور لم تتحسن ، وأنه لم يتجه إلى البحث عن سكرتير آخر ، كتبت إلى أخيه ، مفصلا كافة البواعث ، راجيا إياه أن يحمل أخاه على تسريحى، مضيفا إلى ذلك أننى لن أمكث فى منصبى على أية حال ! .. وانتظرت طويلا ، دون أن أتلقى جوابا . وكنت قد بدأت أشعر بحيرة بالغة ، عندما تسلم السفير ـ أخيرا ـ رسالة من أخيه . ولا بد أنها كانت شديدة اللهجة ، إذ أننى لم أره ــ برغم أنه كان عرضة لأعنف نوبات الغضب ــ فى مثل الهياج الذى رأيته فيه إذ ذاك . وبعد سيل من السباب المقذع، لم يعد يدرى ما يقول، فاتهمنى بأننى بعت أسرار الشفرة . وأخذت أضحك ، ثم سألته فى لهجة ساخرة عما إذا كان يظن أن فى البندقية بأسرها مغفلا واحدا يرضى بأن يدفع « ايكو » واحدا من أجلها . وجعله هذا الجواب يستشيط حنقا ، فهم بأن يدعو أتباعه لكى يلقوا بى من النافذة ، كما قال . وكنت حتى تلك اللحظة محتفظا بهدوئى ،

ولكنى إزاء هذا التهديد ـ وجدت أن الغضب والعزة قد تملكانى بدورى ، فاندفعت إلى الباب ، وبعد أن دفعت المزلاج الذى يوصده من الداخل ، عدت إليه وقلت فى لهجة رهيبة : « لا يا سيدى الكونت ، لن يتدخل أتباعك فى هذه المسألة، فتكرم بتسويتها فيما بيننا ! » . وهدأ تصرفى ومظهرى من سورته فى الحال ، وتجلت الدهشة والروع على أساريره . فلما رأيته قد تخلى عن هياجه ، ودعته بكلمات موجزة ، ثم ذهبت ــ دون أن أنتظر منه جوابا ــ ففتحت الباب ، وخرجت ، فاجتزت الحجرة الملحقة بمكتبه فى ثبات ، وسط أتباعه الذين نهضوا كعادتهم ، والذين أعتقد أنهم كانوا أكثر استعدادا لمناصرتى منهم لمناصرته . وبدون أن أعود إلى غرفتى ، هبطت السلم ، وغادرت القصر ، فلم ألجه بعد ذلك قط !

* * *

وذهبت لفورى إلى السيد لوبلون ، لأنبئه بما حدث ، فلم يبد دهشة كثيرة ، إذ كان يعرف الرجل ، وإنما استبقانى للغداء . وكان هذا الغداء ــ برغم التعجل فى إعداده ــ بهيجا، وقد حضره كل الفرنسيين ذوى المكانة ، الذين كانوا فى البندقية . ولم يكن بينهم فرد واحد فى صف السفير ، فقد روى القنصل حكايتى على الجماعة ، وما أن ألموا بها حتى صاحوا جميعا فى وقت واحد ، ولكن فى غير صالح صاحب السعادة . ولم يكن هذا قد سوى حسابى ، ولا أعطانى « سو » واحدا . ولما كانت كل مواردى لا تتجاوز بضع قطع من فئة « اللويس » ، فقد وجدتنى

فى حيرة من أمر سفرى . وإذا بكل الجيوب تتفتح لى ، فأخذت عشرين « سيكان » من السيد لوبلون ، ومثلها من السيد دى سان سير ، الذى كنت وثيق الصلة به ، وكان يلى القنصل فى المكانة من قلبى . ثم شكرت الباقين ، وبقيت — إلى أن قدر لى الرحيل — مقيما لدى رئيس ديوان القنصلية ، لكى أثبت للرأى العام أن الأمة لم تكن مشتركة فى مظالم السفير . ولقد أهاج هذا أن رآنى موضع تكريم فى محنتى ، بينما كان هو — برغم مركزه كسفير — منبوذا ، ففقد حجاه تماما ، وأخذ يتصرف كالمخبول . وبلغ من غفلته أن قدم إلى مجلس الشيوخ مذكرة لاعتقالى . فلما انبأنى بذلك الراهب دى بينى ، قررت أن أبقى أسبوعين آخرين، بدلا من أن ابادر إلى الرحيل فى اليوم التالى ، كما كنت أعتزم . وقد درس تصرفى فلقى اقرارا ، كما غدوت موضع تقدير عام . ولم تتنازل الرئاسة حتى بالرد على مذكرة السفير الرعناء ، كما أنبأتنى — عن طريق القنصل — بأن لى أن ابقى فى البندقية ما شئت ، دون أن أزعج نفسى بتصرفات رجل أحمق !. ومن ثم واصلت زياراتى لأصدقائى ، وذهبت لأودع السفير الأسبانى — الذى أحسن استقبالى — والكونت دى فينوكييتى ، وزير نابلى ، الذى لم أجده فكتبت إليه وإذا به يرد بخطاب من ألطف الخطابات . وما لبثت أن رحلت — فى النهاية — غير مخلف ورائى أية ديون ، برغم ضائقتى ، سوى القرضين اللذين ذكرتهما من قبل ، وسوى خمسين « ايكو » كنت مدينا بها لتاجر يدعى «موراندى» ، وقد تكفل « كاريو » بدفعها إليه ، وإن لم أردها إليه قط ، بالرغم من أننا تقابلنا

كثيرا بعد ذلك الحين . أما القرضان اللذان تحدثت عنهما ، فقد سددتهما كاملين بمجرد أن تيسر لى ذلك .

* * *

ولا يجوز أن نترك البندقية دون كلمة عن ملاهى هذه المدينة الشهيرة ، أو — على الأقل — عن القسط الضئيل منها، الذى قدر لى أن أنعم به أثناء مقامى هناك . ولقد رويت كيف أننى — فى شبابى — كنت مقلا فى السعى إلى ملذات هذه المرحلة من السن ، أو — على الأقل — المتع التى توصف بأنها ملذات . ولم أغير من مسلكى هذا فى البندقية ، ولكن مشاغلى — التى كانت كفيلة بأن تمنعنى من أى تغير — جعلت أسباب التسلية البسيطة ، التى كنت أستبيحها ، أكثر امتاعا . وكانت أولى هذه الأسباب وألطفها هى مصاحبة الأكفاء من الناس : السادة لوبلون ، ودى سان سير ، وكاريو ، والتونا ، وسيد فورلانى[1] نسيت — لشدة أسفى — اسمه ، ولكنى لا أستطيع ان اذكر لطفه دون أن تتأثر نفسى . ولقد أوتى — دون كل من عرفت من الرجال — أقرب القلوب شبها بقلبى . ولقد ارتبطنا كذلك باثنين أو ثلاثة من الإنجليز ، واسعى الذكاء والمعرفة، مشغوفين مثلنا بالموسيقى . وكانت لهؤلاء السادة جميعا زوجات ، أو صديقات ، أو عشيقات . وكن جميعا — تقريبا — نساء موهوبات ، تعزف الموسيقى ويدور الرقص فى بيوتهن . وكان

(١) الفورلان اسم يطلق على ابناء منطقة « فريول » التى يقع جزء منها — الآن — فى النمسا ، وجزء آخر فى ايطاليا . وهناك رقصة باسم « فورلان ».

لعب الميسر يدور هناك أيضا ، ولكن فى القليل النادر ، إذ أن ميولنا النزاعة ، ومواهبنا ، وشغفنا بالمسرح ، جعلت هـــذه التسلية ـــ الميسر ـــ عقيمة ، فالمقامرة ليست تسلية إلا لأولئك الذين يستبد بهم الضجر ! .. وكنت قد حملت معى من باريس ، التحامل الذى خلقه الشعور القومى ضد الموسيقى الإيطالية ، ولكننى كنت قد أوتيت من الطبيعة ذلك الإدراك المرهف الذى لا يمكن لمثل هذا التحامل ان يصمد أمامه . فسرعان ما سرى إلى نفسى ذلك الشغف الذى توحيه الموسيقى الإيطالية إلى أولئك الذين يملكون القدرة على الحكم الصحيح بصددها . وإذ سمعت «الباركارول»(١) تبينت أننى لم أسمع قبل ذلك غناء! .. وسرعان ما أولعت بالأوبرا ولعا جنونيا ، حتى أننى كنت حين أضيق بالثرثرة والأكل واللعب فى المقصورات ـــ فى الوقت الذى لم اكن أهفو فيه إلا إلى الانصات ـــ اتسلل فى كثير من الأحيان من رفاقى ، لأذهب إلى ناحية أخرى من الدار . وهناك كنت أجلس وحيدا فى مقصورة مغلقة ، واسلم نفسى للذة الاستمتاع بالأداء ، برغم طوله ، دون أن يزعجنى شىء ، حتى نهـــاية السهرة . وفى ذات يوم ، استسلمت للنوم ـــ فى مسرح سان كريزوستوم ـــ فاستغرقت فيه بدرجة لم أنعم بها قط فى فراشى ، ولم تقو الألحان الصاخبة ، الرائعة ، على إيقاظى ، ولكن .. من لى بمن يصف الشعور العذب الذى أحدثه فى نفسى النغم الناعم والغناء الملائكى اللذان أيقظانى ! .. وأية يقظة ، وأى

(١) أغانى نوتية الجندول .

استغراق ، وأية نشوة تلك التى استشعرتها حين فتحت أذنى وعينى فى آن واحد ! .. كانت أول فكرة واتتنى هى أننى كنت فى الفردوس ! .. كانت تلك المقطوعة الرائعة ، التى لا ازال أذكرها ، والتى لن أنساها ما حييت ، تبدأ هكذا :

« استحوذت على الجميلة .. التى أثارت أعماقى »(١) .

ورغبت فى أن أحصل على لحن هذه القطعة ، وقد ظفرت به ، واحتفظت به زمنا طويلا ، ولكنه لم يكن على الورق فى روعته التى كان بها فى ذاكرتى .. كانت الأنغام واحدة ، ومع ذلك فإن اللحن لم يكن واحدا .. لم يكن من سبيل إلى أداء اللحن بالروعة السماوية التى كان يتردد بها فى رأسى ، والتى كان يؤدى بها فى الواقع عندما ايقظنى !

أما الموسيقى التى تعتبر ـــ فى رأيى ـــ أسمى من موسيقى الأوبرا ، والتى لا مثيل لها فى إيطاليا أو فى بقيـــة العالم ، فهى موسيقى « الاسكوله » .. و « الاسكوله » بيوت خيرية أنشئت لتعليم الفتيات الصغيرات اللائى لا موارد لهن ، واللائى تعدهن الجمهورية بعـــد ذلك ، إما للزواج ، وإما للالتحاق بالأديرة . وللموسيقى المكانة الأولى بين المواهب التى تنمى فى هؤلاء الفتيات الصغيرات . ففى يوم الأحد من كل أسبوع ، وفى كنيسة كل من هذه « الاسكولات » الأربع ، تؤدى خلال قداســـات الغروب مقطوعات(١) يشترك فيها عدد كبير من المنشدات وعدد كبير من العازفات ، ويقوم بتأليفها وتلحينها وإدارة أدائها أكبر

(١) Conservami la bella che si m'accende il con.

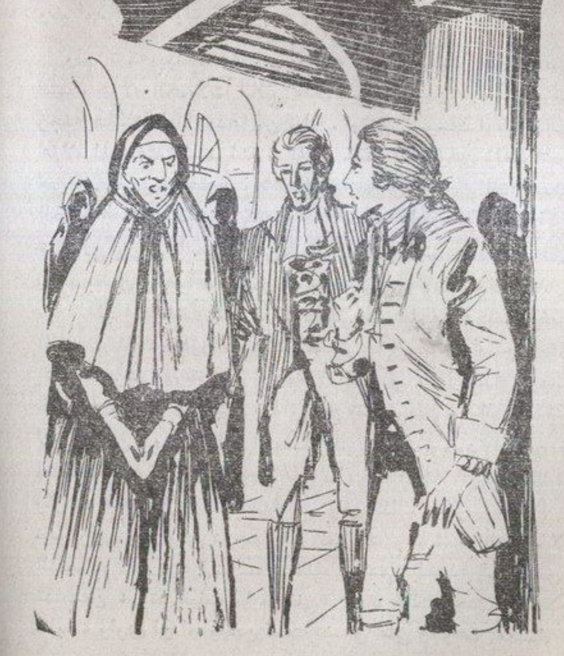
الموسيقيين الإيطاليين .. وهى تؤدى فى المقصـورات ذات الحواجز المصنوعة من الخشب المتشابك (المعشق كجدران المنابر) . ويقتصر أداؤها على الفتيات اللائى لا تبلغ أكبر واحدة منهن العشرين من عمرها .. وليس بوسعى أن أتصور شيئا ألذ وأعذب وأكثر تأثيرا فى النفس من هذه الموسيقى . فإن دسامة الفن ، وعذوبة الغناء ، وجمال الأصوات ودقة الأداء .. كل ما فى هذه الحفلات الموسيقية البهيجة ، يساهم فى خلق انطباع لا ينسب قطعا إلى « جودة الأسلوب » ، ولكنى أرتاب فى أن ثمة قلبا بشريا فى مناعة منه ! .. ولم يتخل كاريو وإياى قط عن حضور هذه القداسات فى كنيسة « المنديكتـانى » ، ولم نكن الوحيدين فى ذلك ، فقد كانت الكنيسة دائما تغص بالهواة .. بل ان ممثلى الأوبرا أنفسهم كانوا يذهبون لينموا ذوقهم الغنائى مسترشدين بهذه النماذج الرائعة . وكان الشىء الذى يدفعنى إلى القنوط ، يتمثل فى تلك الجدران الخشبية اللعينة ، التى لم تكن تسمح بمرور شىء سوى الأصوات ، والتى كانت تحجب عنى الملائكة اللائى قد أوتين ـ ولابد ـ جمـالا يليق بهـذه الأصوات ! .. ولم يكن لى من حديث إلا عن هذا الموضوع ، وقد تحدثت فيه يوما ، فى دار السيد لوبلون ، فقال : « إذا كنت شديد الشوق إلى أن ترى هؤلاء الفتيات الصغيرات ، فمن

(١) المقطوعات المقصودة «Motets» وهى مقطوعات موسيقية غنائية دينية ، تنظم من التعاليم اللاتينية الخاصة بالطقوس الدينية .

السهل إرضاء شوقك . فإننى من المشرفين على المؤسسة ، وكم أود أن أدعوك إلى وجبة خفيفة(١) معهن ! » .

ولم أتركه يرتاح حتى بر بوعده . وإذ دخلت القاعة التى ضمت هؤلاء الجميلات اللائى طال شوقى إليهن ، استشعرت رجفة عاشقة لم أعهدها من قبل . وقدم السـيد لوبلون إلى هؤلاء المغنيات الشهيرات ، اللائى كانت أسماؤهن وأصواتهن هى كل ما عرفته عنهن : « تعالى يا صوفى ! » .. انها بشعة الخلقة ! .. « تعالى يا كاتينا ! » .. إنها ذات عين واحدة!.. « تعالى يا بتينا ! » .. كان الجدرى يشوه وجهها !.. لم تكد توجد بينهن واحدة تخلو من عيب ظاهر .. وضـحك القاسى من المفاجأة العنيفة التى صـادفتنى .. على أنه كانت بينهن اثنتان أو ثلاث يبدون مقبولات الشكل !.. ولم يكن يتقن الغناء إلا مجتمعات (فى كورس) ، فتولانى الأسى . وفى أثناء الوجبة الخفيفة ، رحنا نداعبهن فاذا المرح يفيض بهن ، وإذا الدمامة لا تخلو من بعض آيات البهـاء التى تبينت وجودها فيهن . فقلت لنفسى : ما كن ليقوين على مثل هذا الغناء الرائع ، ما لم يكن قد اوتين أرواحا سامية .. وكن كذلك فعلا . وأخيرا ، تغير رأيى فيهن إلى درجة أننى انصرفت وأنا شبه متيم بهؤلاء الدميمات !.. وجرؤت ـ فى عناء ـ على العودة إلى حضور قداسهن ، وقد تبينت ما طمأننى . وقد ظللت أجد غنـاءهن عذبا ، وأرى أن أصواتهن كانت تضفى على وجوههن بهـاء ،

(١) Gouter « تصبيرة » أو وجبة خفيفة بين الغداء والعشاء .



وقدم السيد لوبلون الى هؤلاء المغنيات الشهيرات ، اللائى كانت أسماؤهن واصواتهن هى كل ما عرفته عنهن .

حتى أننى كنت أصر — ما دمت أسمع غنـاءهن — على أن أتصورهن جميلات ، بالرغم مما كانت تصر عليه عيناى !

والموسيقى — فى إيطاليا — لا تكاد تتكلف شيئا يذكر ، ومن ثم فان حرمان النفس منها — إذا كان لدى المرء ميل إليها — لا يكاد يستحق العناء الذى يبذل فى سبيل ذلك . وقد استأجرت معزفا ، وكنت فى مقابل « ايكو » واحد ، أستقدم إلى دارى اربعة او خمسة من عازفى الموسيقى الغنـائية ، أتدرب معهم — مرة فى الأسبوع — على عزف القطع التى تكون قد استأثرت بأعظم قدر من اعجابى فى « الأوبرا » . وكنت أجرب كـذلك عزف بعض الألحان الفنائية التى ضمتها « عرائس الشـعر اللطاف »(١) ولقد سألنى أستاذ الموسيقى الايقاعية فى « سان جان كريسوستوم » قطعتين منهما — أما لأنه أعجب بهما حقا ، وأما لأنه اراد أن يتملقنى — فسرنى أن أسمعهما تؤديان على أيدى فرقته الرائعة ، وأن تؤدى رقصاتهما الصغيرة « بتينا » .. وهى فتاة جميلة لطيفة ، كان يرعاها أسبانى من أصدقائها يدعى « فاجواجا » ، كثيرا ما قضينا السهرات فى داره .

***

أما عن النساء ، فليس لرجل أن يعرض عنهن فى مـدينة كالبندقية !.. وقد يقـال لى : « أليس لديك ما تعترف به فى هذا الصدد ؟ » .. بلى ، فان لدى ما يقال فعلا ، وانى لمقدم على هذا الاعتـراف بنفس الصراحـة التى اتبعتهـا فى كل

---

(١) « الأوبرا » التى كان « روسو » ...



اعترافاتى الأخرى .. ولقد كنت دائما أنفر من البغايا ، بيد أنه لم يكن لدى سواهن فى البندقية ، إذ كان محرما على ولوج معظم البيوت فى المدينة ، من جراء منصبى . ولقد كانت فتيات السيد لوبلون جد لطيفات ، ولكن التقرب اليهن كان أمرا عسيرا ، كما أن احترامى لأبيهن وأمهن كان أعظم من أن يسول لى مجرد التفكير فى اشتهائهن !

ولقد كنت خليقا بأن أميل كل الميل إلى شابة تدعى الآنسة دى « كاتاليو » ، كانت ابنة مندوب ملك بروسيا . ولكن كاريو كان يهواها ، حتى أنه كان يسعى إلى الزواج منها .. ولقد كان ميسور الحال ، فى حين أننى لم أكن أملك شيئا .. كان مرتبه مائة « لوى » ، أما أنا فلم اكن اتقاضى سوى مائة « بيستول » . وبغض النظر عن أننى ما كنت لأستبيح ان اسطو على صيد صديقى ، فانى كنت أدرك أن ليس لرجل خالى الوفاض أن يقدم على التقرب إلى الحسان ، اينما يكن .. ولو كان فى البندقية ! .. ولم أكن قد فقدت عادتى المشئومة ، وأعنى بها استبدال الحاجات التى أصبو إليها . ولما كنت جد مشغول إلى درجة لا تدع لى سبيلا إلى الشعور الملح بالحاجات التى يخلقها الجو المحيط بى ، فاننى عشت فى هذه المدينة عاما تقريبا ، وأنا محتفظ بما كان لى ـ فى باريس ـ من طهر وحكمة .. كما تركتها بعد ثمانية عشر شهرا دون أن أقرب الجنس اللطيف فيما عدا مرتين ، وبسبب المناسبتين غير العاديتين اللتين سأذكرهما فيما يلى :

ولقد أتاح لى أولاهما السيد الشريف فيتالى (١) ، بعد انقضاء فترة على الاعتذار الذى أجبرته على أن يقدمه لى فى أكمل صيغة رسمية . فقد دار الحديث حول المائدة عن ملاهى البندقية ، فأخذ السادة يعتبون على عدم اكتراثى بأشد هذه الملاهى حرارة ، ويطنبون فى إطراء رقة الفوانى البندقيات ، قائلين ان ليس فى العالم من يضارعهن . وقال دومينيك إننى خليق بأن أتعرف إلى أبدعهن طرا ، وانه يرجو أن يقدمنى إليها ، واننى سأطرب لمعرفتها . وانطلقت أضحك لهذا الاقتراح المحرج ، فاذا بالكونت بياتى ـ وكان كهلا وقورا ـ يقول فى صراحة لم أكن أتوقعها من إيطالى ، إنه يؤمن بأننى أعقل من ان أدع عدوى يقودنى إلى دار غانية . والواقع أننى لم أستشعر ميلا ، ولا تأثرت بإغراء ، ولكننى انتهيت بالرغم من ذلك ـ وبدافع من إحدى النزوات المتناقضة التى لم اكن أملك أن أفهمها ـ إلى أن تركت عدوى يقودنى ، على النقيض من إملاء ميولى ، وقلبى ، وعقلى ، بل وإرادتى .. كنت منساقا له لمجرد الضعف والخجل من ابداء عدم الثقة به ، أو بلسان تلك البلاد :

Per non Parer Troppo Coglione (٢) ولقد كانت « البادوانا » (٣) التى ذهبا إليها ذات وجه لا بأس بحسنه بل إنه كان جميلا ، ولكن جماله لم يكن من الطراز الذى يروق لى .

---

(١) واضح ان « روسو » يسخر من « فيتالى » اذ يصفه بانه شريف .

(٢) عبارة ايطالية معناها : « لكى لا أبدو مفرط الغباء » .

(٣) الغانية ، أو المومس .



وتركنى دومينيك فى دارها ، فأرسلت فى طلب بعض المثلوجات (آيس كريم) ، وسألتها أن تغنى لى ، ثم تهيأت ـــ بعد نصف ساعة ـــ للانصراف ، تاركا على المنضدة « دوكا »(١) ، ولكنها فى عزة نفس غريبة ـــ أبت إطلاقا أن تقبل المبلغ دون أن تكون قد أدت ما يقابله .. وفى غباء ـــ لا يقل غرابة ـــ أرضيت عزة نفسها ! .. وعدت إلى القصر وأنا موقن من أننى أصبت بمرض خبيث ، حتى أن أول ما فعلت هو أن أرسلت فى طلب طبيب لأطلب منه بعض الأدوية . وليس ثمة ما يعادل الغم الذى عانيته طوال ثلاثة أشهر ، دون ما علة حقيقية ، ودون ظهور أية علامة تبرره . فما كنت لأتصور أن من الممكن مغادرة أحضان مومس دون ما ضرر ! .. بل إن الطبيب نفسه تجشم كل عناء يمكن تصوره ، لكى يطمئننى ، فلم يوفق إلا إلى اقناعى بأننى كنت مخلوقا على نمط خاص ، لا يجعلنى أصاب بالعدوى بسهولة . ومع أننى قد أكون أقل من أى رجل آخر تعرضا لهذا الخطر ، إلا أن عدم تأثر صحتى البتة من هذه الناحية بالذات ، يبدو لى دليلا على أن الطبيب كان مصيبا !.. على أن هذا الرأى لم يجعلنى متهورا قط ، وإذ كنت قد أوتيت فعلا هذه الميزة الطبيعية ، فان فى وسعى أن أقول أننى لم أسىء استغلالها !

* * *

أما مغامرتى الأخرى ، فمع أنها كانت مع غانية كذلك ، إلا أنها كانت من نوع جد مختلف ، سواء فى أصلها أو فى نتائجها .

---

(١) عملة ذهبية كانت قيمتها تتراوح بين ١٠ و ١٢ فرنكا .

فلقد ذكرت أن الكابتن أوليفييه ـــ الربان ـــ قد دعانى إلى الغداء على ظهر سفينة ، وأننى اصطحبت سكرتير السفارة الأسبانية . وكنت أتوقع أن تحيينا المدافع ، فاذا البحارة يستقبلوننا مصطفين، ولكن قطعة واحدة من الذخيرة لم تشعل، مما غاظنى كثيرا ، بسبب كاريو ، الذى رأيته مستاء . والواقع أن التحية بطلقات المدافع - على السفن التجارية - كانت تؤدى لأناس لا يعادلوننا مقاما بالتأكيد ، كما أننى كنت أخالنى جديرا بشىء من التمييز من الربان . ولم أستطع أن أخفى ما كان بنفسى ، فقد كان ذلك أمرا مستحيلا دائما . ومع أن الغداء كان بديعا ، وقد أدار أوليفييه الأنخاب فى إكرام رائع ، فاننى بدأت المأدبة وأنا منحرف المزاج ، ومن ثم فقد أكلت قليلا وتكلمت أقل !

وعند احتساء النخب الأول ، توقعت تصفيقا على الأقل ، ولكن شيئا من هذا لم يحدث .. وضحك كاريو ـــ الذى قرأ ما فى خاطرى ـــ إذ رآنى أغمغم كالطفل . وفى ثلث الغداء ، رأيت جندولا يقترب ، وإذا الربان يقول لى : « لعمرى !.. خذ حذرك يا سيدى فها هو ذا العدو ! » فسألته عما كان يعنى ، وإذ ذاك أجاب بدعابة . ورسا الجندول بجوار السفينة ، فرأيت فتاة باهرة الجمال ، بالغة الرشاقة ، فى ثياب مغرية ، تغادره .. وفى ثلاث قفزات كانت فى الغرفة . ورأيتها تستقر إلى جوارى ، قبل أن أفطن إلى أن ثمة مكانا قد أعد لها .. وكانت فاتنة بقدر ما كانت رشيقة .. سمراء فى العشرين من عمرها، على الأكثر !.. ولم تكن تتكلم بغير اللغة الإيطالية ، وكانت

لهجتها وحدها كافية لأن تدير رأسى . وفيما كانت تأكل وتتكلم، أخذت ترمقنى ، ثم تفرست فى لحظة ، وما لبثت أن صاحت : « يا للعذراء الطيبة ! .. آه ! ما أطول الوقت الذى انقضى يا عزيزى بريمون دون أن أراك ! » .. وارتمت فى أحضانى، والصقت فمها بفمى ، واحتضنتنى حتى كادت تزهق أنفاسى ! .. وراحت عيناها الواسعتان السوداوان ــ على غرار العيون الشرقية ــ ترميان قلبى بشواظ من لهب . ومع أن المفاجأة أحدثت شيئا من الاضطراب فى البداية ، إلا أن غريزتى الشهوية سرعان ما تملكتنى ــ بالرغم من الحضور ــ إلى درجة أن الفاتنة نفسها اضطرت إلى أن تكبح جماحى ، إذ أننى ثملت ، أو بالأحرى جننت ! .. فلما رأتنى قد بلغت الدرجة التى كانت ترجوها ، خففت من عناقها ، ولكنها لم تخفف من فورة عواطفها .. حتى إذا راق لها أن تبدى لنا السبب الحقيقى أو الزائف لهذا النزق قالت لنا اننى كنت أشبه السيد دى بريمون ، مدير جمرك توسكانى ، إلى درجة يصعب معها التمييز بيننا .. وأنها كانت ــ ولا تزال ــ متيمة بهذا السيد دى بريمون ، وأنها كانت قد هجرته لحماقتها .. وأنها قد اختارتنى بديلا عنه ، فشاءت أن تهوانى ، لأن هذا كان يروق لها ، وأن من الواجب ــ للسبب ذاته ! ــ أن أحبها ، طالما ظل هذا يلائمها ، فاذا ما هجرتنى فجأة ، وجب أن احتملها صابرا ، كما كان يفعل عزيزها بريمون ! .. واستولت على كما لو اننى كنت ملك يمينها ، فعهدت إلى بقفازيها ، ومروحتها، وحزامها ، وقلنسوتها .. وراحت تأمرنى بأن أذهب إلى هنا أو هناك ، وأن أفعل هذا أو ذاك ، وأنا أطيعها ! .. وقالت لى

أن أذهب فأصرف جندولها ، لأنها كانت راغبة فى استخدام جندولى ، فصدعت ! .. وأمرتنى بأن أغادر مكانى ، وأن أرجو « كاريو » بأن يحل فيه محلى ، لأنها كانت تريد أن تتحدث إليه، ففعلت ! . . وتحدثا طويلا ، فى صوت جد خفيض ، فتركتهما يفعلان .. ونادتنى ، فخففت إليها ، فقالت لى : « اسمع يا جانيتو .. لست أريد البتة أن أكون محبوبة على الطريقة الفرنسية ، إذ ليس من ورائها طائل فى الواقع .. ففى أول لحظة تشعر فيها بالضجر ، لك أن تمضى عنى . ولكن ، لا تمكث بين بين .. إننى أنذرك ! » .

وذهبنا بعد الغداء لمشاهدة مصنع الزجاج فى (مورانو) ، فابتاعت كثيرا من التحف الصغيرة ، التى تركتنا ندفع ثمنها فى غير كلفة .. ولكنها كانت ــ فى كل مكان ــ تجود بما يفوق بكثير كل ما أنفقنا . وكان من الواضح ــ من الاستخفاف الذى كانت تبعثر به نقودها ، وتحملنا على أن نبعثر نقودنا ــ أنها لم تكن تقيم للمال وزنا .. وأعتقد أنها عندما كانت تطلب أجرا لنفسها، لم تكن تصدر فى طلبها عن جشع بقدر ما كانت تصدر عن زهو . فقد كانت تطرب للأجر الذى يدفع فى مقابل المتع التى تجود بها!

وفى المساء ، ذهبنا إلى دارها . وفيما كنا نتحدث ، لمحت مسدسين على منضدة الزينة ، فقلت لها وأنا أتناول أحدهما : « آه ! آه ! .. هاكم مصيدة للذباب من نوع جديد .. هل من سبيل إلى معرفة فيم تستخدم ؟ .. إننى أعرف أن لديك أسلحة أخرى ، أقوى فتكا من هذا ! » .. وبعد بضع مداعبات من هذا القبيل ، قالت لنا فى غرور أرعن ، زادها فتنة : « عندما أتكرم على أولئك الذين لا أحبهم ، فإننى أتقاضاهم ثمن الضجر

الذى يسببونه لى ، وليس هناك ما هو أعدل من هذا !.. على أننى وإن احتملت عناقهم ، فلست أحب إطلاقا أن أحتمل إهاناتهم .. ولن أخطىء إصابة أول رجل ينتقص من شأنى!».

وعند انصرافى ، اتفقنا على الموعد الذى أوافيها فيه ، فى اليوم التالى .. ولم أدعها تنتظر ، ووجدتها فى « ثوب الخلوة »(١) .. وهو ثوب مكشوف ، أكثر من أن يوصف بأنه خليع ، غير معروف إلا فى الدول الجنوبية ، ولن أمتع نفسى بوصفه ، برغم أننى أذكره تماما ! .. كل ما سأقوله هو أن كميه وفتحة عنقه كانت مطرزة بخيط حريرى ، مزدان بكرات صغيرة فى لون الورد . وقد بدا لى أن هذا كان يضاعف من تورد بشرتها الرائعة الجمال . وقد تبينت فيما بعد أن هذا الزى كان من المستحدثات الرائجة فى (البندقية) ، وأنه كان ذا تأثير جد فاتن ، حتى أننى لأعجب من أنه لم ينتقل قط إلى فرنسا . ولم تكن لدى أدنى فكرة عن الغواية التى كانت فى انتظارى .. لقد تحدثت عن مدام دى « لارناج » ، وأنا فى تلك النشوات التى تنقلنى إليها ذكراها فى بعض الأحيان ، ولكن .. لشد ما كانت عجوزا ، ودميمة ، وباردة الحس ، إذا قيست بحبيبتى « جوليبتا » ! .. ولا تحاولوا أن تتصوروا مفاتن ومحاسن هذه الفتاة الساحرة ، فلسوف تظلون بعيدين كل البعد عن الحقيقة ! .. إن عذارى الأديرة أقل نضرة ، وحسان الحريم أقل حيوية ، وحوريات الجنة أقل جاذبية !.. أبدا ما حظى قلب

(١) Investito di confidenza

وحواس إنسان فان بمثل تلك المتعة الحلوة !.. آه ! ليتنى عرفت كيف أتذوقها فى أتم كمالها للحظة واحدة ، على الأقل !.. لقد تذوقتها حقا ، ولكن دون ما افتتان ، إذ أننى أفسدت كل الملذات .. قتلتها وأنا غير حافل ، كما ينبغى أن يقال . لا ، ان الطبيعة لم تخلقنى قط للاستمتاع ، وإنما بثت فى رأسى الفاسد سم هذه السعادة التى لا سبيل إلى وصفها ، والتى غرست فى قلبى شهوة الشوق إليها !

***

وإذا كان فى حياتى ظرف واحد يعبر تمام التعبير عن فطرتى ، فهو هذا الذى أوشك أن أرويه . ان القوة التى أذكر بها ـ فى هذه اللحظة ـ الغاية المنشودة من كتابى ، لتجعلنى أطرح عنى الحياء الكاذب الذى يمنعنى من أن أحققها . فعليك أيها الراغب فى معرفة دخيلة قلب إنسان ـ أيا كنت أنت ـ أن تتجلد إذ تقرأ الصفحتين أو الثلاث التالية ، فسوف تعرف فيها جان جاك روسو معرفة تامة !

لقد كنت ألج غرفة الفانية ، وكأننى ألج معبدا للحب والجمال .. وكنت أخال أننى أبصر القداسة فى شخصها ، فما كنت لأعتقد أن بوسعى أن أحظى بالانفعالات التى ألهمتنيها ما لم أحترمها وأقدرها . ولم أكد أعرف ـ خلال محاولات التقارب والتآلف الأولى ـ نعم مفاتنها وعناقها ، حتى تولانى الخوف من أن أفقد ثمارها مقدما ، ومن ثم فقد تقت إلى التعجيل باقتطافها . وفجأة ، أحسست ـ بدلا من النيران التى كانت تكوينى ـ ببرودة قاتلة تسرى فى عروقى ، وخذلتنى ساقاى ،

فجلست وأنا أرى نفسى موشكا على الاغماء ، ورحت أبكى كالطفل !

ترى منذا الذى يستطيع أن يحدس سبب دموعى وما كان يجرى فى رأسى فى هذه اللحظة ؟.. كنت أقول لنفسى : « إن هذه الحسناء التى أجدها فى متناولى هى أروع نتاج الطبيعة والحب .. فالروح والجسد فى أكمل آياتهما .. وإنها لطيبة وكريمة كما أنها جميلة وبديعة .. وخليق بالعظماء والأمراء أن يكونوا عبيدا لها ، كما يجدر بصولجانات الملك أن تكون عند قدميها .. ومع ذلك ، فها هى ذى تعسة ، تجوب الطرقات ، فى خدمة كل إنسان .. لقد نفض أحد ربابنة السفن التجارية يديه منها ، فجاءت وألقت بنفسها على رأسى .. على أنا الذى كانت تعرف أنه لا يملك شيئا .. أنا الذى لم يكن بوسعها ان تعرف فضائله ، ولا كانت هذه الفضائل شيئا يذكر فى نظرها ! .. ان ثمة شيئا يجل عن الادراك ، فى هذا . فاما أن قلبى يخدعنى ويزيغ حواسى ويجعلنى مطية مومس لا قيمة لها ، وإما أن ثمة عيبا خفيا لا أدريه ، يهدم مفعول مفاتنها ، ويحيلها قميئة فى نظر أولئك الذين كانوا خليقين ـ لولا ذلك ـ بأن يتناحروا فى سبيل الظفر بها » .. وشرعت أبحث عن هذا العيب فى استغراق عجيب ، دون أن يخطر لى البتة أن للفسق والعهر نصيبا فى ذلك . فإن نضرة بشرتها ، وإشراق محياها ، وأسنانها التى كان بياضها يبهر البشر ، وحلاوة أنفاسها ، والجو العام المحيط بشخصها والموحى بالنظافة .. كل هذا محا هذه الفكرة تماما من ذهنى . وإذ كنت لا أزال فى شك من حالى ـ

منذ زياراتى لبيت البغى « البادوانا » ـ فقد وسوست لنفسى بالخوف من أننى لم أكن فى صحة تجعلنى أهلا لها ، واقتنعت كل الاقتناع بأن يقينى من هذا لم يكن زائفا !

ولقد أهاجتنى هذه الخواطر ـ التى جاءت فى حينها المناسب ـ إلى الدرجة التى أبكتنى . أما « جوليينا » ـ التى كان هذا المنظر جديدا عليها ولا ريب ، فى مثل تلك الظروف ـ فقد بهتت لحظة ، ولكنها بعد أن تمشت فى ارجاء الحجرة ، ومرت أمام مرآتها ، أدركت الحقيقة ، كما أكدت لها عيناى أن هذا الأسى التهوسى لم يكن من النفور فى شىء . ولم يكن عسيرا عليها ان تبرئنى منه ، وأن تمحو الحياء الطفيف . ولكننى إذ هممت بأن انطرح متهالكا على هذا النحر الذى بدا وكأنه كان يسمح ـ للمرة الأولى ـ ليد رجل وفمه بأن يمساه ، لمحت أنها لم تؤت سوى حلمة ثدى واحدة . وضربت جبهتى براحتى ، وتفرست ، فخيل إلى أننى أرى أن هذه الحلمة لم تكن على غرار الأخرى فى الشكل . وإذا بى أنقب فى ذهنى عن تعليل لوجود حلمة شوهاء ، ولما رحت أقلب الفكر ، اقتنعت بأن لهذه الظاهرة علاقة بعيب طبيعى واضح .. وتجلى لى ـ كوضح النهار ـ اننى لم اكن أحتضن بين ذراعى أجمل حسناء كان بوسعى أن اتصورها ، وإنما كنت اضم نوعا من المسخ . كنت أضم نفاية الطبيعة ، والرجال ، والحب . وذهبت فى غبائى إلى حد أن أحدثها عن هذا العيب ، فتلقت الأمر ـ فى البداية ـ على محمل الدعابة ، وقالت فى مرحها وفعلت أشياء كانت كفيلة بأن تميتنى هياما ، ولكنها حين رأت بقية من قلق لم أقو على

إخفائها ، إذ بها تتضرج خجلا ـــ فى النهاية ـــ فتعتدل ، وتسوى ثيابها .. ثم سارت ـــ دون أن تنبس بكلمة واحدة ـــ فجلست لدى نافذة مخدعهـــا . ورغبت فى أن أجلس إلى جوارهـــا ، فغادرت مكانهـــا وجلست على أريكة ، ثم نهضت بعد لحظة وتمشت فى الحجرة وهى تزفر ، وقالت فى لهجة قاسية ، مهينة: « جانيتو » .. دع النساء ، وادرس العلوم الرياضية » !

وقبل أن أبرحها ، سألتها موعدا آخر كى ألقـــاها فى اليوم التالى ، فأرجأته إلى اليوم الثالث ، وأردفت ـــ وهى تبتسم ابتسامة ساخرة ـــ اننى ولا بد بحاجة إلى الاستجمام . وقضيت هذا الوقت متوعك المزاج ، ملىء القلب بمفاتنها وحســـنها ، شاعرا بحماقتى ، لائما نفسى ، متحسرا على اللحظـــات التى أسأت استغلالها ـــ والتى كان فى يدى ، أنا وحدى ، أن أجعلها أعذب لحظات حياتى ـــ مترقبا بأشد ألوان نفاد الصبر اللحظات التى أستطيع فيها أن أعوض ما فاتنى .. ولكننى ظللت ـــ مع ذلك ـــ قلقا بالرغم من نفسى ، لا أدرى كيف أوفق بين مفاتن هذه الفتاة الرائعة ، وبين فحش حالها .. وهرعت ، بل طرت إلى دارها فى الموعد المحدد . ولست أدرى أكانت هذه الزيارة خليقة بأن تضاعف من إرضاء طباعها الحادة .. كان غرورها ـــ على الأقل ـــ قمينا بأن يجد فى الزيارة عملا يتملقه ، ومن ثم رحت أستمتع ـــ سلفا ـــ بغبطة ما كنت أعتزمه من أن أريها ، بكل الوسائل ، أننى كنت أعرف كيف أصلح أخطائى . ولكنها أعفتنى من هذا العناء . فان نوتى الجندول ـــ الذى أوفدته إلى دارها ، عندما رسونا ـــ عاد إلى بنبأ رحيلها فى اليـــوم السابق

إلى (فلورنسا) . وإذا كنت لم أشعر بمدى حبى لها عندما كانت بين ذراعى ، فقد شعرت به فى قسوة إذ فقــدتها !.. ولم يفارقنى قط ندمى المهتـــاج .. ولقد استطعت أن أتعزى عن فقدها ـــ وهى التى كانت موفورة اللطف وموفـــورة الفتنة فى عينى ـــ ولكنى أعترف بأننى لم أستطع البتة أن أهون على نفسى الفكرة التى راودتنى من أنها لم تحمل معها عنى سوى ذكرى مهينة زرية !

❊ ❊ ❊

هاتان هما قصتاى الوحيدتان ، فان الشهور الثمانية عشر التى قضيتها فى البندقية لم تخلف لى مزيدا أرويه ، اللهم إلا غراما لم يتجاوز أن يكون مجرد .. مشروع ! فلقد كان «كاريو» مشغوفا بالنساء ، وقد سئم الذهاب دائما إلى دور فتيات كن على علاقات بسواه، فساورته نزوة أن تكون له بدوره عشيقة . ولما كنا لا نفترق ، فقد اقترح على مشروعا لم يكن نادر المثال فى البندقية : أن نقتنى فيما بيننا عشيقة ! .. ولقد وافقت على ذلك ، وبقى أن يجد غانية نطمئن إليها .. وبحث كثيرا ، حتى اهتدى إلى فتاة صغيرة ، فيما بين الحادية عشرة والثانية عشرة من العمر، كانت أمها الخسيسة تسعى لكى تبيعها . وشاهدناها معها ، فاهتز قلبى إشفاقا إذ رأيت تلك الطفلة .. كانت شقراء، وادعة كالحمل ، لا يظن من يراها أنها إيطالية . وكانت نفقات المعيشة فى (البندقية) زهيدة ، فأعطينـــا الأم بعض المال ، وتكفلنا بأن نعول الفتاة . وكان لها صوت رخيم ، فوهبناها معزفا صغيرا ، واستأجرنا لها مدرسا ليلقنها الغناء ، كى نهيىء

لها وسيلة للعيش وكان كل هذا لا يكاد يكلف كلا منا قطعتين من فئة « السيكان » فى الشهر ، وقد كان كفيـــلا بأن يوفر علينـــا نفقات أخرى . ولكنه كان بمثابة البذر الذى لن يؤون حصاده إلا بعد أمد طويل ، إذ لم يكن ثمة بد من أن ننتظر حتى تنضج الفتـــاة ! .. على أننا كنا قانعين بأن نتردد على الدار(١) ، فنقضى أمسياتنا فى لعب وثرثرة بريئين مع هذه الصبية ، فننعم بلهو قد يكون أنسب وأفضل مما كنا نحظى به لو أننا نلنا منهـــا وطرا .. وكم هو صحيح أن أشد ما يجذبنا إلى النساء لا يمت إلى الفسق بقدر ما يمت إلى لون خاص من المتعة يستمد من الاقامة بالقرب منهن .. ولقد تعلق قلبى بالصغيرة « انجوليتا » فى شغف جنـــونى ، ولكن هـــذا الميل كان أبويا !.. ولم يكن لشهواتى أثر يذكر فى ذلك ، فبقدر ما أخـــذ حبى ينمو ، راح احتمال السماح لهذه الشهوات بأن تكون ذات سلطان عليـــه يتضاءل .. وكنت أشعر بأننى خليق بأن أستبشع أن أمس هذه الفتاة ـ إذا ما أدركت سن البلوغ ـ كما لو أن هذا العمل كان فاحشة مرذولة !.. وكنت أرى مشاعر كاريو الطيب تتخذ عين الاتجاه ، دون أن يفطن .. كنا قد دبرنا لأنفسنا ـ دون أن نتكبد عناء التفكير فى الأمر ـ متعا لا تقل عذوبة عن تلك التى كنـــا قد فكرنا فيها من قبل ، وإن اختلفت عنها . وانى لواثق من أننا كنا زاعمين بأن نظل حاميين للفتاة ، لا مفسدين لها ، مهما كان يحتمل أن يصير إليه جمالها إذا ما كبرت . على أن نكبتى(٢)

---

(١) كانت الصبية تقيم مع أمها ، ويتكفل روسو وصديقه بنفقاتها .

(٢) يقصد خلافه مع السفير ومبارحته البندقية .

وقعت بعد ذلك بقليل ، فلم تدعنى أساهم فى هذا العمل الطيب ، ولم يعد لى من نصيب فى هذه المسألة اللهم إلا ميول قلبى .. فلنعد الآن إلى رحلتى :

كان أول ما فكرت فيه بعد مغادرتى دار السيد دى مونتيجى ، هو أن أعود إلى (جنيف) ، أملا فى أن تؤدى بعض الظروف السعيدة إلى إزاحة العقبات وتمكينى من الانضمام إلى « ماما » المسكينة(١) . ولكن الضجة التى أحدثها شجارى مع السفير ، وحماقته التى حملته على الكتابة عن ذلك إلى البلاط ، جعلتانى أقرر الذهاب إلى البلاط بنفسى لأقدم حســـابا عن مسلكى ، ولأرفع شكواى ضد هذا الرجل المجنون . وكتبت إلى السيد دى « تييل » ـ القائم بالشـــئون الخارجية مؤقتا ، عقب وفاة السيد «اميلو» ـ عن قراره ، ثم بارحت البندقية فى أعقاب رسالتى مباشرة ، فاتخذت طريقى مارا ببيرجامى ، و (كومى) ، و (دومو دوسولو) ـ وعبرت ممر (سيمبلون) . وفى (سيون) ، أبدى لى السيد دى «شينيون» ـ القائم بأعمال فرنسا ـ ألف مظهر من مظاهر الود . وكذلك فعل الســـيد ديلا كلوزير ، فى (جنيف) . وهناك ، جددت التعارف مع السيد دى جوفكور ، الذى اضطررت لأن أتقبل منه بعض المـــال . واجتزت (نيون) دون أن أرى أبى ، ولم يكن هذا العمل ليعفينى من ألم قاس اختلج به فؤادى ، ولكنى لم أكن أملك ان احمل نفسى على أن أظهر أمام زوجة أبى ، بعد ما أصابنى من سوء الطالع ، إذ كنت

---

(١) يقصد مدام دى فاران طبعا .

موقنا من أنها ستلقى الذنب على دون أن تسمع قولى . ولقد لامنى «دوفيار» الكتبى ــ وكان صديقا حميما لأبى ــ على هذا الخطأ لوما شديدا ، فذكرت له السبب . ولكى نصلح الخطأ ، استأجرت محفة ورحلنا معا إلى (نيون) ، فهبطنا فى فندق . وانطلق «دوفيار» بحثا عن أبى ، الذى لم يلبث أن جاء مهرعا فاحتضننى .. وتناولنا العشاء معا . وبعد أن قضينا سهرة كانت جد ممتعة لفؤادى ، عدت فى صباح اليوم التالى إلى (جنيف) مع دوفيار ، الذى ظللت دائما أذكر له بالعرفان ما بذله من فضل فى هذه المناسبة !

***

ولم يكن طريق (ليون) هو أقصر الطرق لغايتى ، ولكننى رغبت فى أن أمر بالمدينة ، لأتحرى عن حيلة خسيسة من حيل السيد دى مونتيجى . إذ اننى كنت قد اجتلبت من باريس صندوقا صغيرا ضم صديرية وشيت حوافها بالذهب ، وبضعة أزواج من أساور الأقمصة المزركشة ، وستة أزواج من الجوارب الحريرية البيضاء ، ولا شىء أكثر من ذلك . واستجابة لاقتراح عرضه على السيد دى مونتيجى نفسه ، ضممت هذا الصندوق ــ أو بالأحرى ، هذه العلبة ــ إلى متاعه . ولكنه فى كشف حساب الصيدلى ــ الذى أراد حملى على قبوله فى مقابل مرتبى ، والذى كتبه هو بيده ــ ذكر أن هذه العلبة ، التى أسماها «طردا» ، كانت تزن أحد عشر قنطارا ، وتقاضانى لذلك عن نقلها أجرا هائلا . واستطعت التحقق ــ بفضل السيد بوى ديلاتورا ، الذى أوصاه بى السيد روجان خاله ـ من سجلات

جمارك ليون ومارسيليا ، أن «الطرد» المزعوم لم يكن يزن سوى خمسة وأربعين رطلا ، وأن أجر النقل لم يدفع إلا عن هذا الوزن . وقد أضفت هذا البيان الرسمى إلى ذكريات السيد دى مونتيجى . وعدت إلى باريس مزودا بهذه الوثائق وبكثير من أمثالها ، وأنا متلهف على استغلالها . ولقد صادفت ـ خلال هذه الطريق الطويلة ــ مغامرات صغيرة فى (كومى) ، باقليم (فاليه) ، وفى بقاع أخرى . ولقد رأيت ــ فيما رأيت ــ جزر (بوروميه) التى كانت جديرة بأن توصف . ولكن الوقت كان يمر سراعا ، وكان الجواسيس يضيقون على النطاق ، ومن ثم فقد كنت مضطرا إلى أن أنجز ــ فى سرعة وبأسوأ حال ــ رحلة كانت تتطلب سعة من الوقت والطمأنينة ، الأمر الذى كان يعوزنى . وإذا قدر للعناية أن ترعانى وأن تتيح لى ــ أخيرا ــ أياما أكثر سكينة وطمأنينة ، فلسوف أخصص هذه الأيام لإعادة صوغ هذا المؤلف ــ إن استطعت ــ أو لأضيف إليه جزءا مكملا ، أشعر بأنه محتاج إليه كل الاحتياج[١] .

وكان ضجيج قصتى قد سبقنى ، فما أن وصلت إلى باريس حتى الفيت كل امرىء ــ سواء من الرسميين أو من العامة ــ قد استنكر حماقات السفير . وبالرغم من هذا ، وبالرغم من صيحة الرأى العام فى البندقية ، وبالرغم من الأدلة غير المدحوضة التى قدمتها ، فاننى لم أستطع أن أظفر بالانصاف ! .. بل إن الأمر لم يقتصر على أننى لم أفز بإرضاء ولا بتعويض ،

---

(١) عقب «روسو» على ذلك بقوله : «ولقد عدلت الآن عن هذا المشروع» .

وإنما تركت ـ فوق هذا ـ تحت رحمة السفير ، فيما يتعلق بمرتبى ، وذلك لمجرد أننى لم أكن فرنسيا ، فلم يكن لى الحق فى أن أستجير بالدولة ، ومن ثم فقد كانت المسألة شخصية ، لا تخص سوانا نحن الاثنين ! .. كان كل امرىء يقرننى على أننى أهنت وأوذيت ونكبت ، وعلى أن السفير كان معتوها ، قاسيا ، ظالما ، وأن المسألة كلها كانت عارا باقيا له . ولكن ، ماذا بعد كل هذا ؟!.. لقد كان هو السفير ، أما أنا فلم أكن سوى السكرتير .. وكان النظام الصالح ـ أو ما يطلق عليه هذا الاسم ـ يقتضى ألا أنال اى انصاف ، فلم أنل شيئا منه ! .. ولقد خيل إلى أننى بالشكايات المستمرة ، وبإظهار هذا الأحمق أمام الملأ بما كان يستحق أن يظهر به ، قد أستطيع أن أضطرهم إلى أن يطلبوا إلى أن أعقل لسانى ، وهو عين ما كنت أرتقبه ، إذ أننى كنت قد صممت على الا أطيع حتى أظفر بالانصاف . بيد أنه لم يكن ثمة وزير للخارجية إذ ذاك . ولقد تركت أصرخ ، بل اننى لقيت تشجيعا على ذلك ، ووجدت من ردد صراخى ، ولكن القضية ظلت دائما عند هذا الحد ، حتى سئمت ـ فى النهاية ـ أن أظل دواما على حق دون أن أنال إنصافا ، فثبطت عزيمتى ، وبقيت على حالى !

وكان الشخص الوحيد الذى أساء استقبالى ، والذى كان أقل الناس إصغاء لشكاتى ، هى السيدة دى بوزينفال . فقد كانت لفرط اعتزازها بالامتيازات المترتبة على الجاه وسمو المكانة ، لا تملك أن تفهم أن من الممكن لسفير أن يسىء إلى سكرتيره . وقد كان مسلكها فى استقبالى مطابقا لهذه

النعرة الباطلة . ولقد غاظنى هذا ، حتى أننى كتبت إليها ـ بعد مبارحتى دارها ـ خطابا لعله أشد وأعنف خطاب كتبته فى حياتى ، ولم أذهب إلى دارها بعد ذلك قط ! .. ولقد أكرم الأب كاشيل وفادتى ، ولكننى لمحت ـ خلال تملقه الجزويتى ـ أنه كان يتبع فى أمانة مبدأ من أعظم مبادىء المجتمع .. ذلك هو: التضحية دائما بالأضعف من أجل خاطر الأقوى ! .. ولكن شعورى المتأجج بعدالة قضيتى ، وكبريائى الفطرية ، لم يدعانى أطيق هذا التحيز صابرا . فكففت عن زيارة الأب كاستيل ، وبالتالى زيارة الجيزويتيين الذين لم أكن أعرف من بينهم سواه ! .. وإلى جانب هذا ، فان روح الجور والدس لدى زملائه ، كانت تختلف عن صلاح الأب هيميه الطيب ، مما جعلنى أشعر بنفور من اجتماعهم ، حتى أننى ـ منذ ذلك الحين ـ لم أر أحدا منهم ، اللهم إلا الأب بيرتييه ، الذى قابلته مرتين أو ثلاثا لدى السيد دوبان ، إذ كان يعمل معه بكل ما فى وسعه على تفنيد آراء مونتسكيو !

فلنختتم ـ إلى غير رجعة ـ ما بقى لدى من قول عن السيد دى مونتيجى ! .. لقد كنت أقول له ـ فى منازعاتنا ـ إنه لا يليق به أن يستخدم سكرتيرا ، وإنما الأليق به أن يستخدم أحد كتبة المحامين . ولقد أخذ برأيى هذا ، واستخدم ـ كخليفة لى ـ كاتب محام حقا ، فلم يلبث أن سرق منه ، فى أقل من عام ، عشرين ألف أو ثلاثين ألف ليبرة . ولقد فصله وزج به فى السجن ، وفصل مستشاريه فى عاصفة من الفضيحة والتشهير ، وتشاجر فى كل مكان ، وتلقى من الإهانات ما كان

الخادم يربأ بنفسه أن يتلقاه ، وانتهى ـــ بفضل حماقاته ـــ إلى أن استدعى ، وفصل من منصبه وأقصى إلى الريف ! .. وكان من الواضح أن مسألتى لم تكن منسية بين المسائل التى وجه إليه اللوم بشأنها فى البلاط . وعلى أية حال ، فقد أوفد إلى ـــ بعد قليل من اعتزاله العمل ـــ وكيل أعماله كى يسوى حسابى ويدفع لى نقودى ، التى كنت فى حاجة ماسة إليها ، إذ كانت ديونى فى (البندقية) ، ديون شرف ـــ إذا جاز أن نسميها كذلك يوما ـــ وكانت تثقل قلبى بالهم . فانتهزت الفرصة لتسديدها ، بما فى ذلك سند « جانيتو نانى » . ومن ثم أخذت ما قدم لى ، ودفعت كل ديونى . ومع أن هذا خلفنى معدما ـــ كما كنت من قبل ـــ إلا أننى تخففت من عبء كان قد أصبح أثقل من أن أحتمله . ومنذ ذلك الحين لم أسمع كلمة عن السيد دى مونتيجى حتى موته ، الذى علمت به من صوت الشعب (١) .. فليرحم الله هذا الرجل المسكين !.. لقد كان فى صلاحيته لمهنة السفير لا يفضلنى فى صلاحيتى ـــ فى صباى ـــ لمهنة المحاماة(٢) . على أنه كان فى يده ـــ هو وحده ـــ أن يسلك مسلكا شريفا فى الاستعانة بى ، وأن يكفل سرعة ارتقائى إلى المنصب الذى كان الكونت دى جوفون قد رسم لى الطريق إليه ـــ فى صباى ـــ والذى استطعت بالاعتماد على نفسى فقط أن أصل إليه فى سن متقدمة !

---

(١) يقصد الصحافة .

(٢) ذكر روسو فى الكراسة الأولى من اعترافاته أن أباه كان يريده على أن يكون محاميا ، ولكنه لم يفلح فى فترة التدريب .

ولقد خلفت عدالة شكاياتى ، وعدم جدواها ، بذور السخط فى نفسى على نظمنا المدنية الحمقاء ، التى تضحى بفضلها المصلحة العامة والعدالة الحقة ، لغير ما مصلحة واضحة أعرفها . بل إنها لتهدم فعلا كل نظام ومصلحة ، ولا تؤدى إلا إلى أن تخلع شرعية السلطة العامة على ما ينال الضعيف من ظلم ، وما يبديه القوى من جور !.. ولم يمنع هذه البذور من أن تنمو إذ ذاك ـــ كما ترعرعت فيما بعد ـــ سوى أمرين : أولهما أن المسألة كانت شخصية لا تتعلق بسواى ، والمصلحة الشخصية ـــ التى لم تؤد قط إلى أى شىء عظيم أو نبيل ـــ لا يمكن أن تنتزع من قلبى قط تلك الخفقات القدسية التى لا يمكن لغير أنقى حب للعدالة والجمال أن يثيرها فيه .. أما الثانى فهو سحر الصداقة الذى سكب على غضبى شعورا ناعما خفف من حدته وهدأ من سورته . إذ كنت قد تعرفت فى البندقية على شخص من أبناء منطقة خليج (بسكاى)، كان صديقا لصديقى كاريو ، وكان جديرا بصداقة كل رجل شريف . وكان هذا الشاب اللطيف ـــ الذى أوتى كل المواهب وكافة الفضائل ـــ قد شرع فى جولة فى ربوع إيطاليا ، لينمى فى نفسه الميل إلى الفنون الجميلة . وإذ خيل إليه أنه لم يعد ثمة مزيد يحصله ، هم بالعودة إلى وطنه مباشرة ، فأخبرته بأن الفنون ليست سوى مجرد تسلية لعبقرى مثله خلق لكى ينمى العلوم . وأشرت عليه بأن يرحل إلى باريس ، فيقضى فيها ستة أشهر فى سبيل ذلك .

وقد صدقنى وأخذ بنصيحتى ، ومن ثم فإنه رحل إلى باريس .. وكان فى انتظارى عندما عدت إليها .. وكان

مسكنه أكثر اتساعا من حاجته ، فعرض على أن أشاطره إياه ، وقبلت . وقد وجدته مليئا بالتحمس لفروع المعرفة العليـا . ولم يكن من شىء يسمو على قوى إدراكه ، فكان يسـتوعب ويهضم كل شىء بسرعة تدعو إلى العجب . ولكم شكر لى أن هديته إلى هذا الغذاء لعقله الذى كان يتحرق ظمأ إلى المعرفة، دون أن يدرى كنه هذا الظمأ ومبعثه !.. أية كنـوز غنيـة بالأنوار والفضائل وجدتها فى هـذه النفس القوية !.. لقد شعرت بأنه الصديق الذى كنت أصبو إليه ، فغدونا وثيقى الصلة . ولم تكن مشاربنا واحدة ، فكنا دائما فى جدال .. ولم نكن نتفق قط على أمر واحـد ، إذ كان كل منا عنيـدا . ومع ذلك فقد كنا لا نطيق فراقا . ومع أننا كنا نتعارض دون انقطاع. إلا أن كلا منا لم يكن يتمنى أن يكون الآخر غير الذى كانه !

كان « ايناسيو ايمانويل دى التونا » من أولئك الأفـراد النادرين ، الذين لا تنجبهم سوى أسبانيا ، وقلما تستأثر بهم من أجل مجدها الخاص . ولم تكن له تلك النعرات القـومية العنيفة ، المألوفة لدى قومه ، كما أن فكرة الثأر كانت من البعد عن ذهنه بمثل ما كانت الرغبـة فيه بعيـدة عن قلبه . وكان أسمى نفسا من أن يحقد ، وكثيرا ما سمعته يقول فى هـدوء مفرط ، إنه ليس فى وسع الإنسان الفانى أن ينال منه . وكان ميالا إلى النساء فى غير لين أو ضعف ، فكان يلاعب النسـاء وكأنهن أطفال صغار .. وكان يلهو مع عشيقات أصـدقائه ، ولكنى لم ار له يوما عشيقة قط ، ولا عرفته يشتهى أن تكون له واحدة . كانت نيران الفضيلة المتأججة فى قلبه لا تدع مجالا قط للواعج الشهوة !

ولقد تزوج هذا الشاب عقب أسـفاره ، ومات فى ريعان الشباب ، مخلفا أطفالا . وانى لأومن ــ ايمانى بوجودى ــ بأن زوجتـه كانت المرأة الأولى ، والوحيـدة ، التى أذاقته ملاذ الحب ! .. ولقد كان فى ظاهره تقيا كأى أسبانى آخر ، أما فى باطنه فكانت تقواه كتقوى الملائكة . وفيما عداى ، كان هـو الشخص المتسامح الوحيـد الذى رأيته فى حياتى ، فما سأل امرءا عن آرائه الدينية ، وما كان ليعنيه كثيرا أن يكون صديقه يهوديا ، أو بروتسـتانتيا ، أو تركيا(١) ! ، أو متعبـدا ، او زنديقا ، ما دام هذا الصديق أمينا شريفا . وبقدر ما كان عنيدا، جامد الرأس إزاء آراء ضئيلة الأهميـة ، فانه كان يتراجع بمجرد أن يتحول الجدل إلى الدين ، أو حتى إلى الأخلاق ، وكان يمسك لسانه ، أو يكتفى بأن يقول : « لست مسئولا إلا عن نفسى ! » . ومن الأمور التى تجل عن التصديق ، أن يتسنى الجمع بين سمو روحى كهذا وعقل يعنى بأدق التفصيلات . فقد كان يقسم يومه بالساعات ويحدد ــ مقدما ــ استخدام كل ساعة ، بل كل ربع ساعة وكل دقيقة ، ويتبع هذا التقسيم بدقة بالغة ، إلى درجة أنه كان ــ إذا دقت الساعة وهو فى منتصف إحدى العبارات ــ يغلق الكتاب دون أن يتم العبارة ! .. وكان بين كل هذه الأقسام ــ التى اعتاد أن يقسم إليهـا يومه ــ ما هو مخصص للدرس ، وما هو للتأمل ، وما هـو للحديث ، وما هو للعبادة ، وماهو لقراءة مؤلفات « لوك » ، وما هو لتلاوة التسابيح ، وما هو للزيارات ، وما هو للموسيقى ،

---

(١) يستعمل « روسو » لفظ « تركى » كمرادف لمسلم .

وما هو للرسم .. ولم يكن لأى لهو ، أو أى إغراء ، أو أية مجاملة مجال للتدخل فى هذا النظام ، اللهم إلا إذا كان واجبا لا بد من أدائه ! .. وعندما أعطانى بيان تقسيمه الوقت ـ عسى أن أتبعه ـ طفقت أضحك ، حتى انتهيت بدموع الاعجاب ! .. ولم يكن يثقل على الغير اطلاقا ، ولا يحتمل أن يثقل عليه الغير ، وكان حازما مع أولئك الذين كانوا يحاولون مضايقته فى أدب . وكان حار المزاج ، ولكن فى غير عبوس . فكثيرا ما رأيته منفعلا ، ولكنى لم اره قط مغضبا . ولم يكن ثمة ما يفوق مرحه وبشاشته ، وكان ينصت إلى الفكاهة ويحب ان يتفكه ، وكان فى ذلك لامع البديهة ، أوتى موهبة فى قصائد الهجاء . فاذا ما استثاره أحد ، انقلب صارخا صاخبا ، حتى ليسمع صوته على بعد .. ولكن الابتسامة كانت ترى على أساريره ، أثناء صياحه ، وكان ـ فى غمرة انفعاله ـ يطلق بعض الملح فيحمل الجميع على الضحك . ولم يكن بدين الجسم، كما انه لم يؤت سيماء الأسبانيين .. كانت بشرته بيضاء ، وخداه ممتلئين ،وشعره بنيا فاتحا ، يكاد يقرب من الصفرة ، وكذلك كان طويل القوام ، متين البنيان ، ذا جسد جدير بأن يأوى روحه !

هذا الشخص الذى أوتى قلبا يشبه رأسه حكمة وعقلا ، كان على بصيرة بالناس ، وقد كان صديقا لى .. وهذا كل ما أقول لمن هو ليس من أصدقائى . ولقد توثقت صلتنا ، حتى لقد فكرنا فى أن نقضى عمرينا معا ، فأذهب ـ بعد سنوات ـ إلى (اسكويشيا) لأعيش معه فى ضيعته . ولقد دبرت جميع

أجزاء هذا المشروع ـ فيما بيننا ـ فى اليوم السابق على رحيله. ولم يعد ينقصنا سوى ذلك الذى لا يملكه الإنسان لنفسه فى مشروعاته ، مهما يحسن تدبيرها .. فلقد قدر للأحداث بعد ذلك ـ وأعنى مصائبى ، وزواجه ، وموته فى النهاية ـ أن تفرق بيننا إلى الأبد ! .. وما أجدر المرء بأن يقول إنه لا نجاح إلا للخطط السوداء التى يدبرها اللئام .. أما المشروعات البريئة التى يدبرها الطيبون ، فانها لا تكاد تتحقق قط !

***

ولما كنت قد تذوقت متاعب العمل فى خدمة الغير ، فقد عقدت العزم على ألا أعرض نفسى لذلك مرة أخرى . ذلك أننى رأيت أن خططى الطموحة التى أغرتنى الظروف بتدبيرها كانت تنقلب رأسا على عقب بمجرد مولدها ، وثبطت رغبتى فى العودة إلى مهنة بدأتها بمثل هذا النجاح ، ولكننى ـ رغم ذلك ـ طردت منها .. ومن ثم فقد آليت على نفسى ألا التحق ثانية بخدمة أحد ، وأن أظل مستقلا ، فأستغل مواهبى التى كنت قد بدأت ـ أخيرا ـ أقدر مداها ، والتى كنت ـ حتى ذلك الحين ـ لا أنظر إليها إلا فى تواضع . لذلك استأنفت العمل فى « الأوبرا » التى كنت قد انصرفت عنها نظرا لرحيلى إلى (البندقية) . ولكى أفرغ إليها فى أقصى هدوء ممكن ـ عقب رحيل « التونا » ، فقد عدت إلى الإقامة فى فندقى القديم ـ « سان كينتان » ـ الذى كان يقع فى حى منعزل ، يبعد قليلا عن (لوكسمبورج) ، فكان لذلك أكثر ملاءمة ـ لتمكينى من العمل فى هدوء ـ من المسكن القائم فى شارع

(سانت أنوريه) الصاخب . وهناك وجدت فى انتظارى السلوى الحقيقة التى أذاقتنيها السماء فى شقوتى ، والتى كان لها وحدها فضل تمكينى من أن أتحمل تلك الشقوة . ولم تكن هذه السلوى معرفة عابرة ، ومن ثم فلا بد لى من الإقدام على بعض الاسهاب فى بيان الطريقة التى نشأت بفضلها .

فلقد أوتينا فى الفندق مضيفة جديدة من (أورليان) ، اختارت للعناية بالغسيل فتاة من بلدها ، فيما بين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين من عمرها ، كانت تتناول الطعام معنا ، شأنها فى ذلك شأن المضيفة . وكانت هذه الفتاة ـ المسماة تيريز لافاسير ـ من أسرة طيبة ، فقد كان والدها مراقب العملة فى أورليان ، وكانت أمها تاجرة . وكان الأبوان كثيرى العيال . ولما كفت دار سك النقود ـ فى أورليان ـ عن العمل ، وجد الأب نفسه على قارعة الطريق ، بلا عمل .. فى حين أن الأم أفلست ، وتخبطت فى أعمالها ، وانتهت إلى التخلى عن تجارتها ، فجاءت إلى باريس مع زوجها وابنتها التى أخذت تعول ثلاثتهم من عملها !

وعندما رأيت هذه الفتاة على المائدة للمرة الأولى ، أخذت بمسلكها المحتشم ، وزادتنى دهشة نظراتها الوثابة اللطيفة ، التى بدت لعينى ـ إذ ذاك ـ نادرة المثال . وكانت الثلة التى تجتمع حول المائدة تضم ـ إلى جانب السيد دى بونفون ـ عدة من القساوسة الايرلنديين والجسكونيين ، وبعض أفراد آخرين على شاكلتهم . وكانت مضيفتنا نفسها زعيمة الفوضى فى حياتنا ، فى حين أننى كنت الوحيد الذى اعتاد أن يتكلم وأن

يتصرف فى وقار واحتشام . ولقد عاكسوا الفتاة المسكينة ، فتوليت الدفاع عنها ، فاذا بالساخرين ينقلبون على . ولو اننى لم أحس بميل طبيعى نحو الفتاة المسكينة ، لكان الشعور بالاشفاق ، بل والمعارضة ، كفيلا بأن يخلق هذا الميل ، فقد كنت أعجب بالاحتشام فى الأقوال والأفعال ، لا سيما لدى الجنس الآخر . ومن ثم غدوت جهارا نصير الفتاة . ورأيت أنها قد تأثرت بعطفى ، وأن نظراتها أخذت تطفح بعرفان لم تكن تجرؤ على البوح به ، مما كان يزيدنى لباقة وطلاقة لسان!

ولقد كانت شديدة الخجل ، وكذلك كنت أنا . وسرعان ما نمت الرابطة التى لاح أن هذا التشابه فى الطباع كان خليقا بأن يعوقها ! .. وأهاج ذلك مضيفة الفندق ـ إذ لاحظته ـ فاذا بمسلكها الفظ يزيد من تطور علاقاتى مع الصغيرة التى لم يكن لها سواى نصير فى الدار ، ومن ثم فانها كانت ترمقنى فى أسى إذا خرجت ، وتتنهد فى ارتياح إذا ما عاد حاميها !.. وما لبث تجاوب قلبينا وتشابه طباعنا أن أحدثا أثرهما المعتاد !.. فقد خيل للفتاة أنها رأت فى شخصى رجلا شريفا ، ولم تكن مخطئة فى ذلك .. ولقد خيل إلى اننى أرى فيها فتاة مرهفة الحس ، بسيطة ، خالية من الخلاعة ، ولم أكن ـ بدورى ـ مخطئا فى ذلك ! .. ولقد أنبأتها ـ منذ البداية ـ بأننى لن أهجرها قط ، ولن أتزوجها إطلاقا ! .. وكان الحب ، والاحترام ، والاخلاص الصادق هم رسل فوزى ، وذلك لأن قلبها كان رقيقا ، أمينا ، مما جعلنى سعيدا دون ما حاجة إلى أن أكون جريئا !

ولقد أدى خوفها من أن أستاء إذا لم أ[illegible] لديها ما كانت

تعتقد أننى أنشده ، إلى تأخير هنائى أكثر من أى شىء آخر . ورأيت أنها كانت مضطربة مرتبكة قبل أن تسلمنى نفسها ، مشوقة إلى أن تمكننى من أفهمها، دون أن تجرؤ على الايضاح بنفسها . وإذ كنت بعيدا عن أن أحدس السبب الحقيقى لحرجها ، فاننى عزوته إلى سبب جد خاطىء ، وجد مهين لشخصها وأخلاقها . فقد اعتقدت أنها كانت ترمى إلى أن تنبهنى إلى أن صحتى قد تتعرض للأخطار ، واوقعنى هذا فى كثير من الحيرة ، التى لم تصدنى عنها ، ولكنها سممت هنائى أياما عديدة . وإذ عز على كل منا أن يفهم الآخر ، فان أحاديثنا فى هذا الصدد كانت ألغازا وأحاجى تدعو إلى أكثر من الضحك، حتى لقد كانت الفتاة موشكة أن تظننى معتوها ، كما أننى كنت لا أكاد أعرف لنفسى رأيا فيها . وأخيرا تصارحنا . واعترفت لى ــ وهى باكية ــ بزلة وحيدة تعرضت لها وهى تغادر مرحلة الطفولة، وكانت ثمرة جهلها ودهاء الشخص الذى أغواها . وما أن فهمتها حتى صحت فى اغتباط : « البكارة !.. جميل أن ترتجى فى باريس ، وفى سن العشرين !.. آه ! يا تيريزى ، اننى لجد سعيد بأن أحظى بك حكيمة سليمة ، ولا أجد فيك ما لم اكن انشده ! » .

* * *

ولم اكن اسعى فى البداية لغير العبث ، ولكننى ما لبثت أن تبينت اننى وجدت أكثر من ذلك ، وأننى أوتيت زميلة ! .. فان قليلا من الألفة مع هذه الفتاة الرائعة ، وقليلا من التأمل فى موقفى ، جعلانى أشعر اننى ــ فى الوقت الذى لم اكن أفكر فيه

فى غير ملذاتى ــ قد خطوت خطوات كثيرة فى تدعيم هنائى . كان لا بد لى من عاطفة محتدمة تحتل محل طموحى الخابى ، فتملأ فؤادى . وقصارى القول أننى كنت بحاجة إلى خليفة لماما .. ولما كنت مضطرا إلى ألا أعاود العيش معها قط ، فقد بات من المحتوم ان أبحث عمن تعيش مع تلميذها ، وعمن أجد لديها من البساطة ورقة القلب ما كانت تجده لدى . وكان لا بد لى من نعيم الحياة الخاصة والفة المعاشرة ، لتعوضنى عن المهنة اللامعة التى كنت قد نبذتها .. كنت إذا ما خلوت بنفسى وحيدا ، أشعر بقلبى خاويا ، لا يمكن أن يملأه سوى مخلوق آخر .. وكان القدر قد حرمنى من تلك التى خلقتنى الطبيعة من أجلها ، أو أقصانى عنها على الأقل . ومن ذلك الحين ظللت وحيدا ، إذ أننى لم أعرف فى حياتى قط وسطا بين كل شىء أو لا شىء[1] . ولقد وجدت فى تيريز العوض الذى كنت بحاجة إليه ، فعشت بفضلها سعيدا بقدر ما سمحت تطورات الأحداث !

ورغبت ــ فى البداية ــ فى أن أشكل ذهنها ، فبددت فى ذلك جهودى ، إذ ظل ذهنها كما صاغته الطبيعة ، ولم يكن للثقافة والتعليم تأثير عليه . ولست أخجل إطلاقا من أن أعترف بأنها لم تتعلم البتة كيف تجيد القراءة ، وإن لم يكن ثمة بأس بكتابتها . وعندما انتقلت للسكنى فى شارع (نيف ديه بيتى شاب) ،

---

(١) يريد أن يقول انه اعتاد أن ينال كل شىء ، أو لا ينال شيئا على الاطلاق !



ورغبت — فى البداية — أن أشكل ذهنها ، فبددت فى ذلك جهودى اذ ظل ذهنها كما صاغته الطبيعة ، ولم يكن للثقافة والتعلم تأثير عليه .

كانت هناك — امام نوافذى فى فندق بونشارتران — ساعة اضطررت إلى أن أقضى أكثر من شهر فى تدريب تيريز على تعرف الوقت عليها . ومع ذلك فانهـا لا تكاد — حتى الآن — تحذق ذلك . ولم تستطع يوما أن تذكر أشهر السنة الاثنى عشر بترتيبها الطبيعى ، كما أنها لم تعرف رقما واحدا ، برغم كل العناء الذى تجشمته كى أعلمها الأرقام . فهى لا تستطيع أن تعد النقود ، أو أن تحسب ثمن أى شئ .. أما الكلمات التى تستخدمها فى الكلام ، فكثيرا ما تكون نقائض ما تريد قوله بالذات ! .. ولقد اعددت مرة قاموسا لتلك العبارات ، كى أسرى عن مدام « لوكسمبورج » ، فإذا أخطاؤها تذيع فى المجتمع الذى كنت أعيش فيه . بيد أن هذه الفتاة كانت مستشارا رائعا فى المناسبات العصيبة ، برغم ضيق عقلها إلى هذا الحد ، أو برغم غبائها إن شئتم ! .. وكثيرا ما كانت ترى فى المحن التى كنت أجدنى فيها — فى سويسرا أو إنجلترا أو فرنسا — ما لم اكن اراه أنا نفسى ، فكانت تمحضنى من النصح خير ما ينبغى أن أتبع ، وكانت تنتزعنى من أخطار كنت أندفع إليها كالأعمى .. وفى حضور أرقى السيدات ، وفى محضر العظماء والأمراء ، كانت مشاعرها وآراؤها الجيدة وإجاباتها ومسلكها تنتزع لها التقدير العام ، وتجتلب من التهانئ — لطيف خصالها — ما كنت أشعر بصدقها !

والعاطفة — فى قرب المحبوب — تغذى العقل كما تغذى الفؤاد ، فلا يعود ثمـة داع للبحث عن الأفكار فى أى مكان آخر ! .. ولقد عشت مع تيريز فى خير ما كنت خليقا بأن أعيش

فيه مع اجمل عبقرية فى الكون . ولقد حاولت أمها ـ التى كانت تفخر بأنها تربت فى الماضى مع المركيزة دى مونبيبو ـ أن تدعى رجاحة العقل ، ورغبت فى أن تتكفل بتوجيه عقل ابنتهـا ، فأفسدت بحيلها بساطة تعاشرنا . ودفعنى الغيظ من هـذه المضايقة إلى أن اتغلب ـ بعض الشىء ـ على الحياء الأحمق الذى لم أكن أجرؤ معه على الظهور مع تيريز أمام الملأ، فأصبحنا نقوم معا بنزهات قصيرة فى الريف ، حيث كنا نتناول وجبات بسيطة كانت تلذ لى . ولقد تبينت أنها كانت صادقة فى حبها إياى ، فضاعف هذا من حنانى . ولقد عوضتنى هذه الألفة الناعمة عن كل شىء ، ولم يعد المستقبل يشغلنى ، أو بالأحرى أنه أصبح لا يشغلنى إلا كامتداد للحاضر ، إذ أننى لم أعـد اشتهى سوى أن أطمئن إلى بقاء هذا الحاضر !

وأدت هذه العلاقة إلى أن أصبحت كل الملاهى الأخـرى نفايات عقيمة ، فلم أعد أغادر مسكنى إلا لأذهب إلى تيريز ، وبات مسكنها مقرى تقريبا . ولقد صارت هذه الحياة المنعزلة عظيمة النفع لعملى ، حتى أن « الأوبرا » التى كنت عاكفا على تأليفها ، اكتملت ـ كلاما وموسيقى ـ فى أقل من ثلاثة أشهر . ولم تبق سوى بعض ألحان تكميلية وبعض ألحان لتصـحب المناظر . وقد ضايقنى هذا كثيرا ، فعرضت على « فيليدور » أن يتولاه فى مقابل نصيب من الربح ، فجاء مرتين ، وأضـاف بعض الحشو إلى الفصل الخاص بالشاعر « أوفيد » ، ولكنه لم يستطع أن ينصرف إلى هذا العمل ـ الذى كان يتطلب مثابرة ـ فى مقابل ربح بعيد وغير مضمون . ومن ثم فإنه لم يعـد ، وأكملت عملى بنفسى .

وإذ اكتملت « أوبراى » ، آن لى أن أحصل من ورائها بعض الدخل، وكان هذا ـ فى حد ذاته ـ « أوبرا » أخرى ، أشد عناء ! . . فليس من سبيل إلى بلوغ غاية فى باريس ، إذا كان المرء يعيش فى عزلة . ولقد فكرت فى أن أستعين بالسـيد ديلابوبلينيير ، الذى قدمنى إليه جوفكور فى داره ، عند عودتى من جنيف . وكان السيد ديلابوبلينيير هو نصير[١] رامو ، إذ كانت السيدة ديلا بوبلينيير تلميذة هذا المتواضعة ، المتفانية فى الطاعة ، ومن ثم فقد كان « رامو » هو المطر والصحو[٢] فى هذا المنزل ، كما ينبغى أن يقال ! . . ولقد ظننت أنه قد يغتبط بأن يساند عملا من ابتكار أحد تلاميذه ، فرغبت فى أن أريه مؤلفى ، ولكنه أبى أن يراه ، قائلا إنه لم يكن يستطيع أن يقرأ مقطوعات ، إذ أن هذا كان يتعبه كل التعب . وعقب لابوبلينيير على ذلك بأن فى الوسع حمله على الإصغاء ، وعرض أن يجمع موسيقيين لأداء بعض القطع ، ولم أكن أرجو أفضل من هذا . . ووافق « رامو » وهو يزمجر ، ودون أن يكف عن أن يردد أن الألحان التى يضعها رجل لم ينشأ فى جو موسيقى ، وإنما تعلم الموسيقى بنفسه دون ما عون ، لابد وأن تكون شيئا بديعا ! . . وأسرعت أنسخ أدوار خمس أو ست من أحسن المقطوعات ،

---

(١) النصير المقصود هنا ، هو الرجل ذو الجاه والمال ، الذى يرعى أديبا أو فنانا ويبذل له يد العون .

(٢) تعبير فرنسى معناه أن يكون الشخص ذا حظوة ومكانة ، بحيث يغضب أهل البيت لغضبه ويسرون لسروره . ويقابله فى التعبير الدارج عندنا ما يقال من أن شخصا هو « الكل فى الكل » .

وتهيأ لى اثنا عشر من العازفين ، بينما تولى الغناء البرت ، وبيرا ، والآنسة بوردونيه . وما أن بدأ لحن الافتتاح ، حتى رمى « رامو » ــ باطنابه فى المديح ــ إلى الإيحـاء بأن اللحن ما كان ليمكن أن يكون من تأليفى . ولم يدع مقطوعة تمر دون أن يبدى أمارات البرم ونفاد الصبر . ولكنه لم يلبث أن عجز عن تمالك نفسه عند سماع أغنية بصوت « كونترتينور » ــ كان أداؤها قويا محكما ، والموسيقى المصاحبة لها رائعـة ــ فخاطبنى فى خشونة ذهل لها الجميع مستنكرين ، وأعلن أن جزءا مما سمع كان من عمل رجل أفنى فى الفن عمره ، فى حين أن الباقى من عمل جاهل لم يكن على إلمام بالموسيقى ذاتها ! .. ومن الصحيح أن مؤلفى كان غير متناسق وعلى غير قاعدة ، ومن ثم فقد كان رفيع القيمة فى بعض أجزائه ، وعقيما فى بعض آخر ، شأن العمل الذى يقوم به كل امرىء لا يرقى بنفسه إلا بمعونة بعض ومضات من العبقرية ، دون ما سند من العلم . وزعم « رامو » أنه لم يكن يرى فى شخصى سوى سارق صغير ، لم يؤت أية موهبة ولا أى ذوق ! .. ولكن العازفين ، ورب الدار ــ بوجه خاص ــ لم يشاركوه رأيه . ولقد سمع السيد دى «رشيليو» ــ الذى كان يكثر إذ ذاك من زيارة رب الدار ، والسيدة دى بوبلينيير ، كما هو معـروف ــ بحديث مؤلفى ، فرغب فى أن يسمع « الأوبرا » بأكملها ، معتزما أن يعمل على عرضها فى البلاط إذا راقت له . ومن ثم مثلت « الأوبرا » ــ بكامل ما كانت تتطلب من مغنيين وموسيقيين ــ على نفقة الملك ، فى دار السيد بونيفال ، الموكل بالحفلات الملكية . وقام « فرانكير » بالإخراج .. ولقد كانت النتيجة مدهشة ، حتى أن السيد الدوق دى

« ريشيليو » لم يكف عن الصياح والتصفيق . وفى نهاية أغنية جماعية ــ فى الفصل الخاص بتاس ــ نهض وجاءنى فصافحنى قائلا : « هذا هو اللحن الذى يشجى ، يا سيد روسو ! .. ما سمعت قط أجمل منه ، وإنى لأود أن أقدم هذه التحفة فى فرساى ! » . ولم تنبس السيدة دى بوبلينيير ــ التى كانت حاضرة ــ بكلمة واحدة . أما « رامو » ، فبالرغم من أنه دعى، إلا أنه لم يشأ أن يحضر .

وفى اليوم التالى ، استقبلتنى مدام بوبلينيير ــ فى غرفة زينتها ــ استقبالا شديد الجفوة ، وتعمدت أن تحط أمامى من شأن مؤلفى ، وقالت لى إنه بالرغم من أن بعض الوميض الزائف قد بهر السيد دى « ريشيليو » ، إلا أنه قد ثاب إلى نفسه ، ونصحتنى بألا أعول كثيرا على أوبراى !.. واقبل السيد الدوق بعد قليل ، فتحدث إلى بلهجة تخالف ذلك تماما ، إذ أطرى مواهبى ، وبدا مصرا على أن يعمل على عرض مؤلفى على مشهـد من الملك . وقال : « ليس هناك ما لا يمكن اجازته فى البلاط ، سوى الفصل الخاص بتاس ، فعليك أن تكتب فصلا غيره ! » . وكانت هذه العبارة وحدها حافزا دفعنى إلى أن اذهب إلى دارى ، فاحتبس نفسى . وفى غضون ثلاثة أسابيع ، استطعت أن أضع فصـلا يحل محل فصل « تاس » ، وكان موضوعه «هيسيود[1] يتلقى الالهام من إحدى عرائس خياله».

---

(1) هيسيود : كان شاعرا اغريقيا تناول الحياة بالبحث والتحليل ، محاولا أن يضع دستورا أخلاقيا يكفل المحبة والسلام . وقد قدم « كتابى » فى العدد ٥٥ ــ سيرته وملخصا لاعظم رسالاته « الأيام والأعمال » .

واهتديت إلى طريقة خفية مكنتنى من أن ادس فى هذا الفصل قسطا من تاريخ مواهبى وقصة الغيرة التى راق لرامو أن يكرم بها هذه المواهب . ولقد كان فى هذا الفصل الجديد سمو اقل جبروتا وأكثر تمسكا وإحكاما مما كان فى الفصل الذى كان يدور حول « تاس » . وكذلك كانت الموسيقى أروع وأرقى ، ولو ان الفصلين الآخرين كانا معادلين لهــذا ، لقدر للأوبرا أن تعرض بنجاح . بيد أن مشروعا آخر عرض لى ــ فيما كنت أقوم بصقل الفصل وتنقيحه ــ فأرجأت أداء هذه المسرحية !

من سنة ١٧٤٥ إلى سنة ١٧٤٧

اقيمت فى (فرساى) ــ فى الشتاء الذى أعقب معركة دى فونتينو ــ حفلات كثيرة ، كان بينها عدة اوبرات عرضت فى مسرح الـ « بيتيت ايكورى » . وكان بين هذه مسرحية فولتير ، التى كانت تحمل اسم « أميرة نافار » ، والتى نظــم رامــو موسيقاها . وقد عدلت وبدل اسمها إلى « أعياد رامير » . وقد تطلب تغيير الموضوع عدة تحويرات فى الأغانى والرقصات التى كانت فى « الدراما » السابقة ، سواء من حيث التركيب الشعرى أو التركيب الموسيقى . واستدعى هذا البحث عن شخص يؤدى هــذه الغاية المزدوجــة ، إذ أن فولتير كان ــ إذ ذاك ــ فى (اللورين) ، وكذلك كان رامو . وكانا منهمكين معا فى أوبرا « معبد المجد »(١) ، فلم يكن فى وسعهما أن يعنيا بالتحويرات المنشودة . ومن ثم فإن السيد دى ريشيليو تذكرنى ، وعرض

(١) Temple de Gloire

على أن أقوم بالمهمة .. ولكى أحسن تبين ما ينبغى عمله ، ارسل إلى كلا من الشعر والموسيقى على حدة . ولم أشأ ــ قبل كل شىء ــ أن أمس ألفاظ المسرحية دون موافقة المؤلف ، فكتبت إليه فى هذا الصدد ، رسالة جد أمينة ومحترمة ــ فى الوقت ذاته ــ وفقا لما كان يتطلبه الظرف . وها هو ذا رده ، الذى يوجد الأصل الخطى له ، فى ملف الأوراق « أ » ، رقم (١) :

« ١٥ ديسمبر سنة ١٧٤٥

« إنك لتجمع يا سيدى بين موهبتين كانتا ــ حتى اليوم ــ منفصلتين دائما . وهما سببان كافيان لحملى على أن أقدرك وأن أسعى إلى أن أحبك . وإننى لفى هم من أجلك ، إذ تستخدم هاتين الموهبتين فى عمل غير جدير بهما كل الجدارة . فمنذ بضعة اشهر ، طلب إلى السيد الدوق دى ريشيليو ــ طلبــا جازما ــ ان اعد ، فى لمح البصر ، مسودة صغيرة غير دقيقة ، لبضعة مناظر تافهة وناقصة ، تتمشى مع أغــان ورقصــات لا تلائمها إطلاقا . وقد صدعت برغبته بحذافيرها ، ورحت اعمل فى سرعة فائقة، ودون ما إجادة . ثم ارسلت هذه المسودة التعسة إلى السيد الدوق دى ريشيليو ، وأنا موقن من انه لن يستخدمها ، ومن أننى لن أضطر إلى تصحيحها . ولحسن الحظ أنها بين يديك ، فلك أن تفعل بها كل ما تشاء ، إذ أننى قــد أقصيتها تماما عن ذهنى . ولست أرتــاب فى أنك ستفتتح كل الأخطاء التى لابد من أن تكون قد أفلتت منى فى تعجل تأليف التصميم البسيط ، وأنك قد ملأت كل نقص !

« وإنى لأذكر أن من السـهوات التى تنم عن طيش ، أننى نسيت أن أوضح فى هـذه المناظر ــ التى تربط بين الأغانى والرقصات ــ كيف تنتقل الأميرة فجأة من سجن إلى حديقـة أو قصر . وإذ لم يكن الشخص الذى أقام الحفلات لتكريمهـا ساحرا ، وإنما كان سيدا اسبانيا ، لذلك يبدو لى انه لا ينبغى أن ندع للسحر مجالا . فأرجو ان تتكرم يا سيدى باعادة النظر فى هذا الجزء الذى لا احتفظ له باكثر من فكرة مهتزة . وانظر ما إذا كان من الضرورى أن تفتح أبواب السجن ، وأن تنقل أميرتنا من هذا السجن إلى قصر جميل مذهب ومصقول ، يعـد من أجلها . . إننى لأعرف تمام المعرفة ان الأمر كله زرى للغاية، وانه ليس مما يليق بأى كائن مفكر ان يحمل هذه التفاهات على محمل الجد ، ولكن . . بما أن علينـا الا نسـبب من الأشياء إلا اقل ما يستطاع ، فمن الواجب أن نبذل من العقـل قـدر المستطاع ولو كان ذلك فى أوبرا غنائية راقصة رديئة .

« إننى أدع لك وللسيد بالو كل شىء ، وأعتقد أننى لن ألبث أن أتشرف بأن اقدم لك آيات شكرى عما قريب ، وبأن أؤكد لك يا سيدى ، إلى أى مدى يشرفنى أن اكون . . . الخ » .

ولا يعجبن المرء لما فى هذا الخطاب من أدب جم ــ إذا قيس بخطابات فولتير نصف المهذبة التى كتبها لى بعد ذلك الحين ــ فقد كان يظننى ذا حظوة كبيرة لدى السيد دى ريشيليو ، فحمله الرياء المرن على أن يبدى كثيرا من الاعتبار للوافد الجديد على البلاط ، ريثما يزداد معرفة بمدى مكانته !

* * *

وإذ حصلت من السيد دى فولتير هذا السلطان ، واعفيت من كل اعتبار لرامو ــ الذى لم يكن له من هدف سوى الإساءة إلى ــ فاننى عكفت على العمل ــ ولم ينقض شهران حتى كانت مهمتى قد انجزت . ولم يكن الشعر سوى مهمة بسيطة ، إذ كان همى الأوحد هو أن أتفادى أن يكون تباين الأسلوب ملحوظا، ومن حقى أن أعتقد أننى قد وفقت . اما مهمتى ــ فى الناحية الموسيقية ــ فقد تطلبت مزيدا من الوقت والجهد ، فضلا عن أننى اضطررت إلى أن أؤلف عدة قطع للمقدمات ، منها اللحن الافتتاحى ، وكل الحان الإلقاء الغنائى(١) التى تكلفت بهـا فوجدتها بالغة الصعوبة ، إذ كنت مضطرا إلى أن اربط نغمات سيمفونية وصوتية متباينة الطبقات ، بقليل من السطور ــ فى كثير من الأحيان ــ وبوساطة انغام سريعة جدا . ذلك لأننى عقدت عزمى على الا اغير او أعـدل لحنـا واحـدا ، حتى لا يتهمنى رامو بإفساد الحانه الأصلية . ولقد وفقت فى هـذا الالقاء الغنائى . فكانت النبرات واضحة ، مليئة بالقوة ، رائعة فى تناسق نغماتها ، بوجه خاص . ولقد أدى التفكير فى هذين العظيمين اللذين حظيت بشرف الاشتراك معهما ــ على هـذا النحو ــ إلى رفع روحى المعنوية ، وبوسعى أن أقول إننى فى هذا العمل الذى لم يكن لى من ورائه حمد ولا مجد ، والذى لم يكن مقدورا للرأى العام ذاته أن يعلم بفضلى فيه ــ حافظت دائما على مثلى ومستواى !

---

(١) العبارات التى تلقى بالغناء ، دون أن تكون شعرا موزونا .

ولقد أجريت التجارب على المسرحية ــ بالشكل الذى نقحتها إليه ــ فى مسرح « الأوبرا » الكبير . ووجدتنى الوحيد الحاضر من المؤلفين الثلاثة . فقد كان فولتير متغيبا ، فى حين أن رامو لم يحضر ، أو لعله تعمد أن يتوارى . وكانت كلمات المناجاة(١) الأولى مفعمة بالأسى وهذا مطلعها :

« ألا أيها الموت تعال ، فاختم تعاسات حياتى ! » .

وكنت مضطرا إلى أن أضع موسيقى تتمشى معها ، ومع ذلك فإن هذه الفاتحة هى التى خصتها السيدة ديلا بوبلينير بنقدها، إذ اتهمتنى ــ فى تحامل ــ بأننى وضعت لحنا جنائزيا . وبدأ السيد دى ريشيليو بأن يسأل ــ فى إنصاف ــ عمن كتب كلمات المناجاة، فأطلعته على المخطوط الذى كان قد ارسله إلى، والذى اثبت أنها من وضع فولتير . فقال : « ان المخطىء ــ فى هذه الحال ــ هو فولتير وحده » . وظل كل ما فعلت معرضا ــ خلال التجربة ــ لاستهجان السيدة ديلا بوبلينير ، ولانصاف السيد دى ريشيليو . على أننى ما لبثت أن تبينت أن التحامل كان شديد الوطأة ، فقد اشير على بتنقيح عدة أشياء فى مؤلفى ، كان لابد من استشارة السيد رامو بشأنها . واكربنى أن تكون هذه هى النتيجة ، بدلا من الاطراء الذى كنت أرتقبه ، والذى كنت جديرا به يقينا . فعدت إلى بيتى بقلب مثقل .. وسقطت مريضا ، وقد هدنى الإعياء ، وراح الأسى ينهشنى .. وظللت ستة أسابيع لا أقوى على الخروج !

(١) المونولوج : وهو الحديث الفردى الذى يلقيه المرء لنفسه .

وأرسل رامو ــ الذى وكلت إليه التعديلات التى أشارت إليها السيدة ديلا بوبلينيرا ــ يطلب إلى افتتاحيــة « أوبراى » الكبرى ، ليضعها فى مكان تلك التى وضعتها . وفطنت ــ لحسن الحظ ــ إلى الحيلة ، فرفضت . ولم يكن قد بقى على موعد تقديم المسرحية الأخرى أكثر من خمسة أيام أو ستة ، فلم يكن لديه وقت لتأليف افتتاحية ، واضطر إلى أن يترك تلك التى كنت قد وضعتها من قبل .. وكانت على النسق الإيطالى ، ومن نوع كان جديدا تمام الجدة على فرنسا ، فى ذلك الوقت . ومع ذلك فإنه لقى استساغة ، وسمعت من السيد دى « فالماليت » ــ رئيس ديوان الملك ، وزوج ابنة السيد موسار ، وكان قريبا وصديقا لى ــ ان هواة الفن أبدوا كل الرضى عن مؤلفى ، وأن الرأى العام لم يستطع أن يفرق بينه وبين إنتاج رامو . غير أن هذا اتخذ من الإجراءات ــ بالتواطؤ مع السيدة ديلا بوبلينير ــ ما يحول دون معرفته أننى قد ساهمت فى تلك القطعة . فعلى الكتب(١) التى توزع على النظارة ، والتى تثبت فيها دائما أسماء

(١) يقصد الكتاب الذى يشتمل على برنامج الحفلة وموجز التمثيلية . ومما يذكر أن هذا الكتاب لم يحمل اسم مؤلف الحوار ، ولا مؤلف الموسيقى . وانما أورد فقط اسم « لافال » مؤلف « الباليه » . وقد عرضت التمثيلية فى (فرساى) فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٧٤٥ ، أى بعد سبعة أيام فقط من اليوم الذى كتب فيه « فولتير » رسالته . وقد ذكر « روسو » ــ فى الفقرة السابقة ــ ان « رامو » طلب افتتاحية « عرائس أحلام الشعراء » قبل هذا العرض بخمسة أيام ، فكأنه انجز التعديلات فى حوالى يومين

المؤلفين ، لم يذكر سوى اسم فولتير . وآثر رامو إغفال اسمه
على أن يرى اسمى مقترنا به !

وما أن تمكنت من مغادرة دارى ، حتى رغبت فى زيارة السيد
دى ريشيليو . ولكن الفرصة كانت قد فاتتنى ، إذ أنه كان قد
رحل إلى (دنكرك) ، حيث كان عليه أن يشرف على رحيل
الحملة التى كانت موجهة إلى ايقوسيا (اسكتلندا) . ولما عاد،
قلت لنفسى ـ لأبرر كسلى ـ إن المناسبة قد انقضت . وبما
أننى لم أعد أراه منذ ذلك الحين ، فقد أضعت على نفسى التكريم
الذى كان مؤلفى يستحقه .. التكريم الذى كان جديرا بأن
يدره على . ومن ثم فإن وقتى ، وعملى ، وحزنى ، ومرضى
والنقود التى كلفتنيها .. كل هذا تكبدته دون أن يعود على
بـ « سو » واحد ، بل ودون أى تعويض . ومع ذلك فقد اعتدت
دائما أن أرى أن السيد دى ريشيليو كان ميالا بطبعه نحوى ،
وكان يحسن الظن بمواهبى ، ولكن نحسى والسيدة ديلا بوبلينيير
حالا دون كل نتيجة لحسن طويته !

وما استطعت قط أن أفهم سر كراهية هذه المرأة التى كنت
أغصب نفسى على إرضائها ، والتى اعتدت أن أثابر على أن
أبدى لها مجاملتى . ولقد شرح لى « جوفكور » الأسباب ، فقال:
« هناك ـ أولا ـ صداقتها لرامو ، الذى كان يحظى علنا
برعايتها ، والذى لم يكن يحتمل اية منافسة .. وفوق ذلك ،
كان ثمة ذنب جوهرى يصمك فى نظرها ، ولن تغتفره لك
أبدا .. ذلك هو أنك جنيفى ! » .. وهنا بين لى أن الراهب
« هوبير » ـ الذى وفد هو الآخر من (جنيف) ، والذى كان

صديقا صدوقا للسيد ديلا بوبلينيير ـ كان قد بذل قصارى
وسعه ليصده عن الزواج من هذه المرأة التى كان يعرفها تمام
المعرفة ، والتى حرصت ـ بعد الزواج ـ على أن تولى كل
جنيفى كراهية لا سبيل إلى مغالبتها . وأردف جوفكور قائلا :
« ومع أن لابوبلينيير يكن لك ودا ـ أنا موقن منه ـ إلا أنه ليس
لك أن تعتمد على مؤازرته ، فهو مدله فى هوى زوجته ، وهى
تكرهك .. وأنها لخبيثة ، ماكرة .. ولن يكون لك شأن فى هذا
المنزل » . وأدركت ما كان يرمى إليه !

***

ولقد أدى لى جوفكور هذا خدمة أخرى ـ حوالى ذلك
الوقت ـ كنت فى حاجة ماسة إليها . فلقد فقدت أبى الفاضل،
وقد ناهز الستين من عمره . ولم أشعر بقسوة هذا المصاب
كما كنت خليقا بأن أحس بها فى الماضى ، عندما لم تكن
الضائقات تشغل بالى بمثل ما كانت تشغله فى هذه الآونة . إذ
أننى لم أحاول قط ـ خلال حياته ـ أن أطالب ببقية تركة أمى
التى كان يحصل دخلها البسيط . أما بعد موته ، فلم يداخلنى
تردد بهذا الشأن ، ولكن عدم توفر دليل قضائى على وفاة اخى
كان عقبة اخذ جوفكور على عاتقه عبء إزاحتها ، وقد أزاحها
فعلا بفضل مساعى المحامى « دى لولم » . ولما كنت فى حاجة
ملحة إلى هذا المورد الضئيل ، وكانت المسألة محوطة بالريب ،
فقد رحت انتظر نبأ حاسما فى صبر نافد وتلهف . وفى ذات
مساء ، وجدت ، إذ أبت إلى مسكنى ـ الرسالة التى كان
منتظرا أن تشتمل على هذا النبأ ، فتناولتها لأفضها ، وأنا

ارتجف فى لهفة خجلت منها فى سريرتى ، وقلت لنفسى فى ازدراء : « وبعد ؟ ! .. اينساق جان جاك لسلطان المصلحة الخاصة والفضول إلى هذه الدرجة ؟ » .. ووضعت لفورى الرسالة على رف المدفأة ، ثم خلعت ثيابى ، وأويت إلى فراشى فى هدوء، فحظيت بنوم يفوق ما اعتدت .. ثم صحوت فى اليوم التالى متأخرا ، دون ان أعود إلى التفكير فى الرســالة . وفيما كنت ارتدى ثيابى ، لمحتها ففضضتها فى غير تعجل ، ووجدت فيهـا حوالة مالية . وساورتنى كثير من الأفكار الســارة ـــ فى آن واحد ـــ ولكن بوسعى أن اقسم أن اقواها جميعا كانت تلك التى نبهتنى إلى انتصارى على نفسى . واستطيع أن أذكر عشرين من أمثال هذه المناسبة فى حياتى ، ولكنى لا أجد وقتــا لكى أروى كل شىء . ولقد أرسلت قسطا بسيطا من هذه النقود إلى « ماما » وأنا أبكى حسرة على الأوقات السعيدة ، التى كنت فيها على استعداد لأن ألقى بكل شىء عند قدميها ! .. كانت كل رسائلها توحى بضيقها . ولقد ارسلت لى اكواما من الوصفات والأسرار التى كانت تزعم أن بوسعى أن أجمع بها ثروة لى ولها. ولقد كان مجرد التفكير فى فاقتها يعصر قلبى ويضيق افق عقلى. وكان القليل ـــ الذى اعتدت أن ارسله إليها ـــ يقع فى ايـدى الأنذال الذين كانوا يحيطون بها ، دون أن تنتفع بشىء منه . فجعلنى هذا أكره أن اشرك هؤلاء التعساء فيما كانت تمس إليه حاجتى ، لا سيما بعد المحاولات غير المجدية التى بذلتها لانتزاع « ماما » من قبضاتهم ، مما سيرد ذكره فيما بعد .

وانساب الوقت ، وانسابت النقود معه . وكنا اثنين ، بل أربعة .. بل اننا كنا سبعة أو ثمانية ، كما يحسن أن يقال .

ذلك لأنه بالرغم من أن « تيريز » كانت زاهدة فى اية مصـلحة شخصية ، إلى درجة لا يكاد يكون لها مثيل ، إلا أن أمها لم تكن على شاكلتها . فما أن رأت أحوالها تتحسن قليلا ـــ بفضل رعايتى ـــ حتى استدعت كل أسرتها لتشاطرها الغنيمة . فإذا بالأخوات ، والأبناء ، والبنات ، والأحفاد يفدون جميعا ، ما عدا ابنتها الكبرى ، التى كانت متزوجة من مدير عربات النقل فى (انجير) .. وأصبح كل ما افعله من أجل تيريز ، يتحول بفضل امها إلى هؤلاء النهمين . ولما لم اكن جشعا ، ولا كنت مستذلا لشهوة مستعرة ، فاننى لم ارتكب اية حماقات . بل إننى فى اغتباطى بأن أعول تيريز ـــ فى حيـــاة لا بأس بها ، خالية من الترف، ولكنها فى وقاء من الحاجة ـــ أقررتها على أن تسلم أمها كل ما كان بوسعها أن تكسبه من عملها . ولم أكن اقتصر على ذلك .. ولكننى استسلمت للقدر الذى كان يتعقبنى .. ففى الوقت الذى كانت فيه « ماما » ضحية لأنذالها ، كانت تيريز ضحية لأسرتها ، ولم يكن بوسعى أن اقدم اى عون يعود بالنفع على تلك التى كنت اقصد نفعها فى الحــالين . ولقد كان من العجيب أن صغرى بنات السيدة لوفاسير ـــ وهى الوحيدة التى لم تحظ بصداق من اهلها ـــ هى الوحيدة التى راحت تعول اباها وامها .. وان هذه المسكينة ـــ بعــد أن ظلت طويلا تتلقى الصفعات من إخوتها واخواتها ، بل ومن أبناء هؤلاء ـــ أصبحت فريسة لنهبهم ، دون أن تملك لسرقاتهم دفعا يفوق ما كانت تملك من مقاومة لصفعاتهم من قبل . ولم يكن بين ابناء اخوتها سوى واحدة فقط ، تدعى « جوتون ليدوك » ، كانت على قدر من اللطف ورقة الطبع، برغم ما كان يفسدها من قدوة الآخرين ودروسهم .

ولما كنت كثيرا ما اراهم مجتمعين ، فقد أصبحت أطلق عليهم ما يطلقه بعضهم على بعض من القاب ، فأنا أنادى ابنة الأخ بيا ابنة أخى ، والعمة بيا عمتى . واصبح الفريقان يناديانني بياعمى .. ومن هنا نشأ اسم « العمة » الذى أنادى به تيريز باستمرار ، والذى يردده أصدقائى فى بعض الأحيان ، على سبيل المداعبة !

* * *

ومن المعقول أننى لم أضيع لحظة واحدة ــ فى مثل هــذا الموقف ــ دون أن أحاول أن انتزع نفسى منه ، وإذ حدســت أن السيد دى ريشيليو قد نسينى ، ولم أعد آمل فى شىء من ناحية البلاط ، بذلت بضع محاولات لقبول تقــديم اوبراى فى باريس . ولكننى صادفت عقبات كان تذليلها يتطلب وقتا ، فى حين أن حاجتى كانت تزداد شدة يوما بعد يوم . ولقد أشير على بأن أقدم تمثيليتى الهزلية الصغيرة « نارسيس » على مسرح الإيطاليين « اوزيتاليان » . فقبلت التمثيلية ، وظفرت بالتردد على المسرح دون مقابل ، مما سرنى كثيرا . ولكن هذا كان غاية ما فى الأمر إذ أننى لم أوفق قط إلى أن احملهم على إخراج المسرحية . حتى إذا ضقت بمداهنة الممثلين الفكاهيين، انصرفت عنهم . ولجأت فى النهــاية إلى الحيلة الأخيرة التى بقيت لى ، والتى كان يجب أن تكون الوحيدة الجديرة بأن تتبع . ففيما كنت أتردد على دار السيد ديلا بونلينير ، ظللت بعيــدا عن دار السيد دوبان . ومع أن ربتى الدارين كانتا على بعض صلات القربى ، إلا أنهما لم تكونا على وئام ، ولم تتزاورا قط .

بل لم تكن بين الدارين أية صلة ، وإنما كان « ثيريو » هــو الوحيد الذى اعتاد أن يتردد على هذه وتلك . وقد وكل إليه أمر السعى إلى حملى على العودة إلى دار السيد دوبان .

وكان السيد فرانكويى ماضيا ــ فى تلك الأثناء ــ فى دراسة التاريخ الطبيعى والكيمياء ، وقد أعد لنفسه غرفة للدراسة . وأظنه كان يطمع فى عضوية محفل العلوم ، وكان يرغب ــ فى سبيل ذلك ــ فى أن يضع كتابا ، وقد خطر له أننى أستطيع ان اكون ذا نفع فى هذا الصدد . وكان للسيدة دوبان ــ من ناحيتها ــ رأى مشابه فى شخصى ، كما أنها كانت تفكر فى أن تؤلف كتابا . ومن ثم فقد ودا أن يستأجرانى لأكون أشــبه بسكرتير يتقاسمانه . وكان هذا هو الهدف من مساعى ثيريو . فطلبت ــ كعربون ــ أن يستخدم السيد دى فرانكويى نفوذه ونفوذ « جيليو » من أجل تجربة إخراج تمثيليتى فى الأوبرا ، فوافق . وأجريت عدة تجارب لإخراج « عرائس الشعر اللطاف » فى « المخزن »(١) فى بادىء الأمر ، ثم انتقلت التجارب إلى المسرح الكبير . وحضر التجربة الكبرى كثير من الناس ، وحظيت كثير من المقطوعات بتصفيق شديد . على أننى شعرت أثناء الأداء الموسيقى ــ الذى أساء « ريبيل » الاشراف عليه ــ بأن هذه التمثيلية لن تلقى قبولا ، بل إنها لن تكون معدة للعرض دون تعديلات كبيرة . وعلى هــذا فاننى سحبتها دون ما إيضاح ، ودون أن أعرض نفسى لسماع رفضها . ولكننى رأيت بجلاء ،

---

(١) القسم الذى كانت تحفظ فيه المناظر المسرحية وثياب التمثيل .

ومن عدة بوادر ، أن التمثيلية ما كانت ستجاز ، ولو كانت فى
اكمل حال . ذلك لأن السيد دى فرانكويى كان قد وعد حقا
بأن يهيىء السبيل لتجربتها ، ولكنه لم يعد بأن يضمن قبولها .
وقد بر بوعده تماما . ولقد كان يخيل إلى دائما — فى هذه
المناسبة وفى كثير غيرها — بأنه ومدام دوبان لم يكونا حريصين
على أن يدعانى اكتسب شهرة محققة فى المجتمع . ولعل ذلك
كان راجعا إلى خوفهما من أن يظن — عندما تظهر مؤلفاتهما —
انهما قد شحذا مواهبهما على محك مواهبى . ومع ذلك ، فإن
السيدة دوبان كانت دائما مقتصدة فى رأيها عن كفاءتى ، ومن
ثم فإنها لم تستخدمنى قط إلا لأكتب ما كانت تمليه على ، أو
لاقوم لها بأبحاث علمية بحتة ، ومن ثم فإن هذا الظن — فيما
يتعلق بها — قد يكون جائرا !

من سنة ١٧٤٧ إلى سنة ١٧٤٩

ادى هذا الفشل الأخير إلى تثبيط عزيمتى تماما ، فهجرت
كل أمل فى الرقى والمجد ، ولم أعد افكر فى مواهبى الحقيقية أو
الموهومة ، التى لم تعد على بطائل ، بل كرست وقتى وجهدى
لكسب قوتى وقوت تيريزى ، بالشكل الذى راق لذانك اللذين
تكفلا بتمكينى من ذلك . ومن ثم فاننى تفرغت تماما للسيدة
دوبان والسيد دى فرانكويى . ولم يدفعنى هذا الى سعة من
العيش موفورة . . فإن المرتب الذى تقاضيته فى العامين الأولين
— وكان ثمانمائة أو تسعمائة فرنك سنويا — كان لا يكاد يوفر
لى حاجاتى الأولية . إذ أننى كنت مضطرا إلى الإقامة على مقربة
منهما ، فى حجرة مؤثثة ، بحى من الأحياء التى تتطلب نفقات

كثيرة ، كما كنت أدفع إيجار مسكن آخر ، فى الطرف الأقصى
لباريس ، عند نهاية شارع (سان جاك) ، حيث كنت أذهب
لتناول العشاء فى كل مساء تقريبا ، مهما تكن حال الطقس .
وسرعان ما الفت علمى الجديد ، بل إننى بدأت أميل إليه
فاهتممت بالكيمياء ، وتلقيت دروسا عدة مع السيد دى
فرانكويى ، لدى السيد رويل . ورحنا نسود اكداسا من الورق
بما كنا نكتبه فى هذا العلم ، سواء عن صواب أو عن خطأ ، برغم
أننا لم نكد نلم بمبادئه الأولية ! . ولقد ذهبنا — فى سنة ١٧٤٧
— لقضاء الخريف فى (تورين) ، فى « شاتو دى شينونسو »،
القصر الملكى القائم على نهر الشير ، والذى شيده هنرى الثانى
من أجل ديانا دى بواتيير .. التى لا تزال الحروف الأولى من
اسمها ترى منقوشة هناك . وكان هذا القصر قد آل إلى السيد
دوبان ، بوصفه المشرف العام على الأراضى الزراعية للملك .
ولقد استمتعنا كثيرا بالاقامة فى هذا المكان البديع ، وازددنا
سمنة ، حتى أننى أصبحت بدينا كالرهبان ! .. ونعمنا بقدر
كبير من الموسيقى ، كما أننى الفت عدة ثلاثيات غنائية(١) ،
زاخرة بالقوة وبالتناسق النغمى ، وسوف أتحدث عنها فى
« الملحق » إذا قدر لى أن اكتبه . كذلك كنا نقوم بتمثيل بعض
المسرحيات الفكهة ، واستطعت — فى خمسة عشر يوما — أن
أؤلف واحدة ، من ثلاثة فصول ، أسميتها «الخطبة المتهورة»(٢)،

---

(١) قطع غنائية يشترك فى ادائها ثلاثة اشخاص .

(٢) l'Engagement Téméraire

وهى موجودة بين أوراقى ، ولا تمتاز بغير مرحهـا المفرط . ووضعت هناك بعض مؤلفات صغيرة أخـرى ، منها قصـيدة بعنوان « درَب سيلفيا »(١) ، عن درب فى المتنزه الذى كان يمتد على ضفاف نهر (الشير) . على أن هذا لم يصرفنى عن دراساتى الكيمياوية ، ولا عن العمل الذى كنت أؤديه للسيدة دوبان .

وبينما كنت ازداد سـمنة فى شينونسو ، كانت تيريزى المسكينة تتضخم فى باريس بشكل آخر ، حتى إذا عـدت ، وجدت « المؤلف » الذى كنت بداته ، قد تقدم بدرجة لم أكن أتصورها(٢) . وقد دفع بى هذا ـ نظرا لموقفى ـ إلى حيرة بالغة ، لولا ان زملاء المائدة أمدونى بالحيلة الوحيدة التى كان بوسعها أن تخرجنى من المأزق . وهى من البيـانات الدقيقة التى لا أملكَ أن أبوح بها فى بساطة ، لأنى قد اضطر ـ إذا اقدمت على أى إيضاح ـ إلى ان التمس لنفسى المعاذير ، أو إلى أن أدين نفسى ، وما أرانى راغبا فى أن افعل هذا أو ذاك!

ففى أثناء إقامة « التونا » فى باريس ، اعتدنا ان نتناول وجباتنا على مقربة من مسكننا ، بدلا من ان ناكل فى احـد المطاعم . فكنا نتردد على السيدة لاسيل ، بالقـرب من ممر « الأوبرا » .. وكانت زوجة حائكَ ، تقدم أطعمة غير شهية،

(١) لم يلبث القصر أن آلَ الى مالكَ هدم هـذا الدرب الذى أذاع روسو شهرته ؟ والذى كان يجتذب زوارَ فرنسا من الاجانب .

(٢) من المفهومَ انه يعنى أن علاقته بتيريزَ اثمرَت جنيناً .

ولكن مائدتها كانت قبلة الطاعمين ، نظرا لمن كانوا يجتمعون حولها من رفاق طيبين موثوق بهم . فما كان لأى مجهول أن يلج المكان ، بل كان لا بد من أن يقدمه واحد ممن اعتادوا تناول الطعام هناك . وكان « الكوماندور دى جرافيل » ممن استقروا هناك . وهو شيخ ماجن ، موفور الظرف والذكاء ، ولكنه بذىء اللسان .. وقد اجتذب حوله ثلة من الشباب الطائش الذكى ، تألفت من ضباط من فرق الحرس والفرسان .. وكان « الكوماندور دى تونان » حامى كل فتيات الأوبرا ، وقد اعتاد أن يحمل إلى المكان ـ فى كل يوم ـ كافة أنباء هذا الوسط العابث .. أما السيدان « دوبليسى » ـ وكان «بكباشى» محالا على الاستيداع ، وشيخا طيبا حكيما ـ و « انسيليه »(١) ـ وكان من ضباط الفرسان ـ فقد فرضا قدرا من النظام على

(١) عقب « روسو » على هذا بقوله : « الى هذا الأنسيابه أهديت تمثيلية نكهة صغيرة من تأليفى ، بعنوان « أسرى الحرب » ، وضعتها بعد النكبات التى نزلت بالفرنسيين فى بافاريا وبوهيميا ، ولم أجرؤ اطلاقا على أن اعترف بها ، أو أن أعرفها . وكان ذلك لسبب واحد ، هو أن الملك ، وفرنسا ، والفرنسيين، لم يحظوا ـ فيما أحسب ـ بأفضل ولا أصدق من الاطراء الذى اشتملت عليه هذه التمثيلية . ولما كنت جمهوريا وناقدا صريحا للحكومة ، فاننى لم أجسر على أن أعترف بأننى مادح أمة كانت كل مبادئها متعارضة مع مبادئى . واذ كنت اشد أسى لمصائب فرنسا من الفرنسيين أنفسهم ، فقد خشيت أن تؤخذ على محملَ الملقَ والجبن ، امارات الحب الصادق ، الذى ذكرت ـ فى الجزء الاولَ من اعترافاتى ـ عهده وسببه ، والذى كنت استحيى من ابدائه ! » (وقد ورد ذكر ذلك فى الكراسة الخامسة) .

هؤلاء الشبان . كذلك كان يتردد على المكان تجار ، وماليون ، ومتعهدون بتوريد الأغذية .. ولكنهم كانوا مؤدبين ، أمناء ، من المبرزين فى حرفهم ومهنهم . وكان السيد دى بيس والسيد دى فوركاد بين هؤلاء الذين نسيت أسماءهم . وقصارى القول إن المرء كان يرى هناك اناسا محترمين من جميع الأنواع فيما عدا الرهبان وذوى الأوشحة(١) الذين لم يقع عليهم بصرى هناك إطلاقا ، فقد كان ثمة اتفاق على عدم تقديم أحد منهم.

وكانت هذه المائدة ، على ازدحامها ، جد مرحة فى غير صخب، كثيرة الثرثرة فى غير بذاءات . فما كان القائد (الكوماندور) الشيخ لينسى البتة ـ بكل قصصه الماجنة ـ الأدب الذى ألفه فى البلاط ، فلم تكن تخرج من فمه إطلاقا اية كلمة بذيئة لا تغتفرها له النساء . وكانت لهجته دستورا للمائدة كلها ، فكان كل أولئك الشبان يروون مغامراتهم الغرامية فى كثير من التحرر والكياسة . ولم تكن قصص الغانيات لتغيب عن المائدة، إذ كان ثمة مورد لها جد قريب ، فقد كان الممر الذى يفضى إلى دار السيدة لاسيل ، يؤدى كذلك إلى حانوت السيدة دوشات، وهى تاجرة أزياء ذائعة الصيت ، كانت تستخدم ـ إذ ذاك ـ فتيات موفورات الجمال ، اعتاد السادة أصحابنا أن يسعوا إلى مجاذبتهن الحديث ، بعد الغداء . وكان بوسعى أن اتسلى كما كان يفعل الآخرون ، لو أننى كنت أكثر جراة مما أنا . إذ أننى لم أكن بحاجة إلى أكثر من أن الج الحانوت ، كما كانوا يفعلون ، ولكننى لم أجسر . أما السيدة لاسيل ، فقد ظللت

(١) يقصد المحامين .

أذهب لتناول الطعام لديها فى كثير من الأحيان ، عقب رحيل « التونا » . وهناك ، سمعت فيضا من الحكايات المسلية ـ كما اقتبست تدريجيا المبادىء التى ألفيتها مستتبة هناك ـ دون المقاييس الخلقية ، والحمد للسماء ! .. فمن اشراف اوذوا ، إلى أزواج خدعوا ، إلى نساء استخفتهن الغواية ، إلى أطفال ولدوا فى الخفاء .. كل هذه كانت موضوعات عادية مألوفة هناك . وكان ذلك الذى يساهم أكثر من سواه ، فى زيادة عدد سكان ملجأ اللقطاء ، هو أكثر الناس نصيبا من الإعجاب . ولقد أصابتنى عدوى هذا كله ، فصففت طريقة تفكيرى على نسق تلك التى رأيتها سائدة بين قوم ظرفاء ، ومفرطى الأدب بوجه عام ! .. وقلت لنفسى : « ما دام هذا هو العرف السائد فى البلاد ، فللمرء أن يتبعه إذا ما أقام فيها »! .. وهذه هى الحيلة التى كنت أنشدها . فاعتزمت ـ فى اغتباط ـ أن أنتهجها ، دون أية هواجس من ناحيتى أو تردد .. وكل ما كان على أن أتغلب عليه ، هو مخاوف تيريز ، التى كابدت فى حملها على انتهاج الوسيلة الوحيدة لانقاذ شرفها ، كل ما فى الدنيا من عناء ! .. ولقد انضمت لى أمها التى كانت تخشى التورط فى طفل جديد . وانصاعت تيريز فى النهاية ، فاخترت مولدة (داية) حكيمة ، مأمونة ، تدعى الآنسة « جوان » ـ كانت تقيم عند (رأس سان أوستاش) ـ لنعهد إليها بهذه الوديعة . فلما آن الأوان ، نقلت تيريز ـ بمعرفة أمها ـ إلى دار الآنسة جوان ، لتضع حملها ، وذهبت إلى هناك عدة مرات لأزورها ، وحملت إليها رمزا مزدوجا نقش على بطاقتين ، لتوضع إحداهما فى ثياب الطفل ، على أن



وحملت اليها رمزا مزدوجا نقش على بطاقتين ، لتوضع احداهما فى ثياب الطفل ، على أن تودعه القابلة (الداية) ادارة ملجأ اللقطاء .

تودعه القابلة (الداية) إدارة ملجأ اللقطاء ، بالطريقة المعهودة .. وفى العام التالى ، تكررت المضايقة ، وتكرر العلاج ، فيما عدا الرمز الذى أغفل ! .. ولم يعد ثمة تفكير فى الأمر ـ من ناحيتى ـ لا ولم يكن ثمة انصياع يفوق انصياع الأم ، التى أطاعت وهى تتنهد . ولسوف تبدو تباعا كل التغييرات التى أدت هذه الطريقة إلى فرضها على أسلوبى فى التفكير ، وعلى مصيرى كذلك . أما الآن ، فلنلزم هذه المرحلة الأولى ، إذ أن معقباتها ـ التى كانت من القسوة بقدر ما كانت متوارية غير ظاهرة ـ لن تلبث أن تضطرنى إلى العودة إليها كثيرا .

* * *

ولسوف أذكر هنا واقعة أول تعارف بينى وبين السيدة « ديبيناى » ، التى كثيرا ما سيتردد اسمها فى هذه المذكرات. كان اسمها الآنسة ديسكلافيل ، ثم تزوجت من السيد « ديبيناى » ، نجل السيد « دى لاليف دى بيلجراد » ، الذى كان مديرا عاما للأراضى الزراعية.. ولقد كان الزوج موسيقيا، على شاكلة السيد دى فرانكويى . كذلك كانت هى الأخرى موسيقية ، وقد خلق الولع بهذا الفن ودا عظيما بين هؤلاء الأشخاص الثلاثة . وقدمنى السيد دى فرانكويى إلى السيدة ديبيناى ، فكنت أتناول العشاء معها فى بعض الأحيان . وكانت لطيفة ، ذكية ، موهوبة ، خليقة بأن ينشد المرء ودها حقا . على أنها أوتيت صديقة ـ تدعى الآنسة « ديت » ـ كانت تعتبر خبيثة ، وكانت تعاشر الشيفالييه دى فالورى ، الذى

لم يكن حسن السمعة ، وأعتقد أن صحبة هذين الشخصين قد أساءت إلى السيدة ديبيناى ، التى حبتها الطبيعة بسجية غلابة ، وصفات رائعة تخفف من ، أن تتوازن مع نزواتها .

ولقد أوحى إليها السيد دى فرانكويى قسطا من الود الذى كان يكنه نحوى ، وصارحنى بصلاته بها ، ولهذا السبب فاننى ما كنت لأتحدث عن هذه الصلات هنا ، لولا أنها أصبحت معروفة إلى درجة أنها لم تعد خافية على السيد ديبيناى !..

كذلك آثرنى السيد دى فرانكويى باعترافات عجيبة من هذه السيدة ، لم تذكرها لى بنفسها إطلاقا ، ولم يخطر ببالها البتة أننى كنت على علم بها . فاننى لم أفتح فمى ـ ولن أفتحه ـ بالحديث فى هذا الموضوع ، إليها أو إلى أى امرىء آخر(١) .

ولقد أدت كل هذه الاعترافات ـ من كل من الطرفين ـ إلى الزج بى فى موقف جد حرج، لا سيما إزاءالسيدة دى فرانكويى، التى كانت تعرفنى خير معرفة ، فلم تفقد ثقتها بى بالرغم من توثق صلاتى بغريمتها . ولقد عمدت ـ بقدر ما كان بوسعى ـ إلى مواساة هذهالسيدة البائسة، التى لم يبادلها زوجها ـ دون ما شك ـ ما كانت توليـه من حب . وكنت أصغى إلى هؤلاء الثلاثة ، كل على حدة ، وأصون أسرارهم بأقصى وفاء ، دون أن يقدر قط لأى من ثلاثتهم أن ينتزع منى شيئا من أسرار الاثنين الآخرين ، ودون أن أخفى عن كل من المراتين ودى لغريمتها!..

(١) لم تعد اعترافات السيد دى فرانكويى لروسو سرا خافيا على أحد. فان المذكرات التى نشرت باسم ديبيناى تبين لنا أنها أصيبت بعدوى مرض خبيث، من زوجها .. وأنها نقلت هذا المرض الى عشيقها ، الذى قدر له أن يموت به!

ولقد حاولت السيدة دى فرانكويى أن تفيد منى فى أمور كثيرة، فقوبلت برفض بات .. كما أن السيدة ديبيناى أرادت أن تحملنى ـ ذات مرة ـ رسالة إلى فرانكويى ، فلم تقابل برفض مشابه فحسب ، بل إننى صارحتها كذلك بجلاء تام ، بأنها لم تكن بحاجة إلى أكثر من أن تعرض على مثل هذا الأمر ـ مرة ثانية ـ إذا شاءت أن تقصينى عن دارها إلى الأبد ! .. ومن الواجب أن أنصف السيدة ديبيناى ، فإنها كانت أبعد من أن تبدى استياء من مسلكى ، بل إنها تحدثت عنه إلى فرانكويى بأبلغ تقـدير ، ولم يقل ترحيبهـا بى بعده ، عما اعتادت أن تستقبلنى به قبله . وهكذا استطعت أن أمضى موفقا وسط العلاقات العاصفة بين هؤلاء الأشخاص الثلاثة الذين كنت أعتمد عليهم فى معاشى ـ إلى حد ما ـ والذين كنت أكن لهم صادق الميل .. واستطعت أن أحتفظ ـ إلى النهاية ـ بودهم، وتقـديرهم ، وثقتهم ، إذ رحت أتصرف فى رفق ومجاملة ، يرافقهما ـ دائما ـ استقامة وحزم . وبالرغم من غبـائى وحماقتى ، فإن السيدة ديبيناى كانت تميل إلى أن تصطحبنى إلى الحفلات اللاهية التى كانت تقام فى (لاشيفريت) ، فى قصر على نهر (سان دنيس) ، من أملاك السيد دى بيلجراد . وكان ثمة مسرح هناك ، كثيرا ما أخرجت عليه مسرحيات . وقد عهد إلى بأحد الأدوار ، فظللت استذكره ستة أشـهر ـ دون انقطاع ـ ومع ذلك فاننى لم أستغن عمن راح يهمس إلى بعباراته من البداية إلى النهاية ، أثناء التمثيل ! .. وبعد هذه التجربة ، لم يعرض على أى دور

وفى تعرفى بالسيدة ديبيناى ، حظيت كذلك بمعرفة الآنسة دى بيلجراد ، التى لم تلبث أن أصبحت كونتة هودينو . وكانت أول مرة رأيتها فيها ، فى اليوم السابق على زواجها . وقد حدثتنى طويلا(١) ، بتلك الألفة الساحرة التى فطرت عليها . وألفيتها مفرطة فى اللطف ، ولكننى كنت أبعد من أن أرى أنه كان مقدرا لهذه الشابة أن تشكل هدف حياتى يوما ، وأن تجرنى — عن براءة ودون إدراك أو قصد — إلى الحضيض الذى أعيش فيه اليوم !

ومع أننى لم أتحدث عن « ديدرو » منذ عودتى من البندقية، ولا عن صديقى السيد «روجان» ، إلا أننى لم أهمل أيا منهما ، بل ان روابط الود أخذت تزداد توثقا بينى وبين الأول — بوجه خاص — يوما بعد يوم . وكما أننى أوتيت «تيريز»، فقد أوتى هو «نانيت» ، وكانت هذه ناحية أخرى من نواحى التقارب بيننا . ولكن الفارق كان فى أن تيريزى ، وإن ماثلت نانيته فى حسن الشكل ، إلا أنها كانت أرق مزاجا وألطف شخصية منها، وقد خلقت لترتبط برجل محترم .. أما فتاته فكانت سليطة، «زفرة» اللسان ، لا تبدى أمام أنظار الغير ما يخفى سوء التربية . ولقد تزوجها — مع ذلك — وكان هذا عملا طيبا منه،

(١) استعمل « روسو » هنا تعبيرا غير شائع فى الفرنسية ، لذلك استعملنا فى الترجمة « حدثتنى » بدلا من « تحدثت الى أو معى » !

إذا كان قد وعدها بالزواج . أما أنا ، فلم أكن بحاجة إلى أن أحذو حذوه ، إذ أننى لم أبذل مثل هذا الوعد إطلاقا !

ولقد اتصلت كذلك بالراهب دى « كونديللاك » ، الذى لم يكن أفضل منى حالا فى الأدب ، ولكنه كان مهيئا لأن يصير إلى ما أصبح اليوم عليه . ولعلنى كنت أول من أبصر كفاءته ، وقدره حق قدره . ولاح أنه كذلك ارتاح إلى ، وعندما احتبست نفسى فى غرفتى بشارع (جان سان دنيس) — على مقربة من «الأوبرا» — لأضع الفصل الذى ضمنته أوبراى عن «هيسيود»، اعتاد أن يفد فى بعض الأحيان ، فيتناول الغداء معى، وحيدين، وكنا نتقاسم النفقات . ولقد كان يعمل — إذ ذاك — فى كتابه : « رسالة فى أصل المعرفة البشرية »، الذى كان أول مؤلفاته . فلما فرغ منه، تمثلت الحيرة فى العثور على كتبى يتكفل بنشره. إذ أن أصحاب المكتبات الباريسية يعاملون كل مبتدىء فى صلف وجفاء . وكان علم ما وراء الطبيعة غير شائع — إذ ذاك — ومن ثم فإنه لم يكن موردا لموضوع جذاب . ولقد تحدثت إلى « ديدرو » عن « كونديللاك » ومؤلفه ، وحملته على أن يتعرف إليه . ولقد خلقا لكى يتوافقا ، فسرعان ما تآلفا . وأغرى « ديدرو » الكتبى «دوران» على أن يقبل مخطوط الراهب ، فتسلم هذا العالم الكبير بما وراء الطبيعة ، فى مقابل كتابه الأول ، مائة «ايكو» ، وكان فى هذا إيثار له وتكريم لما كان من

المحتمل أن يلقاهما لولاى ! .. ولما كنا نحن الثلاثة(١) نقيم فى أحياء متباعدة جدا ، فإننا كنا نجتمع مـرة فى الأسبوع ، فى (الباليه رويال) ، فنذهب لتناول الغداء معا فى فندق (البانييه فلورى) . ولا بد أن هذه المأدبة الصغيرة الأسـبوعية كانت محببة إلى ديدرو كثيرا ، إذ أنه لم يتخلف عنها قط ، وهو الذى كان يخفق دائما فى أن يذكر مواعيده الأخرى . ولقد رسمت ــ فى تلك اللقاءات ــ خطة نشرة دورية تسمى « الساخر »(٢)، على أن نكتبها بالتعاقب ، ديدرو وأنا . ولقد وضعت الخطوط الأولى للعدد الأول ، فأدى هذا إلى أن أتعرف إلى «داليمبير»، الذى حدثه ديدرو عن النشرة . غير أن أحداثا ــ لم تكن منظورة ــ اعترضت طريقنا ، فظل المشروع عند هذا الحد .

وكان هذان المؤلفان(٣) قد اضطلعا بوضع «قاموس محيط»، قصد به ــ فى البداية ــ أن يكون نظيرا مترجما لموسـوعة « تشامبرز » ، وقريب الشبه من « قاموس جيمس الطبى » الذى كان ديدرو قد فرغ من ترجمته . ولقد رغب ديدرو فى أن يشركنى فى بعض أجزاء مشروعه الثانى ، فاقترح على أن أضطلع بالقسم الموسيقى. وقد قبلت، وأديت مهمتى فى عجلة،

(١) الراهب وديدرو وروسو .

(٢) Le Persi Fleur

(٣) ديدرو وداليمبير .

وفى غير إجادة ، خلال الأشهر الثلاثة التى حـددها لى ، كما حددها لكافة المؤلفين الذين قدر لهم أن يشتركوا فى هـذا المشروع . على أننى كنت الوحيـد الذى كان قد أكمل عمله فى الموعد المعين ، فأسلمته مخطوطى ، الذى كنت قد عهدت بنسخه إلى أحد وصفاء السيد دى فرانكويى ، ويدعى ديبون، فكتبه بخط حسن ، ودفعت له فى مقابل ذلك ــ من جيبى الخاص ــ عشر قطع من فئة «الايكو» ، لم يقدر لى قط أن أستردها . إذ أن ديدرو كان قد وعدنى ــ باسم الناشرين ــ بقسط من الأرباح ، لم يعد إلى محادثتى بشأنه مرة أخرى ، ولا فاتحته أنا بصدده !

ولقد تعطل مشروع « الموسوعة » هذا بسبب سجنه . واجتلب عليه كتابه « أفكار فلسفية » بعض مضايقات لم تؤد إلى نتيجة ما . ولكن الأمر اختلف بالنسبة إلى كتابه « رسالة عن العميان » ، الذى لم يشتمل على ما يستحق النقد فيما عدا بعض مسائل شخصية رأت السيدة « دوبريه دى سان مارو» والسيد « ريومير » أن فيها ما يمسهما ، ومن ثم فقد سجن ديدرو ــ من أجلها ــ فى سجن (فانسين) . ولن يصف شىء مدى التباريح التى أحدثتها فى نفسى محنـة صديقى . فإذا بخيالى المكتئب ــ الذى اعتاد دائما أن يضخم المحن ــ يجمح فى انزعاجه ، إذ خيل إلى أن ديدرو قد يمكث هناك طيلة عمره ، فكدت أجن لذلك ، وكتبت إلى السيدة دى بومبادور، أناشدها

إطلاق سراحه ، أو العمل على أن أحبس معه . ولم أتلق ردا ما عن خطابى ، إذ أنه كان جد بعيد عن المعقول ، فلم يحدث أثرا . ولست أدعى لنفسى فخر أن يكون خطابى قد ساهم فيما حدث بعد ذلك ، من تخفيف متاعب السجن على ديدرو المسكين . على أنه لو كان قد قدر لهذا الحبس أن يستمر فترة أخرى بنفس القسوة ، فلست أشك فى أننى كنت أموت كمدا وقنوطا ، تحت أسوار ذلك السجن اللعين .. وحتى إذا كان خطابى قد أحدث مفعولا يسيرا ، فاننى لم أوله أهمية تذكر ، حتى أننى لم أتحدث عنه إلا لنفر قليل من النـــاس .. ولم أتحدث عنه إلى ديدرو نفسه البتة !

الكراسة الثامنة

سنة ١٧٤٩

خليق بى أن أقف قليلا إذ انتهت الكراسة السابقة . فمع الكراسة الحالية ، تبدأ أصول السلسلة الطويلة من المحن ، التى ألمت بى .

لم يفتنى ــ أثناء ترددى على دارين من ألمع دور باريس ــ أن أعقد بعض صلات التعارف ، برغم قلة لباقتى . فتعرفت ــ فيمن تعرفت إليهم لدى السيدة دوبان ــ إلى الأمير الشاب وريث إمارة (ساكس جوتا) ، وإلى مربية البارون دى تون ، كما تعرفت لدى السيد ديلا بوبلينير إلى السيد دى سيجاى ، صديق البارون دى تون ، وكان معروفا فى عالم الأدب بالنسخة البديعة التى كانت لديه من ديوان « روسو »(١) . ولقد دعانا البارون ــ أقصد دعا السيد سيجاى وإياى ــ إلى قضاء يوم أو اثنين فى (فونتناى ــ سو ــ بوا) ، حيث كان الأمير يمتلك دارا ، فذهبنا .. وفيما كنا نمر بفانسين ، شـــعرت بقلبى يتمزق ، إذ رأيت السجن . ولمح البارون آثار ذلك على وجهى . وعند العشاء ، تحدث الأمير عن سجن « ديدرو » ، فعمد البارون ــ ليحملنى على الكلام ــ إلى اتهام السجين بالنزق .. وهو عين ما بدر منى فى غلظتى إذ انبريت للدفاع عنه ! . ولقد اغتفر لى هذا الاندفاع ، باعتبارى رجلا انساق لعاطفته

(١) الشاعر جان بابتيست روسو .

نحو صديق تعس ، واتخذ الحديث وجهة أخرى . وكان ثمة اثنان من الألمان الملحقين بخدمة الأمير، أحدهما يدعى «كلبفيل»، وهو رجل جم الذكاء ، كان فى ذلك الحين قسا راعيا للأمير ، وغدا فيما بعد مربيا له ، خلفا للبارون .. أما الآخر ، فكان شابا يدعى السيد « جريم » ، كان يتكفل بالقراءة للأمير ، ريثما يتسنى له الحصول على منصب آخر . وكان تواضع ملبسه ينم عن شدة حاجته إلى ذلك .

ومنذ تلك الليلة ، بدأت بينى وبين كلبفيل رابطة لم تلبث أن تطورت إلى صداقة . أما صلتى بالسيد جريم ، فلم تصل إلى هذا الحد بمثل هذه السرعة ، إذ أنه لم يكن يحاول أن يظهر ، بل كان بعيدا كل البعد عن حب الظهور الذى خلعه عليه الثراء فيما بعد .. ولقد دار الحديث عند الغداء ــ فى اليوم التالى ــ عن الموسيقى ، فأجاد الخوض فيه . وقد ابتهجت حين علمت أنه يحسن المصاحبة على المعزف ، فقضينا اليوم فى موسيقى ، على معزف الأمير ، ومنذ ذلك الحين بدأت تلك الصداقة التى كانت جد لطيفة فى أولها ، وجد نكدة فى آخرها ، والتى سأكثر من الحديث عنها فيما بعد .

وإذ عدنا إلى باريس ، علمت بالنبأ المفرح .. بأن ديدرو قد غادر « الزنزانة » ، وأنه منح قلعة ومتنزه (فانسين) كسجن له ــ اعتمادا على وعد شرف منه ــ وسمح له بأن يستقبل أصدقاءه . ولكم شق على ألا أستطيع أن أهرع إليه فى التو ! .. فلقد تأخرت يومين أو ثلاثة ، لدى السيدة دوبان ، بسبب واجبات لم يكن ثمة مفر منها .. وبعد ثلاثة أو أربعة

قرون من التلهف ، طرت لأرتمى بين ذراعى صديقى ! .. ويا لها من لحظة جلت عن الوصف ! .. ولم أجده وحيدا ، بل كان معه « داليمبير » وأمين صندوق كنيسة « سانت شابيل » .. وإذ دخلت ، لم أر فى المكان سواه ، ولم أفعل سوى أن قفزت ، وأن صرخت .. والصقت وجهى بوجهه ، وضممته بشدة دون كلام سوى كلام دموعى وعبراتى .. كنت أختنق شوقا وطربا ! .. وكانت أولى حركاته أن تخلص من عناقى، واستدار نحو رجل الكنيسة قائلا : « أترى يا سيدى كيف يحبنى أصدقائى ؟ » .. وإذ كنت غارقا فى انفعالاتى ، فاننى لم أر من هذا المسلك سوى جانبه الطيب ، ولكننى اذ افكر فيه أحيانا ــ بعد ذلك ــ أرى أن هذا لم يكن خليقا بأن يكون أول ما يخطر ببالى لو أننى كنت فى موقف ديدرو !

ووجدته متأثرا بسجنه اشد التأثر ، فلقد تركت «الزنزانة» طابعا فظيعا على نفسه ، ومع أنه ارتاح إلى المقام فى القلعة، وغدا حرا فى التجول فى متنزه لم تكن تحيط به أسوار ، إلا انه كان محتاجا إلى صحبة أصدقائه ، كى لا يستسلم للأفكار السوداء . ولما كنت الشخص الذى يعطف اشد العطف على آلامه ــ يقينا ــ فقد رأيت أننى ولا بد ــ كذلك ــ الشخص الذى تسرى عنه رؤيته ، أكثر من أى شىء آخر . وبالرغم من وجود بعض الشواغل العاجلة الملحة ، فقد رحت اتردد عليه بعد ذلك ــ مرة كل يومين ــ وحيدا ، أو مع زوجته ، لأقضى معه فترة الأصيل .

* * *

وجاء الصيف فى ذلك العام ــ ١٧٤٩ ــ شديد الحر . وكان ثمة فرسخان بين باريس وفانسين . ولما لم أكن فى سعة تمكننى من استئجار عربة ، فقد اعتدت أن أنطلق فى الساعة الثانية ــ من بعد الظهر ــ على قدمي ، إذا ما كنت وحيدا .. وكنت أغذ السير لأصل فى أقرب وقت .. وكانت الأشجار القائمة على طول الطريق ، غير وارفة الأفنان ، على ما هو مألوف فى تلك المنطقة ، فلم تكن تضفى على شيئا من الظل تقريبا ، وكثيرا ما كنت أرتمى على الأرض ، وقد أرهقنى الحر والتعب ، وعجزت عن المضى .. ولكى أخفف من سرعة انطلاقى ، عمدت إلى اصطحاب أحد الكتب خلال الرحلة . وفى ذات يوم ، اصطحبت كتاب « تقويم فرنسا » . وفيما كنت أقرأ ابان سيرى ، صادفت السؤال الذى طرحه المحفل العلمى لديجون ، ليكون موضوع مباراة[1] العام التالى : « هل ساعد تقدم العلوم والفنون على إفساد الأخلاق أو على تطهيرها ؟ » .

وما أن قرأت هذه الكلمات ، حتى تمثلت كونا آخر ، وغدوت إنسانا آخر . ومع أننى أحتفظ بذكرى حية للأثر الذى أحدثه السؤال فى نفسى ، إلا أن تفصيلات الواقعة غابت عن بالى مذ اودعتها إحدى رسائلى الأربع إلى السيد دى « ماليزيرب » . وهذه إحدى الظواهر العجيبة التى تتصف بها ذاكرتى ، والتى

---

(١) كانت مباراة سنوية يعقدها المحفل العلمى بديجون ، لأحسن رسالة تكتب فى الموضوع الذى يطرحه للمسابقة .

تستحق الذكر . فهى حين تسعفنى لا تمضى فى ذلك إلا طالما كنت معتمدا عليها . وما ان أسكب ما استودعتها إياه على الورق ، حتى تتخلى عنى .. وإذا ما كتبت شيئا مرة ، فانى لا أعود أذكره إطلاقا ! .. وترافقنى هذه الظاهرة ، حتى فى الموسيقى . فقد كنت أعرف كثيرا من الأغانى عن ظهر قلب ، قبل أن أدرسها . ولكنى لم أكد أحذق الغناء من « النوتة » ، حتى عجزت عن استبقاء أية أغنية فى ذاكرتى ، وما أرانى أستطيع اليوم أن أردد أغنية واحدة بأكملها ، من كل الأغانى التى كنت أحبها !

والذى أذكره بجلاء ــ فى هذه المناسبة ــ هو أننى عندما بلغت (فانسين) كنت فى حال من الانفعال تشبه بحران الحمى . ولاحظ « ديدرو » ذلك ، فأفضيت إليه بالسبب ، وقرأت عليه « مناجاة فابريشيوس » (١)، التى كتبتها بالقلم الرصاص، تحت إحدى أشجار البلوط . فشجعنى على أن أنشر آرائى ، وأن أشترك فى المباراة . وقد كان هذا ! .. ومنذ تلك اللحظة غدوت من الضائعين . فلقد كان ما بقى من عمرى ومن تعاساتى

---

(١) Prosopopée de Fabricius .. وكان فابريشيوس قنصلا من حكام الرومان ، وقد عرف بانتهاج البساطة فى مبادئه الخلقية ، وبالوفاء ، والنزاهة ، والتجرد من المصلحة الذاتية . والتخذ [illegible] الذى يظل فقيرا سليم الذمة مهما يرتفع فى مناصب الحكم.

نتيجة لا مناص منها لهذه اللحظة من لحظات الاختبال والضلال[1] !

وتسامت مشاعرى إلى مستوى أفكارى ، بسرعة تفوق التصور . فاذا بكل أهوائى التافهة تختنق فى فورة الحقيقة والحرية والفضيلة .. وأدعى من هذا إلى الدهشة ، أن هذه الفورة ظلت محتدمة فى فؤادى طيلة أربع أو خمس سنوات أخرى ، بدرجة لعلها لم تساور قلب اى بشر آخر !

واقبلت على العمل فى إعداد هذا المقال ، بطريقة جد عجيبة، اعتدت دائما أن انتهجها فى كل مؤلفاتى الأخرى تقريبا . فقد خصصتها بالساعات التى لم يكن النوم يواتينى فيها بالليل . وكنت أستغرق فى التفكير وأنا فى فراشى مغمض العينين، وأروح أقلب عباراتى فى رأسى ، وأعاود تقليبها فى عناء لا يمكن تصوره، حتى إذا انتهيت إلى الرضاء عنها ، أودعتها ذاكرتى إلى أن أستطيع تسطيرها على الورق . ولكن الوقت الذى كان يستغرقه نهوضى وارتداء ثيابى ، كان يضيعها على .. فإذا ما عكفت على ورقى ، لم يوافنى شىء مما نظمته فى بالى تقريبا .

---

(1) أضاف « روسو » ـ فى رسالة الى « ماليزيرب » تفصيلات بديعة لهذه المناسبة ، اذ قال : « وشعرت بدوار طاغ يستولى على رأسى ، يشبه نشوة السكران .. وبخفقان عنيف .. فلم أعد أتمالك أنفاسى وأنا أسير ، ومن ثم ارتميت على احدى أشجار الطريق ، وقضيت نصف ساعة فى هذا الانفعال ، فلما أفقت تبينت أن صدر صدارتى كان مخضلا بالدموع ، دون أن أكون قد شعرت بأننى ذرفتها » .

ورأيت أن أستخدم السيدة لوفاسير كسكرتيرة ، فأسكنتها مع ابنتها وزوجها على مقربة منى ، وكانت هى التى تأتى فى كل صباح لتوقد نارى وتؤدى الخدمات البسيطة التى احتاج إليها، اقتصادا لأجر الخادم ، وعند وصولها ، كنت أملى عليها من سريرى ما اعددته فى الليل . وقد ادى هذا النظام ـــ الذى اتبعته زمنا طويلا ـــ إلى إنقاذ كثير مما كان معرضا للنسيان! . . حتى إذا فرغت من المقال ، عرضته على ديدرو ، الذى أبدى ارتياحا إليه ، واشار إلى بعض تعديلات . على أن هذا العمل الأدبى الملىء بالحرارة والقوة ، كان يفتقد المنطق والترتيب افتقادا تاما ، فهو ـــ دون كل ما انساب من قلمى ـــ أضعفها فى الحجة ، وأفقرها إلى التناسب والتناسق . على أن فن الكتابة لا يستوعب دفعة واحدة ، مهما تكن المواهب التى فطر المرء عليها !

وأرسلت هذا المقال ، دون أن أتحدث عنه إلى احد ، اللهم إلا « جريم » ـــ فيما أظن ـــ إذ كنت قد بدأت أرتبط وإياه باعظم ود ، منذ التحق بخدمة الكونت دى فرييز . وكان لديه معزف اتخذناه ملتقى يجمعنا ، فكنت أقضى مع « جريم » حوله كل لحظات فراغى، نغنى الالحان الإيطالية وأغانى ملاحى الجندول، دون انقطاع أو ملل من الصباح حتى المساء ، أو ـــ بالأحرى ـــ من المساء إلى الصباح . وعندما كنت لا أوجد فى دار السيدة دوبان ، فقد كان من المحقق أو أوجد لدى السيد « جريم » ، أو معه ـــ على الأقل ـــ سواء فى نزهة أو فى مسرح . وكنت قد كففت عن الذهاب إلى مسرح « الكوميدى ايتاليين » ـــ الذى

كنت استمتع بحق دخوله بالمجان ، والذى لم يكن « جـريم » يحبه ــ وأصبحت أتردد معه على « الكوميدى فرانسيز » ، الذى كان مولعا به . وقصارى القول ان جاذبية قوية ربطتنى بهذا الشاب ، حتى اننى أصبحت لا أطيق بعدا عنه ، وحتى أن العمة المسكينة(١) غدت موضع إهمال منى ! .. اقصـد أننى اقللت من زيارتى إياها ، إذ أن عاطفتى لم تهن لحظة واحـدة خلال حياتى !

ولقد أدت استحالة تقسيم وقت فراغى الضئيل بين ميولى ، إلى أن تجددت لدى ، بقوة لا قبل لى بها ، الرغبـة ــ التى ساورتنى منذ وقت طويل ــ فى أن يكون لى ولتيريز مسـكن واحد . ولكن العقبة التى تمثلت فى عدد أفراد أسرتهـا ، وفى الحاجة إلى المال لشراء الأثاث ــ بوجـه خاص ــ جعلتنى أعـدل حتى ذلك لحين . ثم سنحت لى فرصـة المحاولة ، فانتهزتها .. ذلك أن السيد دى فرانكويى والسيدة دوبان شعرا تماما بأن مبلغا يتراوح بين ثمانمائة وتسعمائة فرنك فى العام ، مبلغ غير كاف ، فرفعا من تلقاء نفسيهما مرتبى السـنوى إلى خمسين « لوى » . وفضلا عن هذا ، فان السيدة دوبان لم تكد تسمع باننى كنت اسعى إلى تأثيث مسكن خاص لى ، حتى ساعدتنى ببعض نفحات من أجل هـذا الغرض . وبالإضافة إلى الأثاث الـذى كان لدى « تيريز » من قبل ، لمنا شـملنا ، واستأجرنا مسكنا صغيرا فى مبنى « اللانجدوك » ، بشـارع

(١) ذكر « روسو » أن هذا اللقب أطلقه أصدقاؤه على « تيريز » .

(جرينيل سانت اونوريه) ، لدى قوم طيبى السمعة جـدا ، ودبرنا معيشتنا قدر المستطاع ، وأقمنا هناك فى أمان وارتياح سبع سنوات .. إلى أن نزحت إلى « الارميتاج » .

* * *

وكان والد تيريز كهلا طيبا ، مفرط الدعة ، يخاف زوجته كل الخوف ، ومن ثم فقد أطلق عليها لقب « الملازم كريمينيل » (١) الذى خلعه « جريم » بعد ذلك ــ على سبيل الدعابة ــ على ابنتها . ولم تكن السيدة لوفاسير تفتقر إلى حضور البديهة ، واقصد فى أدب الخطاب ، بل إنها كانت تفخر بأدبها وبسلوكها اللائق بالمجتمع الراقى ، بيد أنها كانت ذات رياء غريب لم أكن أطيقه . وكانت تقدم لابنتها من النصح أسواه ، وقد حاولت أن تحملهـا على أن تخدعنى وتمـكر بى ! .. وكانت تداهن أصدقائى ــ كلا على حدة ــ وتحاول أن تتقرب إلى الواحـد منهم على حساب الآخر ، أو على حسابى أنا ! .. وفيما عدا ذلك فانها كانت أما طيبة ، لأنها وجدت أن مصلحتها فى أن تكون كذلك . وكانت تتستر على أخطاء ابنتها ، لأنها كانت تفيد من وراء ذلك .. هذه المرأة التى أغرقتهـا بعنـايتى ورعايتى ، وبالهدايا الصغيرة ، والتى كنت أتوق من قلبى إلى أن أحمل نفسى على حبها ، كانت ــ بسبب استحالة نجاحى فى هـذا

(١) Lieutenant Criminel كان قاضيا فى « الشاتيل » ، وهو الاسم الذى يطلق على دار للقضاء فى باريس ، تضم أكثر من اثنين من المحاكم ، احداهما مدنية والأخرى جنائية (م)

الصدد ـ السبب الأول للتعب الذى كنت أعانيه فى مسكنى
الصغير . وفيما عدا هذا ، فان بوسعى أن أقول إننى تذوقت
ـ خلال هذه السنوات الست أو السبع ـ أكمل هناء عائلى
يسمح به الضعف البشرى !

كان قلب تيريزى قلب ملاك ، وقد عززت حياتنا المشتركة
حبنا ، فأخذنا نزداد إحساسا ـ يوما بعد يوم ـ بأن كلا منا
خلق للآخر . ولو قدر لمتعنا أن توصف ، لكانت بساطتها داعية
للضحك ، سواء فى ذلك نزهاتنا خارج المدينة وحيدين ، حيث
كنت أنفق ـ بعظمة ـ ثمانية أو عشرة « سو » فى إحدى
الحانات . . أو عشاؤنا البسيط فى النافذة ، وقد جلسنا متقابلين
على مقعدين صغيرين ، فوق صندوق كان يشغل عرض فراغ
النافذة . . فكانت هذه تستخدم ـ بهذا الوضع ـ كمائدة ، وكنا
نستنشق الهواء الطلق ، ونشاهد ما حولنا ، والمارة . . ومع
أننا كنا فى الطابق الرابع ، إلا أنه كان فى وسعنا أن نطل على
الطريق ، ونحن نتناول الطعام ، ترى منذا الذى يستطيع أن
يصف ، بل منذا الذى يستطيع أن يشعر بمفاتن هذه الوجبات
التى كانت تتألف ـ فى مجموعها ـ من ربع رغيف من الخبز
الخشن ، وبعض الكريز ، وقطعة صغيرة من الجبن ، ونصف
« سيتيبه » (١) من النبيذ كنا نشربه معا ؟ . . أيتها الصداقة ،
والثقة ، والألفة ، وراحة البال . . ما ألذ مذاقك ! . لقد كنا

(١) نصف « السيتيبه » يعادل جزءا على ١٦ من الجالون .

نمكث أحيانا فى جلستنا هذه إلى منتصف الليل ، دون أن نفكر
فى شىء ودون أن نفطن إلى الوقت ما لم تنبهنا الأم العجوز إليه!
. . ولكن لندع هذه التفصيلات التى قد تبدو عقيمة أو مضحكة،
فلقد اعتدت أن أشعر ـ وأن أصرح ـ دائما ، بأن الهناءة الحقة
لا توصف !

ولقد حظيت ـ فى نفس تلك الفترة تقريبا ـ بمتعة أخرى ،
كانت أكثر خشونة من هذه . . وكانت آخر متعة من نوعها أندم
عليها . فلقد ذكرت أن « كلبفيل » ـ القس ـ كان لطيفا ، ولم
تكن علاقتى به تقل توثقا عن علاقتى بجريم ، حتى أصبحنا
متآلفين . وكانا يتناولان الطعام أحيانا على مائدتى . وكانت
هذه الوجبات تتجاوز حدود البساطة بعض الشىء ، كما كانت
تزيدها مرحا فكاهات كلبفيل ونكاته المهذبة ، والمداعبات
الجرمانية من « جريم » الذى لم يكن بعد قد طلق العبث . .
ولم تكن الشهوة تتسلط على مآدبنا الصغيرة ، بل كان المرح يملأ
مكانها . وقد شعرنا بارتياح إلى اجتماعاتنا ، فلم نعد نطيق
افتراقا. وكان كلبفيل قد أثث مسكنا لفتاة صغيرة، لم تكف
عن أن تهب نفسها لكل الناس ، لأنه لم يكن قادرا على أن
يكفلها وحده !. . وفى ذات مساء ، كنا نلج أحد المقاهى ، وإذا
بنا نجد كلبفيل خارجا منه ، فى طريقه إليها ليتناول العشاء
معها . فداعبناه ببعض الفكاهات ، التى انتقم لنفسه منها
بلباقة ، إذ اضطرنا إلى أن نشاركه نفس العشاء ، ثم راح
يسخر منا بدوره . وبدت لى الفتاة المسكينة طيبة السجايا ،
مفرطة الدعة ، غير مدربة على مهنتها التى كانت تبصرها بها

– بقدر الإمكان – عجوز ماكرة كانت برفقتها . واستخففنا الحديث والنبيذ إلى درجة نسينا معها أنفسنا . ولم يشأ كلبفيل الطيب أن ينتقص من كرمه ، فتعاقب ثلاثتنا على غرفة مجاورة مع الفتاة ، التى لم تدر أكان لها أن تضحك أم أن تبكى ! . . ولقد اعتاد «جريم» دائما أن يؤكد أنه لم يمسسها، وأنه ما أطال المكث معها إلا ليستعذب إطالة انتظارنا ونفاد صبرنا . وإذا كان قد تعفف عنها ، فمن غير المحتمل أن ذلك كان عن توجس من الفتاة ، إذ أنه – قبل التحاقه بخدمة الكونت دى فريز ، واقامته فى داره – أقام لدى فتيات من غانيات حى (سان روش) بالذات .

وخرجت من شارع (ديه موانو) – حيث كانت الفتاة تقيم – وانا أشد استحياء من القديس « بريو » ، حين بارح المنزل الذى أسكر فيه . ولقد كنت أتمثل قصتى بجلاء ، وأنا أكتب قصته! . . ولاحظت تيريز أن فى الأمر شيئا ، لا سيما وأننى كنت مرتبكا ، وكنت أبدو ساخطا على نفسى . وقد تخففت من العبء ، بأن اعترفت لها بصراحة وإيجاز . وكم أحسنت صنعا ، إذ أن « جريم » جاءها – فى الصباح التالى – متشفيا، وروى لها ذنبى فى مبالغة . ومنذ ذلك الحين ، لم يكف قط عن أن يذكرها به فى خبث وإغاظة . وكان هذا أشنع ذنوبه ، فقد كان من حقى – إذ ائتمنته على سرى طواعية ، وفى غير تحفظ – أن أتوقع منه الا يحملنى على أن أندم يوما على هذه الثقة .

أبدا لم أشعر بطيبة قلب تيريزى ، كما شعرت بها فى هذه المناسبة ، فقد أبدت من الذهول والاستنكار لتصرف « جريم » أكثر مما أبدت من الاستياء لعدم وفائى ، فلم أتجشم أكثر من أن تقبلت منها عتابا رقيقا مؤثرا ، لم ألمح خلاله أى أثر لسخط أو ضغينة !. . لقد كانت سذاجة عقل هذه الفتاة الرائعة ، تعادل طيبة قلبها ، وهذا جل ما يقال !. . على أن ثمة مثالا لذلك ، جديرا بالذكر ، يحضرنى الآن . . فلقد ذكرت لها أن كلبفيل كان قسا ، وراعيا دينيا لأمير (ساكس – جوتا) . وكان القس – فى رأيها – رجلا ممتازا ، حتى أنها فى تخبطها بين الأفكار المتباينة ، أخذت كلبفيل على أنه « البابا » . ومن ثم فقد ظننتها اختبلت ، حين أنبأتنى – ذات مرة – عند عودتى إلى المنزل ، بأن « البابا » قد حضر لزيارتى . واستدرجتها حتى أوضحت، ثم انطلقت بأسرع ما وسعنى لأروى هذه القصة لجريم وكلبفيل، الذى لصق به اسم « البابا » فيما بيننا . . كما أطلقنا على غانية شارع (ديه موانو) ، اسم « الماما جان »(١) ! . . وكان هذا مثار ضحك عز علينا أن نخمده ، حتى كدنا نختنق ! . . ان أولئك الذين جعلونى أقول – فى خطاب حلا لهم أن ينسبوه إلى – إننى لم أضحك فى حياتى سوى مرتين ، لم يعرفوا شيئا عنى فى هذه الفترة ، أو فى أيام صباى ، وإلا ما خطرت لهم هذه الفكرة إطلاقا !

---

(١) Papesse . . لم نجد ترجمة لهذه الكلمة خيرا من « الماما » !

من سنة ١٧٥٠ إلى سنة ١٧٥٢

علمت فى العام التالى ـ سنة ١٧٥٠ ـ أن مقالى فاز بالجائزة فى (ديجون) ، وكنت قد كففت عن التفكير فيه . فأيقظ هذا النبأ ـ من جديد ـ كل الأفكار التى كانت قد أوحت إلى به، وبث فيها قوة جديدة ، وأدى إلى أن تحركت ـ للمرة الأولى ـ رواسب البطولة والفضيلة التى كان أبى ووطنى وبلوتارخ قد أودعوها قلبى فى طفولتى . فلم أعد أجد ما هو أعظم وأجمل من أن أكون حرا وفاضلا ، وأن أرتفع بنفسى فوق اعتبارات الحظ والرأى العام ، ، وأن أكون مستقلا بذاتى . ومع أن الحياء الزائف والخوف من الرأى العام منعانى ـ بادىء الأمر ـ من أن أمضى وفقا لهذه المبادىء ، ومن أن أخرج فجاة ، وعلانية ، على عادات وعرف القرن الذى أعيش فيه .. إلا أننى منذ ذاك الحين عقدت عزمى ، ولم أرجىء تنفيذ ما انتويت لأمد أطول مما كان يتطلبه هذا الانقلاب كى يغدو موفقا .

وفيما كنت أرسم فلسفتى عن واجبات الإنسان ، وقع حادث جعلنى أفضل التفكير فى واجباتى الشخصية . فقد كانت تريز حبلى للمرة الثالثة .. وفى أمانة تامة بينى وبين نفسى ، وفى اعتزاز مفرط صدف بى عن الرغبة فى أن تكون أعمالى مكذبة لمبادئى ، شرعت أدرس مصير أولادى وعلاقتى بأمهم ، على ضوء قوانين الطبيعة ، والعدالة ، والعقل ، والدين .. الدين القدسى ، الأزلى ، كما أراده خالقه ، لا كما شوهه البشر فى تظاهرهم بالرغبة فى تطهيره ، ولا كما حوله الناس ـ بقوانينهم

الموضوعة ـ إلى مجرد عقيدة قوامها الكلمات .. فان فرض المستحيل لا يبهظ الناس ما داموا يتغافلون عن تنفيذه !

ولو أننى كنت مخطئا فى استنتاجاتى ، لما كان ثمة ما هو أدعى للدهشة من الطمأنينة ، التى أقبلت بها عليها .. ولو أننى كنت من أولئك الناس ذوى المنبت الوضيع ، وذوى الآذان المغلقة دون صوت الطبيعة الرقيق، وذوى النفوس التىلا ينبت فيها أى إحساس صادق بالعدالة والإنسانية ، لكان جمود قلبى ميسور الادراك . ولكن ما أوتيت من حرارة القلب ، وإرهاف الحس ، وسهولة التعلق بالناس .. وهذا السلطان الذى كانت تفرضه على علاقاتى بهم ، وهذه اللوعات القاسية التى كنت أعانيها إذا ما اضطررت إلى قطع العلاقات .. وهذه النيةالطيبة التى فطرت عليها نحو أقرانى، وحبى المتأجج لكل ما هو عظيم، وما هو صادق ، وما هو جميل ، وما هو عدل .. وهذا الجزع من السوء بكل أنواعه ، وهذا العجز عن الكراهية والحقد ، بل وعن تمنيهما .. وهذا الحنان ، وهذا الشعور الناعم الوثاب الذى أحس به حين أرى كل ما هو فاضل وكريم ولطيف .. أفليس من الممكن لكل هذه الصفات أن تتآلف فى قلب واحد ، مع الحرمان الذى يدوس ـ فى غير ما تورع ـ أعذب الالتزامات وأحلاها ؟.. لا !.. اننى لأشعر وأجاهر بأن هذا مستحيل ، فان جان جاك لم يكن قط عديم الشعور ، ناكرا لصلات الرحم، ولا كان أبا جاحدا ، لحظة واحدة فى حياته !.. ومن المحتمل أن أكون قد أخطأت ، ولكنى لم أكن قط قاسى القلب .. ولو أننى شئت أن أفضى بحججى ، لتكلمت أكثر مما ينبغى . وبما

أنها كانت من القوة بحيث أغوتنى ، فاننى أخشى أن تغوى كثيرين غيرى ، ولست أبغى أن أعرض الشبان ـ الذين قد يقرأون حديثى ـ لأن ينساقوا إلى الاساءة لأنفسهم بفضل هذا الخطأ . ومن ثم فساكتفى بأن اقول إن غلطتى كانت على هذا النسق : إننى إذ أسلمت أولادى إلى الدولة لتربيهم ، لعجزى عن تنشئتهم بنفسى ، وإذ قضيت عليهم بأن يصبحوا عمالا أو مزارعين ، بدلا من أن يصبحوا مغامرين وطلاب ثروة ، كنت أظنني أؤدى تصرفا يليق بأب مواطن صالح ، وكنت أتمثل نفسى عضوا فى جمهورية أفلاطون . ولقد أشعرتنى حسرات قلبى ـ فى أكثر من مرة ، فيما بعد ـ أننى كنت مخطئا ، ولكن عقلى كان أبعد من أن يوحى إلى بنفس الرأى ، ومن ثم فاننى كثيرا ما باركت السماء لأنها صانتهم مما لقيه أبوهم فى حياته ، ومن الحظ الذى كان يتهددهم إذا ما اضطررت إلى التخلى عنهم . ولو أننى أسلمتهم إلى السيدة دبيناى ، أو السيدة دى لوكسمبورج ، اللتين رغبتا ـ فيما بعد ـ فى أن تكفلاهم ، سواء بدافع من الصداقة ، أو من الكرم ، أو من أى حافز آخر .. لو أننى فعلت ذلك ، فهل تراهم كانوا يغدون أكثر سعادة ، أو ينشأون رجالا أمناء محترمين ، على الأقل ؟.. لست أدرى ، ولكننى واثق من أنهم كانوا خليقين بأن ينشأوا على كراهية أبويهم ، وربما على الغدر بهما !.. ومن ثم فقد كان من الأفضل مائة مرة ، أنهم لم يعرفوا أبويهم !

وهكذا أسلم ابنى الثالث إلى ملجأ اللقطاء ، كما كان شأن الطفلين السابقين .. وكذلك كان شأن الطفلين التاليين، إذ اننى

أوتيت خمسة . ولقد بدا لى هذا الاجراء ملائما ، حكيما ، مشروعا إلى درجة أننى إذا كنت لم أفخر به علانية ، فانما كنت أصدر فى ذلك عن شىء من مراعاة خاطر أمهم .. على اننى أنبأت به كل أولئك الذين كنت قد أطلعتهم على علاقتى بها .. قلته لديدرو ، ولجريم ، كما ذكرته ـ فيما بعد ـ للسيدة دبيناى ، ثم للسيدة دى لوكسمبورج بعد ذلك .. ولقد فعلت ذلك فى صراحة ، وبمطلق الحرية ، دون اى اضطرار ، وكان بوسعى أن أخفى الأمر بسهولة عن الناس أجمعين .. إذ أن الآنسة «جوان»(١) كانت أمينة ، كتومة جدا ، وكان بوسعى أن أطمئن إليها كل الاطمئنان . وكان الوحيد من أصدقائى ، الذى كنت أجد مصلحة فى أن اكشف له سرى ، هو الطبيب «ثيرى»، الذى عنى بعمتى المسكينة فى إحدى مرات الوضع ، عندما ساءت حالها . ومجمل القول اننى لم أحط تصرفى بشىء من الغموض ، لا لأننى لم أتعلم قط أن أكتم شيئا عن أصدقائى فحسب ، وإنما لأننى لم اكن أرى ـ فى الواقع ـ اى ضير فى ذلك . إذ أننى ـ إذا قدرنا كافة الاعتبارات ـ قد اخترت لأولادى الخير ، أو ما آمنت بأنه الخير . بل اننى كنت أتمنى ـ ولا أزال ـ لو أننى نشأت وتربيت على شاكلتهم !

❋ ❋ ❋

---

(١) الآنسة « جوان » هى القابلة أو المولدة التى كانت تعنى بتيريز عند الوضع ، وتتكفل باسلام الأطفال الى ملجأ اللقطاء.

وفى الوقت الذى كنت أسجل فيه اعترافاتى هذه ، كانت السيدة لوفاسير تحذو حذوى ـ من ناحيتها ـ بيد أنها كانت تعرض آراء أقل تشويقا . وكنت قد قدمتهما ـ هى وابنتها ـ إلى السيدة دوبان التى أولتهما ألف آية من آيات الطيبة، بدافع من صداقتها لى . ولقد أطلعتها الأم على سر ابنتها . فما كان من السيدة دوبان الطيبة ، السخية ، التى لم تطلع قط على مدى حرصى على أن أوفر لهما كل أسباب العيش ـ برغم تواضع مواردى ـ إلا أن كفلت للابنة معاشاً سخيا كتمت عنى هذه سره ، بأمر من أمها ، طيلة مقامى فى باريس ، فلم تعترف لى به إلا فى « الأرميتاج » ، وبعد أن كشفت لى عن عدة أمور أخرى كانت تخفيها فى صدرها . ولقد كنت أجهل أن للسيدة دوبان علما بشىء ، إذ أنها لم تبد إطلاقا أية إشارة .. كما أننى أجهل ما إذا كانت السيدة دى شينونسو ـ زوجة ابنها ـ على علم بالأمر هى الأخرى . على أن السيدة دى فرانكويى ـ زوجة ابن زوجها ـ أحاطت به ، ولم تستطع أن تمسك لسانها، فتحدثت إلى عنه فى العام التالى ، بعد أن كنت قد تركت دار الأسرة . وقد حملنى هذا على أن أكتب لها ـ عن هذا الموضوع ـ رسالة توجد فى أضابيرى ، وقد عرضت فيها من حججى ما كان بوسعى أن أذكره دون أن أقحم السيدة لوفاسير وأسرتها ، إذ أن معظم الحجج والأسباب الحاسمة كانت منبعثة من ناحيتهم ، وقد تكتمتها(١) .

---

(١) سترد هذه « الأسباب الحاسمة » فى الكراسة التاسعة .

اننى لأطمئن إلى كتمان السيدة دوبان للأمر ، وإلى مودة السيدة دى شينونسو ، وكذلك كنت مطمئنا من ناحية السيدة دى فرانكويى ، لا سيما وأنها توفيت قبل أن يشيع سرى مدويا ، بوقت طويل . ومن ثم فانه ما كان ليتفشى إلا على ألسنة أولئك الذين أفضيت إليهم به بالذات ! .. والواقع أن هذا لم يحدث إلا بعد أن تقطعت بينى وبينهم الصلات . وبهذا وحده يمكن الحكم عليهم فى الواقع ، دون رغبة منى فى أن أعفى نفسى من اللوم الذى أستحقه ، بل اننى لأوثر أن آخذ الذنب على عاتقى ، على أن أقضى عليهم بما يستحقه خبثهم . إن ذنبى لعظيم ، ولكنه لا يعدو أن يكون خطأ .. فلقد أهملت واجباتى، بيد أن الرغبة فى الايذاء لم تداخل فؤادى أبدا ، ولن يقدر لمشاعر الأب أن تتحدث باقتناع عن أطفال لم يرهم اطلاقا .. ولكن خيانة ثقة الصداقة ، وانتهاك حرمة أقدس المعاهدات ، ونشر الأسرار التى سكبت فى صدورنا ، والحط عمدا من قدر الصديق المخدوع الذى ما يزال يحترمنا وهو ينأى بجانبه عنا .. هذه كلها ليست أخطاء ، ولكنها خسة نفس وسخيمة !

لقد وعدت بأن أقدم اعترافاتى ، لا تبريرات تصرفاتى . ومن ثم فاننى أقف ـ فى هذا الموضوع ـ عند هذا الحد . ومن واجبى أن أكون صادقا ، وللقارىء أن يكون عادلا . ولن أطالبه قط بأكثر من هذا .

* * *

وادى زواج السيد دى شينونسو إلى أن أصبحت أكثر ارتياحا إلى دار أمه ، بفضل مزايا الزوجة الجديدة وعقلها .

فقد كانت شابة مفرطة اللطف ، بدا أنها آثرتنى من بين الكتبة الذين كانوا فى خدمة السيد دوبان . . وكانت الابنـة الوحيدة للسيدة فيكونتة دى بروشيشوار ، الصديقة الحميمة للكونت دى فربيز ، وبالتالى لجريم الذى كان ملحقـا بخدمته . على اننى كنت الشخص الذى قدمه إلى ابنته وأدخله دارها ! (١) ولكن طباعهما لم تتفق ، ومن ثم فان هذه الصلة لم تدم طويلا. أما « جريم » ـ الذى لم يكن يضع عينيه ، منذ ذلك الحين ، إلا على كل ما فيه نفع مؤزر ـ فقد آثر الأم ، التى كانت من نجوم المجتمع الراقى ، على الابنة التى كانت تنشد أصدقاء تثق بهم وترتاح إليهم ، ولا يكون لهم شـأن بأية مؤامرة أو دسيسة ، ولا يسعون إلى غاية بين العظماء ! . . وإذ لم تجد السيدة دوبان فى السيدة دى شينونسو كل ما كانت ترجوه من لين ، أحالت دارها إلى مكان كئيب بالنسبة للشـابة . فآثرت السيدة دى شينونسو ـ التى كانت معتزة بميزاتها ، وربما بمنبتها أيضا ـ أن تنبذ ملاهى المجتمع ، وأن تبقى وحيـدة ـ تقريبـا ـ فى مخدعها ، على أن تحتمل نيرا لم تكن تحس بأنه يلائمها !

ولقد أدى هذا الاعتزال إلى مضاعفة تعلقى بها ، مدفوعا بذلك الميل الطبيعى الذى كان يجتذبنى إلى التعساء . ولقـد وجدت فيها عقلا مفكرا يميل إلى ما وراء الطبيعة ، وإن كان فى بعض الأحيان ينحو إلى السفسطة . وكان حديثهـا جـد

---

(١) يقصد « روسو » أن العروس كانت ابنة الكونت دى فربيز من علاقته بالفيكونتة دى بروشيشوار ، ولكنها تنسب للفيكونت ، ومن ثم فانها كانت تجهل اباها الحقيقى ، الذى قدم اليها كصديق !

جذاب لى . إذ انه كان بعيدا عن أن يكون حديث شابة تركت مدرسة الدير من عهد قريب ، ومع عمقه هـذا ، فانها لم تكن قد بلغت العشرين من عمرها ! . . وكانت بشرتها بيضاء ناصعة تبهر الأبصار ، كما أن قوامها كان خليقا بأن يبدو مهيبا وجميلا، لو أنها أقامت عودها مستويا . أما شعرها فقد اختلطت شقرته بسمرة باهتة ، فى جمال نادر ، ممـا كان يذكـرنى بمـاما البائسة فى أوج شبابها ، فكان يهيج فؤادى . بيد أن المبادىء القويمة التى كنت قد رسمتها لنفسى ـ من عهد قريب ـ وآليت أن أتبعها مهما تكبدت ، جعلتنى فى أمان منها ومن مفاتنها ! . . ولقد اعتدت ـ طيلة فصل الصيف بأكمله ـ أن أقضى معها ثلاث أو أربع ساعات فى عزلة ، القنها الحساب فى درس جـدى ، وأضايقها بأرقامى التى لا تنتهى ، دون أن أقول لها كلمة غزل واحدة ، ودون أن أرمقها بنظرة ! . . ولو أن هذا حدث بعـد خمس أو ست سنوات من تلك الفترة ، لما كنت قمينا بأن أكون عاقلا أو غبيا إلى هذا الحد . . ولكن القدر كان قـد كتب على الا أحب حبا حقيقيا سوى مرة واحدة فى حياتى ، وأن تكون أول وآخر زفرات قلبى وقفا على امرأة غير هذه !

ولقد كنت دائما ـ مذ أقمت فى دار السيدة دوبان ـ راضيا بنصيبى ، لا أبدى أية رغبة فى أن يتحسن . ولقد جاءت الزيادة التى أضافتها السيدة إلى مرتبى ـ بالاشتراك مع السيد دى فرانكويى ـ صادرة عن محض إرادتها وحدهما فحسب . وفى هذا العام ، فكر السيد دى فرانكويى ـ الذى كانت صداقته لى تزداد يوما بعد يوم ـ فى أن يضعنى فى مركز أعلى قدرا

واكثر ثباتا . ولقد كان محصلا عاما لمالية فرنســـا ، وإذ كان السيد دودوبيه ــ أمين خزانته ــ مكتهلا وغنيا ، وراغبا فى أن يعتزل العمل ، فقد عرض على السيد دى فرانكويى هذا المنصب .. ولكى أعد نفسى لتوليه ، ترددت لبضعة أسابيع على دار السيد دودوبيه لأتلقى عنه الارشادات الضرورية . وسواء كنت لم أوت موهبة لهذا العمل ، أو أن دودوبيه ــ الذى بدا لى راغبا فى أن يعهد بهذا المنصب إلى خليفة آخر ــ لم يكن يلقننى أصول المهنة عن طيب خاطر ، فاننى رحت الم بالمعلومات التى كنت محتاجا إليها ، فى بطء وسوء استيعاب .. ولم ينفذ إلى راسى قط نظام الحسابات التى كانت معقدة عن قصد ونية مبيتة . على أننى وإن لم استوعب دقائق المهنة ، لم أتوان قط عن أن أمضى مهرعا نحو المقدرة على ممارســـة مهام الإدارة . بل أننى شرعت فيها ، فتوليت السجلات والخزانة ، وصرفت وتسلمت نقودا ، وأصدرت إيصالات . ومع أن ما لدى من ميل أقل من أن يؤهلنى لهذه المهنة ، إلا أن تقدم سنى جعلنى حكيما ، فعقدت العزم على أن أتغلب على نفورى من أن انصرف بكل نفسى إلى وظيفتى . ولكن سوء الحظ شاء ــ فى الوقت الذى بدأت آلف عملى فيه ــ أن يقوم السيد دى فرانكويى برحلة قصيرة ، ظللت خلالها الموكل الوحيد بخزانته ، التى لم يكن يودعها ــ فى ذلك الوقت ــ سوى مبلغ يتراوح بين خمسة وعشرين الفا وثلاثين الفا من الفرنكات . فاذا القلق وانشغال البال ، اللذان سببتهما هذه الأمانة ، يقنعاننى باننى لم أخلق لأكون صرافا . ولست أرتاب فى أن اللهفة التى رحت أرتقب بهـــا عودة السيد

دى فرانكويى قد ساهمت فى المرض الذى وقعت فريسته عقب هذه العودة !

ولقد قلت فى الجزء الأول من اعترافاتى إننى كنت موشكا على الموت عندما ولدت . وكان ثمة عيب فى تكوين المثانة ، أدى إلى احتباس البول بصفة شبه مستمرة ، خلال سنى عمـــرى الأولى ، فكانت عمتى «سوزان» ــ التى تولت العناية بى ــ تلقى عناء لا يمكن تصوره ، كى تصون حياتى . على أنها أفلحت فى ذلك ، واستطاعت بنيتى القوية أن تتغلب فى النهـــاية ، فتحسنت صحتى كثيرا خلال صباى .. وفيما عدا نوبة الضعف والهزال التى ذكرتها من قبل ، وفيما عدا كثرة احتياجى إلى التبول ، الأمر الذى كان أقل ارتفاع فى الحرارة يجعله عملية متعبة .. فيما عدا ذلك فاننى بلغت الثلاثين من عمرى ، دون أن أحس بما كان فى جسمى من عيب سابق .

وأصابتنى أولى العلل عند وصولى إلى البندقية . فان عناء الرحلة والحر الشديد الذى عانيته ، جلبا على رغبـــة مستمرة فى التبول ، وأوجاعا فى الكليتين ، لازمتنى حتى مقدم الشتاء . ولقد أيقنت بعد زيارتى للمومس(١) أننى ميت ، ولكننى ــ مع ذلك ــ لم أعان أقل تعب .. وبعد أن أرهقت نفسى بالوهم ــ أكثر منى بآلام جسدية ــ بسبب «جولييتا»، إذا بصحتى خير مما كانت فى أى يوم . وظللت هكذا إلى ما بعد سجن ديدرو ، إذ أن اشتداد سخونة دمى ــ خلال رحلاتى إلى فانسين فى الحر

(١) وردت هذه الواقعة فى صفحة ٦٢ من الجزء

القائظ الذى كان سائدا إذ ذاك ـ أدى إلى ألم عنيف فى الكليتين، لم أستعد ـ مذ واتانى ـ صحتى الأولى !

وفى الفترة التى أتحدث عنها ، أدى إسرافى فى إرهاق نفسى بالعمل البغيض فى تلك الخزانة اللعينة ، إلى أن اضمحلت صحتى أكثر من ذى قبل ، ومكثت فى فراشى خمسة أسابيع أو ستة ، فى أشد اغتمام يمكن تصوره . وأوفدت السيدة دوبان لعيادتى «موران»، الذى كان ذائع الصيت، والذى سبب لى ـ برغم مهارته ورقة لمساته ـ أوجاعا لا تخطر ببال ، ولم يستطع قط أن يصل إلى موطن علتى ، فنصحنى بأن ألجأ إلى «داران» ، الذى استطاع بمجساته ـ وكانت أكثر مرونة ـ أن يخفف عنى بعض الأوجاع . على أن موران ـ حين أنبأ السيدة دوبان بحالى ـ صارحها بأننى لن أكون على قيد الحياة بعد ستة أشهر . وحملنى هذا الحديث ـ الذى نمى إلى ـ على أن أفكر جديا فى حالى ، وفى حماقة التضحية براحة جسمى وبالى فى الأيام القلائل التى تبقت لى فى الحياة، لأغدو مستعبدا لوظيفة لم أكن أشعر نحوها بأى ميل ! .. ومن ناحية أخرى ، كيف كان لى أن أوفق بين المبادىء القاسية التى اتخذتها لنفسى وبين منصب لم يكن يتسق معها إلا قليلا ؟ .. ألم يكن من المجافاة للذوق أن أدعو ـ وأنا المحصل العام للمالية ـ إلى التجرد من المصلحة الذاتية ، وإلى الفقر ؟

واشتد تخمر هذه الآراء فى رأسى باشتداد الحمى ، وراحت تتماسك بقوة ، حتى أن شيئا لم يقو ـ منذ ذاك الحين ـ على تبديدها ، فوطدت عزمى ـ خلال فترة نقاهتى ـ على تنفيذ

ما استقر عليه رأيى خلال بحران الحمى ! .. ونبذت إلى الأبد كل مشروع للإثراء والرفعة ، معتزما أن أقضى فى الاستقلال والفقر ، الفترة القصيرة التى تبقت لى فى الحياة ، فاستخدمت كل قوى روحى فى تحطيم أغلال الرأى العام ، وفى أن أقدم بشجاعة على ما أراه خيرا ، دون أن أحفل البتة برأى الناس. وكانت العقبات التى اضطررت لمغالبتها ، والجهود التى بذلتها للانتصار عليها ، فوق كل تصور . وقد وفقت بقدر المستطاع ، بل وأكثر مما كنت أرجو ، ولو أننى نجحت فى أن أدفع عنى ربقة الصداقة ، بقدر توفيقى فى التحرر من ربقة الرأى العام، لبلغت غاية مأربى ، بل لعلها كانت أعظم الغايات التى خطرت لمخلوق فان ، وأدعاها ـ على الأقل ـ للفضيلة .. على أننى ـ إذا رحت أتخبط تحت أقدام الأحكام الخرقاء التى تصدر عن قطيع الأدعياء الذين يسمون العظماء، والذين يسمون الحكماء ـ أسلم نفسى وأنقاد كالطفل لأولئك الذين كانوا يسمون أنفسهم أصدقاء ، والذين كانوا يغارون من أن يرونى أشق وحدى طريقا جديدة . وأنا أبدو جد منهمك فى إسعاد نفسى ، فلم يعودوا يفكرون ـ فى الواقع ـ إلا فى أن يجعلونى مثارا للضحك، وشرعوا فى العمل على تحقيرى ، لكى يصلوا من وراء ذلك إلى تشويه سمعتى ! .. كان تغير شخصيتى ، الذى بدأ فى هذه الفترة ـ وليست شهرتى الأدبية ـ هو الذى أثار غيرتهم منى .. ولعلهم كانوا على استعداد لأن يغفروا لى إن لمعت فى فن الكتابة ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يغفروا لى أن ضربت بمسلكى مثالا بدا أنه ضايقهم !.. لقد فطرت على الود ، وكانت طباعى السلسة الوديعة تغذى هذا الود دون عناء . ولقد كنت محبوبا

من كل أولئك الذين عرفونى ، طالما كنت أعيش مجهـولا لدى الرأى العام ، فلم يكن لى عدو واحد .. على أن اسمى لم يكد يلمع ، حتى أصبحت بلا أصدقاء !.. وكانت هذه نكبة كبرى، ولكن الأكبر منها أننى كنت محاطا بقوم كانوا يسمون أنفسـهم أصدقاء ، فى حين أنهم لم يكونوا يستغلون الامتيـازات التى يتيحها لهم هذا الاسم ، إلا لكى يجرونى إلى الهلاك !.. ولسوف تنكشف فى سياق هذه المذكرات ، تلك المؤامرة البشعة . على أننى سأكتفى ــ فى الوقت الحـاضر ــ بأن أشير إلى أصلها ، وسيتبدى عما قريب كيف تشكلت أولى حلقاتها !

❊ ❊ ❊

كان لا بد لى ، فى الاسـتقلال الذى اردت أن أحيا فيه ، من أن أحصـل على القوت . وصور لى خيـالى وسيلة جد سهلة ، هى نسخ الموسيقى مقابل كذا للصفحة . ولو أن عملا أكثر ثباتا من هذا كان يؤدى إلى الغاية ذاتها ، لأقدمت عليه . ولكن هذه المهنة كانت توائم ميولى ، كما أنها كانت الوحيـدة الكفيلة بأن تهيىء لى قوتى من يوم إلى آخر ، دون أن تقتضينى خضوعا أو تبعية لأحد . ومن ثم فقد قنعت بها .. واعتقادا منى بأننى لم أعد بحاجة إلى أن أعول هم المستقبل ، خنقت صوت غـرورى ، وانقلبت من صراف لأحد رجال المـال ، إلى ناسخ موسيقى !.. وظننت أننى قد كسبت كثيرا بهذا الاختيار، فلم يداخلنى ندم يذكر ، حتى أننى لم أتخل عن هذه المهنة إلا بحكم الظروف القاهرة، لأعود فاحترفها بمجرد أن وسعنى ذلك.

ولقد أدى نجاح مقالى الأول إلى زيادة تيسير تحقيق هـذا

القرار . وقد تكفل ديدرو يطبع المقال بعد فوزه بالجـائزة . وقد كتب لى ــ وأنا طريح الفراش ــ رسالة أعلمنى فيها بنشر المقال وبنتيجة ذلك . فقال : « لقد حظى بكل إطراء .. وما كان لمثل هذا النجاح مثيل من قبل » . ولقد منحنى هذا التحبيذ ــ الذى أولاه الرأى العام عن رضى لكاتب مغمور ــ أول اطمئنان حقيقى إلى كفاءتى التى كنت فى ريب منهـا قبـل ذلك ، برغم مشاعرى الداخلية . وتبينت النفع العظيم الذى كان بوسعى أن أظفر به من هذه الكفاءة ، بالنسبة إلى القرار الذى كنت أهم بتنفيذه ، وقدرت أن ناسخا على قسط من الشهرة الأدبية ، لن يعانى الحاجة إلى العمل إطلاقا !

وما أن استقر رأيى وتوطد عزمى ، حتى كتبت إلى السيد دى فرانكويى أنبئه بذلك، وأشكر له ــ وللسيدة دوبان كذلك ــ كل أنعمهما ، سائلا إياهما أن يعهدا إلى بما يرغبان فى نسخه. ولم يفقه فرانكويى من هذه الرسالة شيئا ، بل ظن أننى مازلت فى بحران الحمى ، فهرع إلى دارى ، ولكنه وجد أن رأيى كان قد استقر تماما ، إلى درجة أنه لم يستطع أن يزعزعنى عنه .. وذهب فأنبأ السيدة دوبان والناس كلهم بأننى قـد اختبلت ، فتركته يقول ما شـاء ، ومضيت فى طريقى . وبدأت إصـلاح نفسى بملبسى ، فتخليت عن الزوائد المطـرزة بالقصب ، وعن الجوارب البيضـاء ، وارتديت قلنسـوة مسـتديرة من الشعر المستعار ، وطرحت عنى سيفى ، وبعت سـاعتى ، وهتفت لنفسى فى غبطة تفوق التصور : « الحمد للسماء ، فلن تعود بى حاجة إلى تعرف كم السـاعة ! » . وتكرم السيد دى فرانكويى

بالتريث فترة طويلة ، قبل أن يتصرف بشأن خزانتــه ، حتى إذا رأى ــ فى النهــاية ــ أننى مصر على قرارى ، عين السيد داليبار ، الذى كان قبل ذلك مربيا ومعلما لشينونسو فى صغره، والذى كان معـروفا فى ميدان فلاحة البســاتين بكتــابه عن « الزهور الباريسية » (١) .

ومما خفف من عنت انقلابى التقشفى ، اننى لم اطبق الزهد ــ فى البداية ــ على ملابسى الداخلية المتبقية مما كان لدى فى (البندقية) فقد كانت جميلة ووفيرة ، وكنت مولعا بها بوجه خاص . وبفضل اضطرارى إلى أن أتخذها مظهرا للنظافة، إذا بى أجعلها موضع بذخ وترف ، الأمر الذى لم يلبث أن أبهظنى. ولقــد تكرم على شــخص ما فخلصنى من هذه الربقة . ففى أمسية عيد الميلاد ، وبينما كانت الخادمات فى قداس الغروب، بينما كنت فى « حفلة موسيقية روحية »(٢) أغتصب باب غرفة فى أعلى الدار، كان غسيلنا منشورا فيها بعد غسله .. وسرقت الثياب جميعها ، وكان بينها اثنان وأربعون قميصا لى من أبدع الأقمشة ، كانت تؤلف الشطر الأكبر من ثيابى الداخلية . ومما

---

(١) أضاف « روسو » الى هذا قوله : « لست أشك اطلاقا فى أن فرانكويى وخلصاءه يرددون رواية مناقضة لهذه ، ولكنى أستشهد بما قاله فرانكويى ــ اذ ذاك ــ وما ظل يردده للملأ وقتا طويلا بعد ذلك ، الى أن تكونت المؤامرة. ولابد أن ذوى الادراك السليم والأمم الطيبة ، لا يزالون يذكرون قوله » .

(٢) وهى حفلات لا تعزف فيها سوى الموسيقى الدينية ، كنوع من الرياضة الروحية .

ذكره الجيران شوهد رجل يغادر الدار ــ فى تلك الفتــرة ــ حاملا بعض اللفائف . ولقد ارتابت تيريز وإياى فى أخيهــا ، الذى عرف بأنه امرؤ سوء .. وراحت الأم تدفع هذا الاشتباه بحمية ، ولــكنه تأكد بأدلة كثيرة عــززته لدينا ، بالرغم من استنكارها إياه . ولم أجسر على القيام بتحقيق دقيق ، خشية أن اكتشف أكثر مما كنت أحب . على أن الأخ لم يظهر بعد ذلك فى دارى ، وما لبث أن اختفى تماما . ولقد رثيت لسوء طالع تيريز وطالعى ، لارتباطنا بأسرة على هذه الشاكلة ، ورحت أناشدها أكثر من ذى قبل ، أن تطرح عنها عبءا خطيرا كهذا. ولقد أبرأنى هذا الحادث من ولعى بالثياب الداخلية الجميلة ، ولم أعد أقتنى بعد ذلك سوى ثياب من أقمشة عادية ، تتمشى مع بقية ملابسى .

وإذ استكملت انقلابى الاصلاحى بهذا الشكل ، لم يعــد لى من هم سوى أن أدعمه وأعززه ، بالعمل على أن أجتث من قلبى كل ما كان عرضة للتأثر بآراء الناس.. وكل ما كان بوسعه ان يحولنى ــ بدافع من الخوف أو من اللوم ــ عن كل ما كان فى حد ذاته طيبا ومعقولا . وإلى جانب الضجة التى أحدثهــا مقالى، أثار قرارى ضجة هو الآخر ، وجلب على عملا مكننى من أن أبدأ مهنتى الجديدة بتوفيق لا بأس به . على أن عدة أسباب عاقتنى عن أن أنجح فى هذه المهنة بالقدر الذى كنت قمينا بأن أحصل عليه فى ظروف أخرى . وكان أول هذه الأسباب صحتى السيئة . فان مرضى الأخــير خلف معقبــات منعتنى من أن أستعيد حالى الصحية السابقة ، وانى لأعتقد بأن الأطباء الذين

أسلمت نفسى إلى رعايتهم ، ألحقوا بى من الضرر فوق ما ألحقه المرض . فلقد سعيت بالتوالى إلى موران ، فدوران ، فهيلفيتيوس ، فمالوان ، فثييرى .. وكانوا جميعا من الأساتذة، وكلهم من أصدقائى ، وقد عالجنى كل منهم على طريقته دون أن يخفف عنى شيئا ، بل انهم أضعفونى كثيرا . وكنت كلما حملت نفسى على اتباع إرشاداتهم ، ازددت شحوبا ، وهزالا ، وضعفا . وأخذ خيالى ــ الذى أزعجوه ــ يقيس حالى بمدى مفعول عقاقيرهم ، فلم يعد يصور لى سوى سلسلة متتابعة من الآلام ، التى تسبق الموت ، ومن احتباس البول ، والحصباء، وأحجار القبر !.. كانت كل ألوان العلاج التى تخفف عن الغير ــ من مياه طبية ، وحمامات ، وحجامة ــ لا تزيد أوجاعى إلا استفحالا . وإذ وجدت أن مجسات داران ــ وهى الوحيدة التى أدت إلى بعض النتائج ، وجعلتنى أعتقد أن لا سبيل لى إلى الحياة بدونها ــ لم تكن تهيىء لى ، برغم ذلك، سوى تسكين مؤقت للأوجاع ، فقد بادرت إلى إنفاق مبلغ جسيم فى اقتناء كمية هائلة من المجسات تكفينى طيلة العمر ، ولو فارق داران الحياة !.. ولا بد أننى أنفقت خمسين « لوى » على الأقل ، خلال السنوات الثمانى أو العشر التى استخدمت فيها هذه المجسات دون انقطاع !.. ومن اليسير تبين أن علاجا باهظ النفقات ، مؤلما مزعجا كهذا ، كان يشغلنى عن العمل ، وأن المرء إذا ما كان مشرفا على الموت ، لا يشعر برغبة ملهوفة فى كسب خبزه اليومى !

***

وكانت الشواغل الأدبية ملهاة أخرى ، لا تقل عن سابقتها عدوانا على عملى اليومى . فما هو أن نشر مقالى ، حتى انقض على حماة الأدب ، وكأنهم عصبة جمعت صفوفها . وغاظنى أن أجد مثل هذا العدد من « السادة جس » الصغار[1] ، يحاولون أن يفرضوا سلطانهم وإن لم يكونوا على دراية بالأمر ، فقد امتشقت قلمى ، وعالجت فريقا منهم بطريقة لم تدع ضحكات فى صفوفهم !.. وكان أول المتهاوين تحت طعنات قلمى ، سيد من (نانسى) يدعى السيد جوتييه ، فقد أهين بغلظة فى رسالة إلى « جريم » . أما الثانى ، فكان الملك « ستانيسلاس » [2] نفسه ، الذى لم يتورع عن أن يخوض المعركة ضدى . وقد اضطرنى الشرف الذى أضفاه على ، إلى أن أبدل لهجتى فى الرد عليه ، فاتخذت لهجة أكثر وقارا ، وإن لم تكن أقل شدة . ففندت رسالته تماما ، دون أن أغض من احترام المؤلف . ولقد عرفت أن جيزويتيا يدعى الأب « مينو » كان ذا يد فى الموضوع، فاعتمدت على فطنتى فى التفرقة بين عمل الأمير وعمل الراهب، وانقضضت دون إشفاق على كل العبارات الجيزويتية ، فكشفت ــ فى طريقى ــ عن خطأ تاريخى كنت أعتقد أنه

---

(1) السيد « جس » احدى شخصيات مسرحية موليير « طبيب الغرام » وقد استعار « روسو » هذا الاسم ليرمز الى المتحامل الذى تعميه المصلحة الشخصية عن الحق » .

(2) الملك ستانيسلاس الأول ، ملك بولندا وقد عاش من سنة ١٦٧٧ الى سنة ١٧٦٦ ، وخلفه « ستانيسلاس » الثانى ، آخر ملوك بولندا ، وقد عاش بين سنتى ١٧٣٢ و ١٧٩٨ ، والغالب أن « روسو » قصد أولهما .

لا يصدر إلا عن قلم قداسته . وهذا المقال ـــ الذى كان أقل من سواه إثارة للضجيج لسبب ما ـــ يعتبر فى حد ذاته فريدا فى نوعه . فقد انتهزت فيه الفرصة لأبين للرأى العام كيف أن فى وسع فرد معين أن يذود عن قضية الحق ، ضد عـــاهل ذى سلطان . وكان من العسير أن اتخذ لهجة أبيه ومحترمة ـــ فى الوقت ذاته ـــ تفوق تلك التى اتخذتها فى ردى عليه . وكنت مجدودا إذ قدر لى أن أنازل غريما كان قلبى مفعما نحوه بتقدير كنت أملك أن أبديه له دون ما تملق . ولقد ظن أصـــدقائى ـــ الذين انزعجـــوا من أجـــلى ـــ أنهم لن يلبثوا أن يرونى فى « الباستيل » ، ولكن الخوف من ذلك لم يداخلنى لحظة واحدة .. وكنت محقا . فقد قال هذا الأمير الطيب ، بعد أن اطلع على ردى : « لقد تلقيت جزائى ، ولن أزج بنفسى فى الأمر بعد ذلك » . ومن ذلك الحين ، تلقيت منه الكثير من أمارات التقدير والكرم ـــ التى سأضطر إلى ذكر بعضها ـــ وانتشر مقالى فى فرنسا وأوربا فى هدوء ، ودون أن يجد امرؤ فيه منفذا إلى لوم !

وصادفت ـــ بعد ذلك بقليل ـــ غريما آخر لم أكن أتوقعـــه هو السيد « بورد » الذى كنت أعرفه فى (ليون) ، والذى أولانى ـــ قبل عشر سنوات ـــ كثيرا من الود ، وأدى لى عدة خدمات ، ولم أكن قد نسيته ، ولكنى كنت قد تغافلت عنه تكاسلا ، كما أننى لم أكن قد أرسلت إليه مؤلفاتى ، إذ عازتنى الفرصة المواتية لأبعث بها إليه ـــ وكنت فى ذلك مخطئا . ولقد هاجمنى ـــ ولكن فى أدب وأمانة ـــ فرددت عليه بنفس اللهجة . وعاد إلى الهجوم

بإصرار ، فأفسح بذلك المجال إلى رد مفحم ، لم ينبس بعـــده بكلمة (١) ، ولكنه صار أشد أعدائى ضراوة ، وانتهـــز وقت محنتى ليوجه إلى شتائم مقذعة ، كما رحل إلى لندن خصيصا لكى يسعى إلى إيذائى !

ولقد شغلتنى هذه المجادلات القلمية كل الشغل ، إذ بددت كثيرا من الوقت الذى كان يتطلبه عملى فى النســـخ ، وعاقت تقدمى فى طلب الحقيقة ، وحدت من الكسب الذى كان يدخل جيبى . وكان « بيسو » ـــ ناشر مؤلفـــاتى فى ذلك الحين ـــ لا يمنحنى دائما سوى مبالغ زهيدة جدا فى مقـــابل كتيباتى ، وكثيرا ما كان لا يدفع شيئا البتة . ومن أمثلة ذلك أننى لم أتلق درهما واحدا عن رسالتى الأولى ، إذ أعطاه ديدرو إياها دون مقابل . وكان لا بد من أن انتظر طويلا ، وأن أنتزع منه القليل ـــ الذى كان يجود به ـــ « سو » إثر « سو » . وفى الوقت ذاته ، لم تكن سوقى فى النسخ رائجة ، فقد كنت مشـــغولا بمهنتين ، وهذه هى الوسيلة لكى أسىء أداء كل منهما !.. ولقد تعارضت هاتان المهنتان فى ناحيـــة أخرى ، وقد تمثل هـــذا التعارض فى تباين أسلوب الحياة الذى كانت كل منهما تضطرنى إلى انتهاجه .. ذلك أن نجاح مؤلفاتى الأولى ، جعلنى قبلـــة الأنظار . إذ أثارت المكانة التى احتلتها فضول الناس ، وولد

---

(١) يبدو أن الذاكرة خانت « روسو » هنا ، إذ أنه لم يوجه إلى « بورد » سوى رد واحد ، بشأن مقاله : « فى فوائد العلوم » [illegible] على مقال ثان نشر الكاتب فى الموضوع ذاته .

الرغبة فى معرفة هذا الرجل الغريب الأطوار ، الذى لم يكن يخطب ود أحد ، ولا يحفل إلا بأن يعيش على سجيته طليقا ، سعيدا .. وكانت هذه الرغبة كافية لأن تجعل الحياة التى كنت أنشدها مستحيلة ، إذ لم تعد حجرتى تخلو من أناس كانوا يفدون ليسلبونى وقتى بمختلف الحجج . وعمــدت النساء إلى ألف حيلة لاستدراجى إلى موائدهن .. وكنت كلما جافيت الناس ازدادوا إصرارا على ملاحقتى .. ولم أعد أقوى على صدهم جميعــا ، ففى الوقت الذى جلبت فيه على نفسى ألف عــدو ــ بسبب الرفض ــ كانت رغبتى فى مجاملة الغير تستعبدنى ، ولم أعد أحظى من يومى بساعة واحدة لنفسى ، مهما أحاول!

* * *

وأدركت إذ ذاك أن العيش فى فقر وحــرية ، ليس دائما بالسهولة التى يتصورها المرء . فلقد شــئت أن أعيش على مهنتى ، ولكن الجمهور لم يشأ !.. وكانوا يبتكرون ألف وسيلة تافهة لتعويضى عن الوقت الذى كان يضيع على ، فاذا الهدايا ــ من بشخصه (١) . ولم أعرف عبودية أكثر قسوة وإذلالا من هذا ، ولا رأيت له علاجا سوى أن أرفض جميع الهدايا ، كبيرها وصغيرها ، دون ما استثناء لإرضاء أحد !.. ولم يؤد كل هذا

(١) بوليشينيل : شخصية وردت فى خرافات (نابولى) القديمة ، يرتدى صاحبها قبعة ذات قرنين ، وقد تضخم جسمه من أمام ومن خلف ، وله أنف كمنقار الدجاجة ، وصوت أجش حاد ينطلق فى خفة (أخننة) .. وهو رجل شرس ، صاخب ، عربيد ، مشاكس .

إلا إلى اجتذاب واهبى الهــدايا ، الذين كانوا يطمعون فى أن يحظوا بفخر التغلب على صدودى ، وأن يدينــونى بفضلهم بالرغم منى . وكم من امرىء كان يضن على بــ « إيكو » واحد ــ لو أننى طلبته ــ ولكنه راح يضايقنى بعطاياه دون انقطاع، وهو يتهمنى بالغطرسة والكبر ، ليثأر لنفسه من رفضى !

ولا بد أن القارىء قد حدس أن القرار الذى كنت قد اتخذته، والنهج الذى رغبت فى انتهاجه ، لم يصادفا هوى لدى السيدة لوفاسير . ولم يفلح كل ما كان لدى ابنتها من تجرد من النفع الذاتى ، فى أن يمنع هذه الابنة من أن تنساق لتوجيهات أمها ، ومن ثم فان « الدادتين »(١) ــ كما اعتاد جوفكور أن يسميهما ــ لم تكونا حازمتين دائما مثلى فى رفض الهدايا ، من ناحيتهما، ومع أن كثيرا من الأشياء كانت توارى عنى ، إلا أننى رأيت ما كان كافيا لأن يقنعنى بأننى لم أر كل شىء !.. وقد عذبنى هذا ، لا خشية أن أتهم بالتواطؤ معهما ــ وهو ما تنبأت بأننى ملاقيه عما قريب ــ وإنما بسبب الفكرة القاسية التى أوحى بها عجزى من أن أكون صاحب السلطان فى بيتى ، وعلى نفسى !

.. ولقد رجوت ، وتوسلت ، وغضبت .. دون جدوى !.. ولقد صورتنى الأم فى صورة المتذمر الأبدى التأنيب والتوبيخ ، ورمتنى بأننى مشاكس شرس .. وكانت لا تفتــأ تتهامس مع أصدقائى .. كان كل شىء فى بيتى محوطا بالغموض والأسرار ،

(١) الواقع أن التعبير الدارج « دادة » أدق من « مربية » فى أداء المعنى هنــا .

ولكنى ـ اتقاء للتعرض للعواصف دون انقطاع ـ لم اعد اجرؤ
على الاستفسار عما كان يجرى . ولقد كان التخلص من هذا
الازعاج يتطلب حزما لم اكن املكه ، إذ اننى كنت أعرف كيف
أصيح ، ولكننى كنت لا ادرى كيف اقرن الصياح بالعمل ..
فتركت أصيح ، وظل كل شىء ماضيا فى مجراه ؟

هذه المزعجات المستمرة ، وهذه المضايقات اليومية التى
كنت فريسة لها ، جعلت ـ فى النهاية ـ مسكنى ومقامى فى
باريس من أبغض الأمور . وكنت إذا ما سمحت لى صحتى
بالخروج ، وإذا لم انسق إلى هنا أو إلى هناك تحت إغراء
معارفى ، أتمشى وحيدا ، وأنا أحلم بخطتى العظيمة فى الحياة.
وكنت أسطر بعض الخواطر ، مستعينا بمفكرة بيضاء وقلم من
الرصاص اعتدت أن احتفظ بهما فى جيبى . وهكذا دفعت بى
المضايقات الخفية لحال اخترتها لنفسى ، إلى مهنة الأدب
نهائيا ، فقد رحت الوذ بها فرارا من تلك المضايقات . وهذا هو
السر فى أننى بثثت كل مؤلفاتى الأولى ، المرارة والضيق اللذين
دفعانى إلى أن اشغل نفسى بكتابتها .

وهناك عامل آخر ساهم فى ذلك .. فاننى حين اقحمت ـ
بالرغم منى ـ فى المجتمع ، دون أن أوتى طباعه . أو أن أكون
على استعداد لأن اكتسبها، قررت أن اتخذ لنفسى طباعا خاصة
تغنينى . وإذ كانت حماقتى وحيائى الممض ـ اللذين عجزت
عن مغالبتهما ـ صادرين أصلا عن الخوف من أن تعوزنى آداب
اللياقة ، فقد رأيت ـ لكى أشجع نفسى ـ أن أدوس تلك الآداب
تحت قدمى . وأحالنى الحياء إلى هجاء مقذع لاذع ، وحرصت

على أن ازدرى آداب اللياقة التى لم اتعلم كيف أمارسها . ومن
الصحيح أن هذه الغلطة تمشت مع مبادئى الجديدة ، فاذا بها
تكتسب سموا فى عقلى ، وتتخذ مظهر الجراة المنبثقة عن
الفضيلة .. واستطيع أن اذهب إلى القول بأنها بهذا الشكل
الجليل ، استطاعت أن تصمد خيرا ـ ولأمد أطول ـ مما كان
مرتقبا ، بطبيعة الحال ، لجهد مناقض لسجيتى إلى هذا الحد،
ومع ذلك فاننى كنت أسىء دائما الاحتفاظ بشخصيتى ، فيما
بينى وبين نفسى ـ بوجه خاص ـ بالرغم مما ذاع عنى فى
المجتمع من نفور من البشر ، أوحى به مظهرى الخارجى وبعض
الكلمات التى تنم عن ذلك !.. وإذ راح أصدقائى ومعارفى
يقدرون هذا الدب الوحشى وكأنه حمل ، وإذ راحوا يحدون من
سخرياتهم فيقصرونها على الحقائق القاسية ، العامة ، فاننى
لم اكن املك قط أن اقول كلمة مجاملة واحدة ، لأى امرىء
كان !

* * *

وادت قصة « خراف القرية » إلى تألقى فى المجتمع ، فلم
يعد فى باريس رجل مرموق فوق ما كنت أنا . ويرتبط تاريخ
هذه القصة ـ التى تمثل فترة من حياتى ـ بعلاقات كنت قد
أنشأتها فى ذاك الحين . وهذه تفصيلات أرى واجبا على أن
اتناولها ، لكى تفهم القصة حق الفهم .

كان لى عدد كبير جدا من المعارف ، بيد اننى لم اصطف منهم
سوى صديقين ، هما « ديدرو » و « جريم » . ونظرا لما اوتيت
من رغبة فى أن أجمع بين كل أولئك الأعزاء لدى ، من أصدقائى

الوثيقة لكل منهما ، لم تدع مناصا من أن يصـبح كل منهمـا صديقا حيماللآخر ، إذ أننى جمعتهما معا، فاذا بهما ينسجمان، وسرعان ما غدا كل منهما أوثق صلة بالآخر منه بى انا . وكان لديدرو معارف لا حصر لهم ، أما « جريم » ، فقد كان يشتهى المعارف ، إذ كان أجنبيا وحديث عهد بالبلاد . ولم اكن أطمع فى اكثر من أن أوفر له هؤلاء المعارف . فاتحت له صـداقة ديدرو ، وصداقة جوفكور .. واصطحبته إلى دار السـيدة دى شينونسو ، ودار السيدة ديبيناى ، ودار البارون دولباخ، الذى وجدتنى مرتبطا به على الرغم منى تقريبا !.. وغدا كل أصدقائى أصدقاء له . وكان هذا الأمر غاية فى السهولة، ولكن احدا من أصدقائه لم يصبح يوما صديقا لى ! .. وإليكم ما كان يحول دون ذلك :

لما كان جـريم يقيم فى بيت الكونت دى فرييز ، فانه كان يدعونا إلى الغداء هناك أحيانا . ولكننى لم اتلق قط اى دليـل على الود أو اللطف من الكونت دى فرييز ، أو الـكونت دى شومبيرج ــ قريبه الذى كان وثيق الألفة بجريم ــ أو من اى شخص آخر ، ذكرا كان أو انثى ، ممن كانت لجريم بهم علاقة، عن طريق هذين السـيدين . وكان الوحيد المستثنى منهم ، هو الراهب « راينال » الذى اثبت انه صديق لى ، وإن كان صديقا له ، والذى اعتاد أن يقدم كيس نقوده لى ــ إذا دعت الحاجة ــ فى كرم غير مألوف . على أننى كنت أعرف الراهب راينال قبل أن يعرفه جريم نفسه بوقت طويل ، وكنت أميـل

إليه دائما ، عقب تصرف مفعم بالرقة واللياقـة أسداه إلى فى مناسبة طفيفة القيمة ، ولكنى لم أنسها البتة .

كان هذا الأب راينال صديقا حميما بالتأكيد . ولقد تسنى لى الدليل على ذلك ، حوالى الوقت الذى انا بصدده تقريبا ، وفى أمر يتعلق بجريم ذاته ، إذ كان على علاقة وثيقـة به . فلقد ظل « جريم » بعض الوقت على صداقة خالصة بالآنسة « فيل » ، ثم إذا به فجأة يغدو عاشقا مدلها فى هواها ، وان ينتزعها من « كاهوساك » . ولكن الحسناء طردت هذا المتيم الجديد ، وهى تفخر بوفائها ، فحمل الشاب الأمر محملا أليما، حتى انه فكر فى الموت . وما لبث أن وقع بغتة فريسة لأغرب مرض سمع به امرؤ . فقد راح يقضى نهاره وليله فى غيبوبة ، تظل خلالها عيناه مفتوحتين ، ونبضه منتظما ، ولكن .. بلا كلام ، ولا طعام ، ولا حركة .. وكان يبدو احيانا ما ينم عن أنه كان يسمع ، بيد أنه لم يكن يجيب إطلاقا ، ولو بالإشارة ! .. وكان ــ إلى جانب ذلك ــ غير منفعل، ولا متألم، ولا محموم .. وكان يبقى على هذه الحال ، وكأنه ميت !. وتشـاطرت والراهب راينال رعايته ، فكان الراهب ــ نظرا لتفوقه على فى متانة البنيان وقوة البدن ــ يسهر الليالى ، بينما كنت أعنى به فى النهار . وكنا لا نفارقه إطلاقا ، فلا يبرحه أى منا حتى يصل الآخر . وجزع الكونت دى فرييز ، فأحضر له « سيناك » الذى قال ــ بعد أن فحصه فحصا دقيقا ــ ألا علة هنـاك ، ولم يصف له دواء . وكان إشفاقى على صديقى قد حملنى على أن اراقب بإنعام محيا الطبيب ، فلمحته يبتسم وهو يغادر المكان .



«وكنا لا نفارقه اطلاقا ، فلا يبرحه اىّ منا حتى يصل الآخر»

ومع ذلك فان المريض ظل أياما عديدة دون حراك ، ودون أن يتناول حساء او أى شىء ، اللهم إلا بعض الكريز المحفوظ ، الذى كنت أضعه على لسانه بين آن وآخر ، والذى كان يزدرده فى لهفة . وفى ذات صباح بديع ، استيقظ جريم ، وارتدى ثيابه، واستأنف حياته العادية ، دون أن يحدثنى قط ، أو يحدث الراهب - فيما علمت - أو يحدث أى مخلوق عن هذه الغيبوبة العجيبة ، ولا عن العناية التى أوليناه إياها طيلة استمرارها !

ولم يمر هذا الحادث دون ضجة ، فقد كان من الموضوعات العجيبة حقا ، أن تؤدى قسوة احدى غانيات الأوبرا ، إلى ان يموت رجل لفرط اليأس !.. واذاعت هذه العاطفة الرائعة صيت « جريم » فى المجتمع ، حتى لقد اشتهر بأنه معجزة الحب ، والصداقة ، والوفاء ، فى كافة الاعتبارات . وجعلته هذه الفكرة مرموقا ، ومكرما لدى المجتمع الراقى . وبهذا تباعد عنى ، أنا الذى لم أكن بالنسبة له أكثر من تكأة او أداة!..

ورأيت أنه على وشك أن يغدو غريبا عنى ، فأحزننى ذلك ، إذ أن كل المشاعر المضطرمة التى كان يتظاهر بها ، كانت عين المشاعر التى خالجتنى نحوه ، دون أن أتظاهر بها . ولقد كنت مغتبطا لنجاحه فى المجتمع ، ولكننى لم اكن احب له ان ينسى أصدقاءه فى غمرة هذا النجاح . ولقد قلت له يوما : « إنك لتهملنى يا جريم ، وإنى لاغفر لك ذلك . فإذا ما انتهى مفعول النشوة الأولى لهذا النجاح المدوى ، وشرعت تتبين أنه فارغ ، فانى آمل أن تعود إلى ، ولسوف تجدنى دواما كما عهدتنى . أما فى الآونة الحاضرة ، فلا تضايق نفسك ، فسوف أدعك تفعل

ما يحلو لك ، وسوف انتظرك » . وقال لى إننى كنت على حق ودبر خطته على هذا النسق ، وانطلق فى طريقه إلى نهاية الشوط ، حتى أننى لم أعد أراه إلا مع الأصدقاء المشتركين لكلينا !

وكانت دار البارون دولباخ هى ملتقانا الرئيسى ، قبل أن يرتبط بمدام ديبيناى ارتباطا وثيقا . وكان البارون المذكور ابنا لرجل عصامى وقد أوتى ثروة عظيمة جدا ، فاستغلها استغلالا نبيلا ، وفتح داره لأهل الأدب والفضل ، واستطاع بتنوره ومعرفته أن يملأ مكانه بينهم . وإذ كان على علاقة بديدرو منذ أمد طويل ، فقد سعى عن طريقه إلى التعرف بى، قبل أن يغدو اسمى معروفا . وصدنى نفور طبيعى عن أن أستجيب لتقربه فترة طويلة . وقد سألنى عن السبب ذات يوم ، فقلت له : «إنك واسع الثراء». ولكنه الح فى طلب ودى، واستطاع أن يتغلب على توجسى فى النهاية . لقد كانت نكبتى الكبرى دائما ، هى عجزى عن مقاومة الاطراء واللطف ، وما وجدتنى يوما أتخلى عن هذه الشيمة !

* * *

ومن حالات التعارف التى تحولت إلى صداقة بمجرد أن وجدت من حقى أن أنشدها ، معرفتى بالسيد ديكلو . ولقد انقضت عدة سنوات مذ رأيته ـ للمرة الأولى ـ فى (لاشيفريت)، لدى السيدة ديبيناى ، التى كان على صلات طيبة بها . ولم نحظ بأكثر من أن تناولنا الغداء معا ، ثم رحل فى اليوم ذاته .

ولكننا وجدنا الفرصة لتبادل الحديث فترة بعد الغداء . وكانت السيدة ديبيناى قد حدثته عنى وعن أوبراى « عرائس الشعر اللطاف » . وكان « ديكلو » ذا مواهب عظيمة ، أسمى من أن تجعله يصدف عن حب الموهوبين ، ومن ثم فقد مال إلى ، ودعانى إلى زيارته . وبالرغم من ميلى القديم(١) ، الذى عززته المعرفة ، فإن حيائى وكسلى ظلا يعوقاننى طويلا، حتى لم يبق ثمة ما يقربنى إليه سوى لطفه وحفاوته . على أننى تشجعت بنجاحى الأول(٢) وبما بلغنىمن إطرائه هذا النجاح ، فقمت بزيارته ، وجاء لزيارتى ، وهكذا بدات بيننا روابط ستظل تجعلنى أعتز به دائما ، وإليها ـ وإلى شهادة قلبى الصادق ـ أدين بمعرفة أن الاستقامة والوفاء ، قد تقترن أحيانا بالثقافة الأدبية !

ولقد كانت كثير من علاقاتى ـ التى تقل متانة عما ذكرت ، والتى أتجاوز عن ذكراها هنا ـ نتيجة مرات نجاحى الأولى ، وقد دامت إلى أن قدر لفضول أصحابها أن يرتوى . فلقد كانت نفسى تتكشف على حقيقتها سريعا ، فلا يعود ثمة جديد يرى فيها بعد اليوم الأول للتعارف ! .. على أن من النساء اللائى سعين إلى التعرف بى فى تلك الآونة ، امرأة صارت أقوى صلة بى من سواها . تلك هى السيدة المركيزة دى كريكى ،

---

(١) ميله الى كل من يبدى له اللطف والاطراء.

(٢) نجاح رسالة فى فوائد العلوم الحديثة

ابنة أخ السيد « لوباييلى دى فرولاى » ، الذى كان سفيرا لفرنسا فى (مالطة) وكان أخوها سلفا للسيد دى مونتيجى فى السفارة الفرنسية فى (البندقية) ، وزرته عقب عودتى من تلك المدينة .. ولقد كتبت السيدة دى كريكى إلى ، فذهبت لزيارتها .. واستقبلتنى فى مودة ، وتناولت الغداء لديها بضع مرات ، وقابلت لديها كثيرا من الأدباء .. منهم السيد سوران ــ مؤلف « سبارتاكوس » و « بارنيفلت » وغيرهما ــ الذى أصبح من ذلك الحين الد اعدائى ، لغير ما سبب استطيع أن أتصوره ، سوى أننى احمل اسم رجل كان ابوه قد اضطهده بخسة وظلم .

ويرى من هذا ، أننى ــ كناسخ كان ينبغى أن يشغل بمهنته من الصباح إلى المساء ــ كنت أصادف كثيرا من الشواغل التى كانت تعوق عملى اليومى عن أن يكون جد مربح، وكانت تمنعنى من أن أعنى العناية الواجبة بما كان مصدرا لرزقى . وكنت أضيع أكثر من نصف الوقت المتبقى لى ، فى محو او كشط الأخطاء التى كنت ارتكبها فيما أنسخ ، أو فى إعادة كتابته من جديد . وقد أدى هذا الازعاج إلى أن أصبحت لا أطيق باريس يوما بعد يوم ، وإلى حملى على أن أنشد الريف برغبة قوية . فذهبت عدة مرات لأقضى أياما فى (ماركوسى) ، التى كانت مدام لوفاسير على معرفة بأسقفها .. وقد استطعنا أن ندبر الأمر بحيث أنه لم يجد أى ضير فى مقامنا فى داره .. ولقد ذهب

معنا « جريم » مرة إلى هناك(١) . وكان الأسقف ذا صوت رخيم ، كما كان يجيد الغناء ، ومع أنه لم يكن ملما بالموسيقى، إلا أنه كان يستطيع أن يحفظ دوره بدقة . ومن ثم فقد قضينا الوقت فى ترديد الأغانى الثلاثية التى كنت قد وضعتها فى (شينونسو) ، كما لحنت اغنيتين أو ثلاثا جديدة ، وضع « جريم » والأسقف كلماتها بقدر ما وسعهما . ولست أملك أن أمنع نفسى عن التحسر على تلك الأغانى الثلاثية التى وضعت فى لحظات مفعمة بالغبطة الخالصة ، والتى تركتها فى (فوتون ومعها جميع قطعى الموسيقية . ولعل الآنسة دافنبورت قد اتخذت منها أشرطة ورقية للف شعرها .. على أنها كانت جديرة بأن تصان ، فقد كانت ــ فى الغالب ــ دقيقة الوزن . وحدث بعد إحدى هذه الرحلات القصيرة ــ وقد اغتبطت لرؤية « العمة » منشرحة مسرورة ، كما كنت أنا الآخر مبتهجا ــ أن كتبت إلى الأسقف خطابا شعريا ، نظمته فى عجلة وفى غير عناية .. وسيوجد بين أوراقى .

* * *

(١) أضاف « روسو » الى هذا ، الاستدراك التالى : « لما كنت قد اغفلت هنا ذكر حادث تافه ، ولكنه جدير بالذكر ، وقع لى مع « جريم » المذكور ذات صباح ، وقد اعتزمنا تناول الغداء عند عين (سان فاندريل) ، فاننى لن أعود الى هذا الحادث . ولكننى حين فكرت فيه ــ فيما بعد ــ استنتجت ان جريم كان يبيت النية فى قرارة قلبه ــ منذ ذلك الحين ــ على المؤامرة التى نفذها فيما بعد بنجاح رائع » !

وكان لى ـ فى مكان أكثر قربا من باريس ـ ملاذ آخر يلائم مزاجى .. تلك هى دار السيد « موسار » ، مواطنى وقريبى وصديقى ، الذى أعد لنفسه مأوى فاتنا فى (باسى) ، قضيت فيه كثيرا من اللحظات الوادعة . وكان السيد موسار تاجر مجوهرات ، وكان رجلا سليم الذوق ، جمع من حرفته ثروة طيبة ، وزوج ابنته الوحيدة من السيد دى فالماليت ـ ابن صراف ومدير فندق الملك ـ ثم استقر رأيه الحكيم على أن يهجر فى أيام شيخوخته التجارة والعمل ، لينعم بالراحة والاستجمام فترة من الزمن ، بين هموم الحياة ونهاية الأجل . وكان « موسار » الطيب فيلسوفا عمليا حقا ، فكان يعيش بلا هموم ، فى دار بديعة ابتناها لنفسه ، وفى حديقة غناء زرعها بيديه . وفيما كان يحفر قنوات أحواض هذه الحديقة ، عثر على قواقع متحجرة ، ووجدها بكميات كبيرة إلى درجة أن خياله المتوثب لم يعد يرى فى الطبيعة سوى قواقع ، حتى انتهى أخيرا إلى الإيمان الجازم بأن الكون لم يكن غير قواقع! .. وأصبح لا يفكر دائما إلا فى هذا الأمر ، وفى اكتشافه الفذ ، حتى أهاجته هذه الأفكار ، وأوشكت ـ فى النهاية ـ أن تتخذ فى رأسه شكل نظرية ـ أعنى خبلا ـ لولا أن الموت تدخل فى الأمر ـ لحسن حظ عقله ، ولسوء حظ أصدقائه الذين كانوا يعتزون به ، ويجدون فى داره أبدع مأوى ـ فانتزعه من بينهم ، متوسلا بأغرب وأقسى مرض .. ذاك هو تورم فى معدته ، كان دائم التضخم ، وكان يحرمه من الأكل ، دون أن يتبدى سببه برغم طول العهد به ، ثم انتهى بموته جوعا ، بعد سنوات عديدة من العذاب ! .. ولست أملك أن استرجع نهاية عمر هذا الرجل ،

دون أن ينقبض فؤادى . فقد ظل يستقبلنا ـ « لينيب » وأنا ـ بسرور عارم .. وكنا الصديقين الوحيدين اللذين لم يحملهما منظر الآلام التى كان يعانيها ، على أن ينأيا عنه إلى آخر ساعة فى حياته .. وإنى لأذكر أنه لم يكن إذ ذاك ليقوى على التهام الطعام ـ الذى اعتاد أن يأمر بتقديمه إلينا ـ إلا بعينيه ، ولا كان يطيق ابتلاع بضع قطرات من الشاى الخفيف ، إلا ليلفظها فى اللحظة التالية ! .. ولكن كم من أوقات ـ قبل تلك الآلام ـ قضيتها فى داره مسرورا ، مع النخبة التى اصطفاها من الأصدقاء ! .. وإنى لأضع على رأس هؤلاء الراهب « بريفو »(١) ، وكان شخصا لطيفا ، سلسا ، يستلهم قلبه ما كان يكتب من أشياء جديرة بالخلود ، ولا يبدى ـ سواء فى مظهره أو فى معشره ـ شيئا من ذلك الجو القاتم الذى فرضه على مؤلفاته .. والطبيب « بروكوب » ، وكان « يعسوب صغيرا(٢) ، ذا حظوة لدى النساء، و «بولانجيه» المؤلف المزعوم للتمثيلية الموسيقية الهزلية « الاستبداد الشرقى » ، وقد عمد فيما أعتقد ـ إلى التوسع فى نظريات « موسار » عن مدى عمر الدنيا .. أما بين النساء ، فأذكر السيدة « دنيس » ابنة أخت « فولتير » ، التى كانت ـ إذ ذاك ـ طيبة ساذجة ، ولم تكن

---

(١) اشتهر باسم « الأب بريفو » ، واسمه الأصلى « بريفو ديكسيل » . وهو مؤلف قصة « مانون ليسكو » الخالدة ، وقد ولد فى سنة ١٦٩٧ ومات فى سنة ١٧٦٣

(٢) يعسوب : شخصية أسطورية اغريقية ، وإن كان هيرودوت يقول أنه شخصية حقيقية ، وقد عاش فى مصر واشتهر بالرحلات والأدب .

قد زعمت لنفسها شيئا من توقد الفكر .. والسيدة « فانلو » التى لم تكن جميلة حقا ، ولكنها كانت فاتنة ، وكانت فى غنائها كالملاك .. والسيدة « فالماليت » التى كانت تحذق الغناء هى الأخرى ، والتى كانت ــ برغم هزالها ــ بالغة اللطف لو أنها خففت من تظاهرها باللطف !! .. هؤلاء كانوا صفوة رواد ندوة السيد موسار ــ تقريبا ــ وقد كانت صحبتهم خليقة بأن تلذ لى ، لولا أن نظرياته عن القواقع كانت ألذ ، حتى لأذهب إلى القول بأننى عكفت لستة أشهر على العمل فى مكتبه ، فى دراسة هذه النظرية ، باغتباط لم يكن يقل عن اغتباطه !

وكان يلح ــ من زمن طويل قبل ذاك ــ بأن مياه (باسى) كانت كفيلة بأن تصلح حالى الصحية ، وكان يلحف فى أن أتردد على داره لكى أتناولها . وقد انصعت أخيرا له لكى أنتزع نفسى ــ بعض الوقت ــ من ضجيج المدينة ، فقضيت فى (باسى) ثمانية أيام أو عشرة ، أفدت منها كل الفائدة ، بفضل إقامتى فى الريف ، أكثر مما هو بفضل تناول تلك المياه . وكان «موسار» يهوى العزف على الكمان الكبيرة ، ويشغف بالموسيقى الإيطالية . وفى ذات مساء ، أطلنا الحديث ــ قبل أن نأوى إلى مخادعنا ــ فى هذا المجال ، وتكلمنا بوجه خاص عن « أوبرا بوفا » ، التى رآها كل منا على حدة ــ فى إيطاليا ــ والتى أعجب بها كل منا إعجابا بالغا .. ولم أنم فى تلك الليلة ، فشرعت أفكر فى وسيلة تمكننى من أن أتيح فكرة مثل هذا النوع من « الدراما » لفرنسا ، إذ لم يكن ثمة شبه بين « غراميات راجوند » وهذا النوع[1] .

---

(1) كوميدية موسيقية عرضت فى « الأوبرا » الباريسية فى سنة ١٧٤٢

وفى الصباح التالى ، نظمت على عجل بعض نماذج من الشعر ، تتمشى مع هذه الفكرة ــ أثناء ما كنت أتريض وأتناول المياه ــ ونسقتها مع الألحان التى توافدت على رأسى خــلال ذلك . وسطرت جميع هذه الأغانى ، فى « صالون » ذى قبة ، فوق الحديقة . ثم لم أتورع عن أن أعرضها ــ أثناء تناول الشاى ــ على موســـار والآنســـة دوفيرنوا مديرة داره ، التى كانت بالغة الطيبة واللطف حقا . وكانت القطع الثلاث التى نظمتها فى عجلة ، تؤلف الأغنية الفردية الأولى ، وهى : « فقــدت خادمى » ، و « عراف القرية » ، و « الحب يخشى على نفسه » .. ثم الثنائى الأخير : « أبدا لن أخطبك ، يا كولان » ، الخ ! ولم أكن أعول كثيرا على أن هذه المحاولة تستحق عناء المضى فيها . ولولا الاستحسان والتشجيع اللذين لقيتهما من كل منهما ، لكنت خليقا بأن ألقى قصاصاتى إلى النار ، ولا أعود إلى التفكير فيها ، كما فعلت من قبل بقطع أخرى كانت تماثل هــذه ، على الأقل ! .. ومن ثم فقد وجــدتنى متحمسا ، حتى أن « الدراما » اكتملت خلال ستة أيام ، فيما عدا بضعة سطور .. كما أننى وضعت أفكار الموسيقى كلها ، فلم يعد أمامى ما أفعله فى (باريس) ، سوى أن أضيف بعض مقطوعات إلقائية ، وأن أملأ بعض الحواشى . وقد فرغت بسرعة من كل هذه ، فلم تنقض ثلاثة أسابيع ، حتى كانت المناظر قد نسخت ، وأصبحت مهيأة للعرض . ولم يكن ثمة ما ينقصها سوى موسيقى الانتقال من منظر إلى آخــر ، وقد قــدر لها ألا توضع إلا بعــد ذلك بوقت طويل .

سنة ١٧٥٢

اثارنى وضع هذا العمل الأدبى الفنى ، حتى لقد تملكنى شوق عارم إلى سماعه ، وحتى أننى كنت على استعداد لأن أنزل عن كل شىء ، فى سبيل أن أراه معروضا أمامى ــ بالشكل الذى كنت أتمثله فى خيـــالى ــ فى غرفة موصدة ، كما فعلت « لولى » ــ فيما يقال ــ إذ شهدت يوما مسرحية « ارميد » تمثل أمامها وحدها . ولما لم يكن من الميسور لى أن أنعم بهذه المتعة إلا برفقة الجمهور ، فقد كان من الضرورى ، لكى تمثل هذه الأوبرا ، من أن تلقى قبولا فى دار « الأوبرا » . ولكنهـــا ــ لسوء الحظ ــ كانت من نمط جديد كل الجدة ، لم تألفه آذان الجمهور ، كما أن فشل « عرائس الشعر اللطاف » جعلنى أتوقع المصير ذاته للعراف(١) ، إذا أنا قدمتها باسمى . وقد ساعدنى « ديلكو » على الخروج من هذا المأزق ، إذ تكفل بأن يسعى إلى إجراء تجارب على المسرحية ، دون أن يكشف عن اسم المؤلف . ولكى لا أنم عن نفسى ، فاننى لم أحضر التجربة ، وظل كل امرىء ــ حتى « الكمانان الصغيران »(٢) ، اللذان توليا الاخراج ــ يجهلان اسم المؤلف ، إلى أن شهد الاستحسان العام بروعة المسرحية . ولقد فتن كل من ســـمعها ، حتى أن

---

(١) اطلق روسو على هذه « الاوبرا » اسم « عراف القرية » .

(٢) لقب اشتهر به « ربيل » و « فرانكور » اللذان كانا يتوليان الاخراج الموسيقى ، وقيادة الفرقة الموسيقية فى « الاوبرا » . وقد سميا بذلك ، لأنهما اعتادا فى صباهما أن يطوفا بالبيوت ، وهما يعزفان على « الكمان » .

جميع الأوساط لم تتحدث إلا عنها فى اليوم التالى . ولقد شهد السيد كورى ــ مدير حفلات البلاط ــ التجربة ، فطلب المسرحية لتعرض فى البلاط ، ولكن ديلكو ــ الذى كان يعـرف نواياه فخشى أن يكون سلطانى على المسرحية فى البلاط أقل منه فى باريس ــ رفض أن يسلمه إياها ، فعاد كورى يطلبها بحكم منصبه . واحتدم الجدال بينهما ، حتى لقـــد تطور ذات يوم ــ وهما فى « الأوبرا » ــ فأوشكا أن يخرجا ليتبارزا ، لولا أن حيل بينهما .

ورؤى الاتصال بى بشأنها ، ولكنى تركت البت فى ذلك إلى السيد ديكلو ، فكان لابد من الرجوع إليه . وتوسط السيد الدوق دومون فى الأمر ، فرأى ديكلو ــ فى النهاية ــ أن من الواجب النزول عند رغبة صاحب السلطة ، وقدمت المسرحية لتمثل فى (فونتينبلو) . وكان الجزء الذى أوليته أعظم اهتمام، والذى نأيت فيه كثيرا عن النهج المألوف ، هو الإلقاء الغنائى . فقد نسق الالقاء ــ فى أوبراى ــ بطريقة جديدة تماما ، بحيث يتمشى النغم مع إلقاء الكلمات . ولكنهم لم يجسروا على أن يستبقوا هـــذا التجديد ، إذ خيف من أن يصدم الآذان التى ألفت الرتابة . ومن ثم فاننى وافقت على أن يضع « فرانكويى » و « جيليوت » ألحانا جديدة للإلقاء ، ولكننى رفضت أن تكون لى يد فى ذلك .

وإذ تم إعداد كل شىء ، وحدد يوم العرض ، أقترح على أن أرحل إلى (فونتينبلو) لأحضر التجربة الأخيرة ، على الأقل . فذهبت مع الآنسة « فيل » ، وجريم ، والراهب « راينال »

— على ما أظن — فى إحدى العربات الملكية . ولم يكن ثمة بأس بالتجربة ، بل اننى كنت أكثر رضى عنها مما توقعت . وكانت الفرقة الموسيقية قوية ، كثيرة النفر ، مؤلفة من موسيقيى « الأوبرا » والفرقة الملكية . وقام « جيليوت » بدور « كولان » ، والآنسة « فيل » بدور « كوليت » ، و « كوفيتييه » بـدور العراف . وكان المنشدون من « الأوبرا » . ولم أدل بغير ملاحظات قليلة ، فقد تولى « جيليوت » الاخراج ، فلم أشأ أن أفرض سلطانا على ما فعل . وبالرغم من مظهرى الرومانى ، فاننى كنت فى حياء التلميذ إذا الفى نفسه وسط كل هؤلاء القوم !

وفى اليوم التالى — وهو يوم العرض — ذهبت لأتناول الفطور فى مقهى « الجـران كومون » ، فاذا به زاخر بالناس ، وإذا الحديث يدور حول تجربة الليلة السابقة ، وتعذر الدخول إلى المسرح . وقال ضابط من الحضور ، إنه دخل بلا عناء ، وأسهب فى وصف ما حدث داخل المسرح ، كما وصف المؤلف ، وروى ما قاله وما فعله . والذى أذهلنى فى حديثه الطويل — الذى ألقاه فى بساطة واعتداد — أنه لم يضم كلمة واحدة من الحقيقة! .. بل لقد تجلى لى تماما ، أن هذا الذى تكلم عن التجربة بلهجة العالم ، لم يكن حاضرا البتة فقد كان هذا المؤلف — الذى قال إنه رآه كما صوره — حاضرا أمام عينيه ، فلم يتعرف عليه !.. وكان أغرب ما فى هذه الواقعة ، هو الأثر الذى أحدثته فى نفسى . فلقد كان ذلك الرجل كبير السن ، ولم يكن يلوح عليه غرور الخيلاء ، ولا الزهو ، سواء فى مظهره أو لهجته . بل ان

سيماه كانت تنم عن أنه رجل فاضل ، كما كان وسام « صليب سان لوى » — على صدره — يوحى بأنه ضابط قديم . ولقد استأثر باهتمامى بالرغم منى ، وبرغم قحته فى الكذب . وفيما كان يمضى فى أكاذيبه، راح وجهى يتضرج خجلا ، وأخذت أغض بصرى وأتململ فى مجلسى . وكنت أسأل نفسى أحيانا : أليس من الجائز أن يكون قد آمن بكذبه حتى غدا يظنه حقيقة ؟ ! .. وأخيرا ، أسرعت بإفراغ قدح « الشيكولاته » دون أن أنبس ببنت شفة ، وأنا أرتجف خشية أن يتعرف على أحد فيخجله ، ومررت بمجلسه وأنا منكس رأسى ، وغادرت المقهى بأسرع ما استطعت ، بينما كان القوم ماضين فى الحديث عما كان يصفه . ونفذت إلى الطريق وأنا أسبح فى العرق . ولو أن أحدا عرفنى وذكر اسمى قبل خروجى ، فانى أوقن بأننى كنت خليقا بأن أبدى من الخجل والارتباك ما يبديه أى مذنب ، لمجـرد الشعور بالصغار الذى كان الرجل جدير بأن يشـعر به إذا ما افتضحت أكاذيبه !

❊ ❊ ❊

وها أنذا أصل إلى تلك اللحظات الحرجة فى حياتى ، فان من العسير أن أقتصر على مجرد الرواية ، لأنه من المستحيل تقريبا الا تتأثر الرواية بشىء من النقـد أو التبرير . على أننى سأحاول أن أروى كيف تصرفت ، وعن أية بواعث صـدرت فى تصرفاتى ، دون أن أضيف ما ينم عن إطراء أو عن لوم .

ففى ذلك اليوم المقصود ، بدوت فى نفس الزى المهمل الذى ألفته ، وقد نمت لحيتى ، وبدا شعرى [illegible] منسق . وبهذا المظهر الذى نبا عن اللياقة [illegible] الذى كنت أعتبره دليلا

على الشجاعة ، دخلت القاعة التى كان من المنتظر ان يفد عليها الملك والملكة والأسرة الملكية والحاشية بأسرها ، بعد قليل . وتقدمت لأحتل مكانى فى المقصورة التى قادنى إليها السيد دى « كورى » .. وكانت هى مقصورته ، مقصورة واسعة .. فى مواجهة مقصورة أخرى ، أصغر منها حجما ، وأكثر ارتفاعا ، جلس فيها الملك والسيدة دى بومبادور . ولم يداخلنى شك فى اننى أجلست كذلك ، لكى أبدو واضحا ، إذ كنت الرجل الوحيد أمام مقصورة الملك ، وقد أحاطت بى السيدات . وعندما أوقدت أضواء المسرح ، وجدتنى — فى ملابسى تلك — وسط قوم فى أوج الأناقة ، فبدأت اشعر بضيق وحرج . وسألت نفسى عما إذا كنت فى المكان اللائق ، وعما إذا كنت فى الثياب اللائقة . وبعد لحظات من الحرج ، أجبت نفسى عن هذا التساؤل فى جراة لعلها انبعثت عن استحالة التراجع ، أكثر مما انبعثت عن قوة حججى : « أجل » !.. وقلت لنفسى : « إننى فى المكان اللائق بى ، ما دمت قد جئت لأشهد تمثيل مسرحيتى .. وإذا كنت فى ثيابى المعتادة ، ولست فى افضل او اقل مما الفت ، فما ذلك إلا لأننى دعيت ، ولأننى الفت هذه الأوبرا لهذا الغرض فحسب ، ولأنه — فوق كل شيء — ليس هناك من يفوقنى جدارة باستمراء ثمار جهدى ومواهبى ولو اننى عدت إلى الخضوع للرأى العام فى أمر واحد ، فسرعان ما سأصبح عبدا للرأى العام — فى كل شيء — من جديد . أما إذا شئت أن اثبت على نهجى ، فمن الواجب الا اخجل — اينما اكون — من أن ارتدى ما يتلاءم مع ظروف الحياة التى اخترتها لنفسى . ان مظهرى الخارجى بسيط وغير متأنق ، ولكنه ليس قذرا ،

ولا مستهجنا . وكذلك اللحية — فى حد ذاتها — ما دامت الطبيعة هى التى تخلعها علينا .. بل إنها مظهر من مظاهر الزينة أحيانا ، كما تتم تطورات مستحدثات الأناقة . وقد يرانى الناس مضحكا ، أو سفيها .. حسنا ، وفيم يهمنى هذا ؟ .. يجب أن أتعلم كيف أعرض عن ضحك الناس أو عن نقدهم ، ما دمت لا استحقهما » !

***

« وشعرت بعد هذه المفاجاة القصيرة بالثقة تعاودنى ، إلى درجة كانت كافية لأن تجعلنى جريئا .. وهو ما كنت بحاجة إليه . على اننى لم أر فى الفضول الذى تعرضت له ، سوى مظهر للأدب والحفاوة ، سواء كان مرد ذلك الرأى إلى تأثير وجود العاهل ، أو إلى التصرف الطبيعى الذى ابداه اولئك الذين احاطت بى قلوبهم .. وشعرت بالتأثر ، حتى اننى بدأت احس بالقلق — من جديد — على نفسى وعلى مصير مسرحيتى ، خشية ان اقضى على ما ربما كان لدى القوم من آراء سابقة — فى صالحى — كان يبدو لى أنه لم يكن ينقصها سوى التصفيق . وكنت قد تذرعت ضد سخريتهم ، ولكن عطفهم — الذى لم اكن اتوقعه — طغى على كل الطغيان ، حتى اننى رحت ارتجف كالطفل ، عندما ابتدأ التمثيل !

وسرعان ما تبينت أن ليس ثمة مبرر للقلق .. كان اداء

المسرحية جد سيء من ناحية الممثلين ، ولكن الغناء كان جيدا ، والموسيقى حسنة الأداء . ومنذ المشهد الأول ـ الذى كان مؤثرا فى بساطته حقا ـ سمعت فى المقصورات تمتمة اندهاش، واستحسانا لم يسمع من قبل فى مثل هذا النوع من التمثيليات. وما لبث التحمس المطرد ان بلغ ذروته ، حتى انه تفشى فى جميع النظارة ، وأن ضوعف أثره بفضل هذا الأثر ذاته ، كما ينبغى أن يقال بأسلوب « مونتسكيو » . وقد بلغ هذا الأثر اوجه فى المشهد الذى دار بين الشخصين الصغيرين الساذجين . ومن المعتاد الا يصفق احد قط ، فى حضور الملك ، وقد ساعد هذا على سماع كل شيء بوضوح ، مما أفاد التمثيلية والمؤلف. وسمعت حولى همسات نساء كن يلحن لى فى جمال الملائكة ، وهن يقلن بعضهن لبعض : « هذا فاتن .. هذا خلاب ! .. ما من نغم هنا إلا وينبثق من القلب ! » . وهزتنى لذة التأثير على كل هؤلاء القوم الراقين ، حتى انطلقت دموعى، فلم أستطع أن أكبحها فى الأغنية الثنائية الأولى ، إذ لاحظت أننى لم أكن الوحيد الذى بكى !.. ومرت بى لحظة ، رجعت فيها إلى نفسى إذ تذكرت الحفلة الموسيقية التى أقيمت بدار السيد دى « تريتوران » . واحدثت هذه الذكرى فى نفسى شعورا كشعور العبد الرقيق الذى كان يرفع التاج فوق رؤوس المظفرين (١) ،

(١) عادة كانت متبعة فى مواكب النصر لدى الرومان .

ولكن هذا الشعور كان قصير الأجل ، إذ اننى سرعان ما استسلمت تماما ـ ودون أى تحفظ ـ لنشوة مذاق مجدى. ومع ذلك فانى أوقن بأن الشهوة الجنسية كانت ـ فى تلك اللحظة ـ اكثر اثرا من غرور المؤلف فى هذه النشوة !.. فمن المؤكد انه لو لم يكن ثمة غير الرجال حضور ، لما تأججت فى نفسى الرغبة الملحة فى أن أتلقى بشفتى الدموع العذبة التى تسببت فى انسيابها !.. ولقد شهدت تمثيليات أثارت من نوبات الاعجاب ما كان اشد مما رأيت فى هذه الليلة ، ولكنى لم أشهد قط نشوة فى مثل تدفق ، وفى مثل بهاء ، وفى مثل تأثير هذه التى استولت تماما على النظارة ، لا سيما وقد كانت هذه أولى المرات التى تعرض فيها المسرحية ، ولا سيما وانها كانت تعرض فى البلاط الملكى . ولا بد أن الذين شهدوها إذ ذاك ، لا يزالون يذكرونها ، فقد كان تأثيرها فذا !

وفى الليلة ذاتها ، أوفد إلى السيد الدوق دومون ، من أنبأنى بان اكون موجودا فى القصر ، فى الساعة الحادية عشرة من الصباح التالى ، وبأنه سيقدمنى إلى الملك . وأضاف السيد دى كورى ـ الذى حمل إلى الرسالة ـ انه من المعتقد أن ثمة اقتراحا بمنحى معاشا ، وأن الملك اراد أن يعلننى بذلك بنفسه! .. فهل مما يصدق أن الليلة ، التى أعقبت يوما بهذا الاشراق ، كانت ليلة هم وحيرة ؟.. كانت أولى أفكارى ، بعد

هذه الخواطر السالفة ، تتمثل فى حاجة ملحة إلى الخروج (١)، كبدتنى فى المساء ذاته عناء كبيرا أثناء التمثيل ، وكان من الممكن ان تعذبنى فى اليوم التالى ، عندما أكون فى بهو الملك أو فى جناحه ، أنتظر بين كل أولئك العظماء مرور الملك ! كان هذا الداء هو السبب الرئيسى الذى حملنى على تجنب الاجتماعات، والذى منعنى من الاطمئنان إلى البقاء فى غرفة مغلقة لدى السيدات . وكان مجرد التفكير فى الموقف الذى قد تقحمنى فيه هذه الضرورة ، كافيا لأن يحرجنى إلى درجة تسلمنى إلى الإغماء ، إن لم يكن إلى فضيحة كنت خليقا بأن أوثر عليها الموت . ولا يدرك الجزع من التعرض لخطر كهذا ، سوى أولئك الذين عرفوا مثل هذه الحال !

ورحت ـ بعد ذلك ـ أتصور نفسى ماثلا أمام الملك ، وأنا أقدم إليه ، فيتنزل ويقف ليحدثنى .. وهنا لا بد من سرعة الخاطر وحضور البديهة للاجابة . أفكان حيائى اللعين ـ الذى اعتاد أن يضايقنى أمام اقل المغمورين ـ ليهجرنى امام ملك فرنسا ؟.. وهل يدعنى أحسن اختيار ما ينبغى أن يقال ، فى التو ؟.. ووددت لو أستطيع ـ دون أن اتخلى عن المظهر واللهجة القاسيين اللذين اعتدت الظهور بهما ـ أن أبدى

(١) يقصد الخروج لقضاء حاجة . ولعلنا نذكر انه كان يتعرض لنوبات يكثر فيها من التبول .

إدراكى للشرف المتاح لى من مثل هذا العاهل العظيم ؟.. كان لابد لى من أن ألف بعض الحقائق الجليلةوالنافعة ، فى غلالة من الثناء الجميل البارع !.. ولكى أتمكن من أن أعد ـ مقدما ـ جوابا موفقا ، كان لابد لى من أن أعرف بالدقة ما يمكن أن يقوله لى الملك .. وكنت واثقا ـ بعد ذلك ـ من أننى لن أستطيع أن أستحضر فى وجوده ما أكون قد اعددته !.. فماذا يكون شأنى ، فى هذه اللحظة ، أمام أعين الحاشية كلها ، إذا افلتت منى ، فى غمرة اضطرابى ، بعض سخافاتى العادية ؟.. لقد روعنى هذا الخطر وأزعجنى ، وجعلنى أرتجف وأنا أعقد العزم على الا اعرض نفسى له ، مهما تكن العواقب ؟

ومن الصحيح أننى فقدت المعاش الذى عرض على بصفة غير رسمية ، ولكنى ـ فى الوقت ذاته ـ نجوت من الجور الذى كان مقدرا أن يفرضه على .. الا وداعا للحقيقة ، وللحرية ، وللشجاعة !.. كيف كنت أجرؤ ـ بعد ذلك ـ على أن اتكلم بحرية ونزاهة ؟.. لم يكن لدى سوى أن اتملق ، أو أن اصمت، لو اننى قبلت هذا المعاش ، ثم ، منذا الذى كان يضمن دفعه إلى ؟.. وأية خطوات كان على أن اتخذها ، وأى أناس كنت مضطرا إلى أن اداهن ؟ .. كان الاحتفاظ بهذا المعاش خليقا بأن يكبدنى أكثر مما يكبدنى الاستغناء عنه من حرص ، وأكثر من الكثير من المضايقات !.. [illegible]

إذ ارفضه إنما اتخذ قرارا ينطبق اشد الانطباق على مبادئى ، واضحى المظهر فى مقابل الواقع . ولقد افضيت إلى جريم بعزمى ، فلم يعارضنى . اما بالنسبة للآخرين . فقد تعللت بصحتى ، ورحلت فى نفس الصباح !

* * *

واثار رحيلى ضجة ، وعيب على بوجه عام . فما كانت حججى لتلقى تقديرا لدى النـــاس جميعا ، وسرعان ما اتهمت بالصلف ، مما ارضى ـــ للتو ـــ غيرة اولئك الذين شعروا بأنهم ما كانوا ليتصرفوا كما تصرفت !.. وفى اليوم التالى ، كتب إلى « جيلوت » خطابا فصل فيه نجاح تمثيليتى ، والشغف الذى ابداه الملك نفسه بها . وقال ان جلالته لم يكف طيلة النهار عن الغناء ، بانكر صوت فى مملكته ، مرددا : « لقد فقدت خادمى ، لقد اضعت كل هنائى ! » .. واردف ان « العراف » ستعرض مرة ثانية بعد اسبوعين ، مما سيعزز امام عيون الجمهور كله النجاح الباهر الذى كلل العرض الأول !

وفيما كنت الج دار السيدة ديبيناى ـــ فى الساعة التاسعة مساء ، بعد يومين ـــ حيث كنت مزمعا ان اتناول العشـــاء ،

رأيت مركبة تعترض طريقى إلى الباب . واشار إلى شخص فى المركبة بأن اصعد إليها ، فصعدت ، وإذا بهـــذا الشخص هو « ديدرو » . وحدثنى عن المعاش فى حرارة ما كنت أتوقعهـــا من فيلســـوف فى مثل هـــذا الموضوع . ولم ير جريمة فى الا اكون راغبا فى ان أقدم إلى الملك ، ولكنه رأى ان عدم اكتراثى للمعاش جريمة منكرة . وقال لى اننى إذا كنت لا اهتم بالمعاش من أجل نفسى ، فليس من حقى ان أكون كذلك من أجل السيدة لوفاسير وابنتها ، فان من واجبى الا احرمهما من اية وسيلة ممكنة وشريفة لتيسير أسباب العيش لهما .. وبما انه لم يكن من الممكن أن يقال ـــ برغم كل شىء ـــ اننى رفضت هذا المعاش ، فقد اصر على ان من الجدير بى أن اطلبه ، وان احصل عليه بأى ثمن ، ما دامت ثمة نية لمنحى إياه . ومع اننى تأثرت لتحمسه ، إلا أننى لم استطع أن اقر مبادئه ، فدار بيننا جدال محتدم حول الموضوع ، كان أول جدال دار بيننا . ولقد كانت كل خلافاتنا ـــ التى اعقبت ذلك ـــ من نفس النوع ، إذ كان يملى على ما كان يزعم أن من الجدير بى أن افعله ، فى حين أننى كنت ارفض فى حزم ، لأننى لم اكن أومن بأنه واجب على !

وكان الوقت متأخرا عندما افترقنا ، فرغبت فى ان اصطحبه للعشاء لدى السيدة ديبيناى ، ولكنه لم يكن راغبا البتـــة .. فبالرغم من أن الجهود التى كانت الرغبة فى الجمع بين أولئك الذين احبهم تدفعنى إلى بذلها من وقت إلى آخر ، فاننى لم

أفلح فى إغرائه على زيارتها .. بل إننى ذهبت إلى أبعد من هذا ، إذ صحبت السيدة إلى بابه ، فرفض أن يفتحه لنا !.. كان يعزف دائما عن لقائها ، ولم يكن يتكلم عنهـا قط ، إلا فى ازدراء بالغ .. وما تآلف الاثنان إلا بعد خلافى مع كل منهما ، وإذ ذاك ، بدأ يتكلم عنها باحترام !

ومنذ ذلك الحين ، لاح أن ديدرو وجريم كانا يحـاولان أن يؤلبا « الدادتين » على ، وان يفهماهما أنهما إذا لم تكونا فى رخاء، فانما كان مرد ذلك إلى سوء نيتى ، وانهما لن تصيبا منى أى خير قط !.. ولقد حاولا أن يحملاهما على هجرى، ووعداهما بأن يحصلا لهما بفضل السيدة ديبيناى على رخصة لبيع الملح، وحانوت لبيع التبغ ، وما لست أدريه كذلك !.. بل انهما رغبا فى أن يستدرجا ديكلو ، كما استدرجا دولباخ ، إلى محالفتهما، ولكن الأول راح يرفض باستمرار . وكانت لدى إذ ذاك بعض ظنون عن هذا التدبير ، ولكننى لم أحط به بجلاء إلا بعد ذلك بزمن طويل . وكثيرا ما أكون على حق إذ أرثى لذلك التحمس الأعمى المتهور من جانب أصدقائى الذين كانوا يسعون إلى الحط من شأنى ـ وانا معلول ، وفى أشد حالات العزلة الكئيبة ـ ظنا منهم أنهم إنما كانوا يبذلون قصاراهم لإسعادى ، بالوسائل التى كانت خير ما يؤدى إلى إتعاسى ، فى الواقع !

سـنة ١٧٥٣

مثلت مسرحية « العراف » فى باريس ، فى عيـد المرافع (الكرنفال) التالى ، أى فى سنة ١٧٥٣ . وكنت قـد وجـدت وقتا كافيا ـ فى تلك الأثناء ـ لوضع لحن الافتتاح والألحان



رأيت مركبة تعترض طريقى الى الباب ، وأشار الى شخص فى المركبة بأن أصعد اليها .

التى تتخلل المشاهد . وكان لا بد لهذه الألحان ــ كما وضعت وكتبت ــ من أن تشيع حركة فى التمثيلية ، من أولها لآخرها ، وأن تجعل منها فى مجموعها ــ فى رأيى ــ لوحات جد مستحبة، ولكننى حين عرضت الفكرة على « الاوبرا » لم ألق مستمعا واحدا ، فاضطررت إلى أن أنسج سلسلة من الأغانى والرقصات، بالطريقة المعتادة. وكانت النتيجة أن هذه الالحان وإن لم تضر بتأثير المشاهد ، إلا أنها لم تلق سوى نجاح متوسط برغم انها كانت زاخرة بالأفكار البديعة . ولقد حذفت الألحان الالقائية التى وضعها « جيليوت » ، وأحللت محلها ألحانا من وضعى ، هى تلك التى كانت موجودة فى الأصل . فاذا بها قد اكتسبت شيئا من الصبغة الفرنسية ــ ، كما أعترف ــ وأقصد بذلك الطريقة التى كان يلقيها بها الممثلون ــ إلا أنها لم تؤذ سمع أحد ، بل انها كانت ناجحة من الناحية الموسيقية ، كما اعتبرت كذلك ــ من ناحية النظم ــ حتى لدى الجمهور . وأهديت التمثيلية إلى السيد « ديكلو » الذى رعاها ، وأعلنت أن هذا سيظل الاهداء الوحيد . على أننى كتبت إهداء لشخص آخر ــ بموافقة السيد « ديكلو » نفسه ــ ومع ذلك فانه ولابد قد وجد أن هذا الاستثناء قد زاده هو تكريما !

•

ولدى عن هذه التمثيلية حكايات كثيرة ، ولكن ثمة أمورا أكثر أهمية لا تدع ضرورة ذكرها وقتا أنفقه فى تلك . على أننى قد أعود إليها يوما ، فى « الملحق » . وإن كنت ــ مع ذلك ــ لن أغفل واقعة معينة قد يكون لها أثر فى كل ما أعقب ذلك من أحداث . فلقد اطلعت ذات يوم ، فى مكتب البارون هولباخ ،

على موسيقاه . وبعد أن شهدت كثيرا من القطع ، قال لى وهو يرينى مجموعة من الألحان على المعزف : « هاك قطع لحنت من أجلى خصيصا ، وهى مليئة بالذوق ، صالحة للغناء ، وليس هناك من عرف بها أو رآها سواى . فخليق بك أن تختار واحدة منها تدسها فى الالحان التى تتخلل مشاهدك ! » .. ولما كان ذهنى زاخرا بموضوعات لألحان و « سيمفونيات » تفوق ما كان بوسعى أن أفيد منه ، فاننى لم أبد كثير احتفال بألحانه . على أنه راح يلح على بحرارة اضطررت معها إلى أن أنتقى إحدى أغانى الرعاة ، فاختصرتها وحورتها إلى قطعة ثلاثية تليق بالمشهد الذى يلج فيه رفاق « كوليت » (1) المسرح . وحدث بعد بضعة أشهر ــ و « العراف » ما تزال تعرض ــ أن ولجت يوما غرفة « جريم » ، وإذا بنفر من الناس يحيطون بمعزفه ، وإذا به هو ينهض عن المعزف فى تعجل ، بمجرد وصولى . واتجه بصرى ــ بحركة آلية ــ إلى حامل « النوتة » الموسيقية، فرأيت مجموعة البارون دولباخ بالذات مفتوحة عند القطعة التى الح على فى أن آخذها ، مؤكدا أنها لن تخرج من يديه قط ! وبعد ذلك ببعض الوقت ، رأيت المجموعة ذاتها مفتوحة ، على معزف السيدة ديبيناى ، فى يوم دعت فيه بعض الأصدقاء إلى ندوة موسيقية فى دارها . ولم يتحدث جريم أو أى شخص آخر عن هذا اللحن ، وما كنت أنا لأقول عنه شيئا ، لو لم يشع بعد قليل ، اننى لم أكن مؤلف « عراف القرية » . ونظرا لأننى لم أكن يوما عازفا ماهرا ، فانى أوقن أنه كان من المحتمل أن

---

(1) بطلة أوبرا « عراف القرية » .

يقال اننى لم اكن اعرف شيئا عن الموسيقى ، لولا « قاموس الموسيقى » الذى كنت قد وضعته(١) .

* * *

ولقد حدث قبل إخراج « عراف القرية » بفترة من الزمن ، ان وصل إلى باريس بعض الممثلين الهزليين الإيطاليين ندعوا إلى التمثيل فى « الاوبرا » دون أن يخطر ببال ما كان مقدرا أن يترتب على ذلك . وإذ كانوا سيىء التمثيل ، وكانت الفرقة الموسيقية إذ ذاك من الجهل بحيث قضت – غير حافلة – على لذة القطع التى كانت تعزفها ، فانهم الحقوا بفن الاوبرا الفرنسية ضررا لم يتسن قط إصلاحه . ذلك لأن الفارق بين هذين النوعين من الموسيقى(٢) ، اللذين كانا يسمعان فى الدار ذاتها ، فى يوم واحد ، فتح الآذان الفرنسية ، فلم تعد تطيق بطء الموسيقى التى اعتادتها ، بعد الوضوح والنشاط اللذين امتازت بهما الموسيقى الإيطالية . فما كاد المهرجون الإيطاليون ينتهون من عرضهم ، حتى كان الناس يبادرون إلى الانصراف . فرؤى أن من الضرورى تغيير نظام العرض ، وإرجاء الممثلين الهزليين إلى النهاية . فعرضت « ايجليه » ، و «بيجماليون» و « الجن »(٣) ، ولكن أيا منها لم تستطع أن تستوى على

(١) ما كنت لأحدس على الاطلاق ، ان هذا سيقال فيما بعد ، برغم وجود « القاموس » !

(٢) موسيقى الأوبرا الفرنسية ، وموسيقى الأوبرا الايطالية .

(٣) Eglé, Pysmalion, Lesylphe

ساقيها . ولم تصمد لمقارنة سوى « عراف القرية » ، إذ قوبلت باستحسان فاق « الوصيفة »(١) الإيطالية ذاتها . وكان ذهنى مليئا – عندما وضعت المشهد الذى بين فصلى تمثيليتى – بألحان تلك المسرحية الايطالية ، فاستعرت بعض أفكار منها . غير أننى كنت أبعد من أن أتوقع أن أنتقد فى هذه الناحية . ولو اننى كنت ممن يسطون على إنتاج الغير ، فكم من سرقات كان يجب أن تتكشف ، وكم كان هناك من المشوقين إلى أن يعنوا بابرازها ! ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، وقد ضاعت هباء كل المحاولات التى بذلت للعثور فى إنتاجى الموسيقى على أتفه أثر من موسيقى سواى .. كما أن كل أغانى كانت تبدو – إذا ما قورنت بالأغانى الأصلية التى كان يزعم أننى أخذتها عنها – جديدة ، جدة الطابع الموسيقى الذى ابتدعته . ولو أن « موندوفيل » أو « رامو » تعرض لمثل هذا الفحص والمقارنة لخرج منه مهلهلا !

ولقد اكتسب الممثلون الهزليون للموسيقى الإيطالية مستمعين جد متحمسين ، فاذا باريس بأسرها تنقسم إلى فريقين ، راحا يتجادلان فى عنف وكأنهما بصدد مسألة متعلقة بالدولة أو بالدين . وكان أقواهما نفوذا ، وأكثرهما عددا ، يتألف من العظماء ، والأغنياء ، والنساء ، ويتشبث بالموسيقى الفرنسية .. أما الآخر – وهو أكثرهما حمية ونشاطا وتحمسا – فكان يتألف من

(١) Serva Padrona ، وهى إحدى التمثيليات التى كانت الفرقة الايطالية تعرضها .

فنانين حقيقيين ، ومن أكفاء ونوابغ . وكانت عصبة تجتمع فى دار « الأوبرا » ، تحت مقصورة الملكة ، بينما كان الفريق الآخر يملأ بقية الصـالة ، ولكنه كان يتخذ مكان اجتماعه الرئيسى ، تحت مقصورة الملك . ومن هنـا جـاء اسما الحزبين الذين اشتهرا فى ذلك الحين : « ركن الملك » ، و « ركن الملـكة » . وأدى الخلاف — إذ احتدم — إلى إصدار منشـورات . فاذا شاء « ركن الملك » أن يهزأ ، سخر منه « النبى الصغير » ، وإذا أقحم نفسـه فى جدال ، أفحمته «رسالة فى الموسيقى الفرنسية» .. وكانت هاتان النشرتان هما الوحيدتان اللتان كتب لهمـا البقاء فى هذه المعركة ، أما النشرات الباقية فقد ماتت .. وكان « جريم » يحرر الأولى ، وأنا أحرر الأخرى !

بيد أن «النبى الصغير» ظلت تنسب إلى طويلا — فى إصرار — برغم إنكارى ، وكانت تحرر بأسلوب فكه ، ولا تجشم محررها أقل عناء .. فى حين أن « رسالة فى الموسيقى » كانت تميل إلى الجد ، وقد أثارت ضدى الأمة بأسرها ، إذ خيـل إليها أنها — ممثلة فى موسيقاها — قد أهينت ! .. وأن وصف الأثر الذى أحدثته هذه النشرة — والذى يفوق ما يصدقه العقل — لجدير بقلم « تاسيتوس » (١) .. وكانت تلك فترة الصراع الأكبر بين البرلمان ورجـال الكهنوت .. وكان البرلـمان قد أوقف عن الاجتماع ، وبلغت فورة السخط ذروتها ، وأخذ كل شىء ينذر

(١) كورنيليوس تاسيتوس ، كاتب ومحام ذاع صيته فى التاريخ الرومانى وقد عاش فيها بين سنتى ٥٥ و ١٢٠ بعد الميلاد وله مؤلفات تاريخية عديدة .

بانفجار وشيك !.. وما أن ظهرت النشرة ، حتى انصرفت الخواطر لتوها عن المعارك الأخرى ، ولم يعد ثمة تفكير فى غير الخطر المحدق بالموسيقى الفرنسية ، ولا عاد ثمة هياج إلا ضدى أنا .. بل انه كان من الشدة بدرجة أن الأمة لم تفق منه أبدا . ففى البلاط ، لم تعد ثمة موازنة إلا بين « الباستيل » والنفى ، وكان من المحتمل التعجيل بأمر القبض على ، لو لم يفلح السيد دى فوبيه فى إيضاح ما فى هذا من تصرف أخرق . وقد يظن القارىء أننى أهرف ، حين يقرأ أن من المحتمل أن هذه النشرة حالت دون قيام ثورة فى الدولة . ومع ذلك فان هـذه الحقيقة واقعة ، لعل باريس بأسرها تشهد بها حتى اليوم ، إذ لم يمض بعد على هذه الواقعة العجيبة خمسة عشر عاما(١) .

* * *

وإذا كانت حريتى لم تصـادر ، فاننى لم أعف من أدنى الإهانات ، بل أن حياتى أصبحت فى خطر . فأعـدت فرقـة موسيقى « الأوبرا » مؤامرة شريفة (!) لاغتيالى أثناء مغادرتى المسرح . وقد نميت إلى ، فلم تزدنى إلا ترددا على «الأوبرا» ، ولم أعرف إلا بعد ذلك بوقت طويل ، أن السيد « انسيلو » — الضابط فى فرقة الفرسان — الذى كان يكن لى مودة ، قـد أفسد مفعول هذه المؤامرة ، إذ دبر حمايتى — عند مبارحتى الأوبرا — دون أن أشعر . وكان أول استغلال لنظام إشراف البلدية على دار الأوبرا ، هو حرمانى من الدخول ، وأن يحدث



(١) كتب روسو هذا الجزء حوالى سنة ١٧٦٨

ذلك بأشد الأساليب المهينة .. أى بمنعى علنا من الدخول بدون « تذكرة » ، بطريقة اضطرتنى إلى ابتياع « تذكرة » فى الشرفة العليا للدار (١) ، لكى اتفادى عار الرجوع دون دخول ، فى ذلك اليوم . وكان الظلم صارخا جدا ، إذ أن الثمن الوحيد الذى تقاضيته عن اوبراى ، عندما نزلت لهم عنها ، هو حق الدخول ــ دون مقابل ــ طيلة العمر . ذلك لأن هذا وإن كان حقا اعتاد أن يحظى به كل المؤلفين ــ ومن ثم فقد كان استحقاقى إياه مضاعفا ــ إلا أننى حرصت على اشتراطه ، بحضور السيد ديكلو . ومن الصحيح أننى تلقيت ــ عن طريق خزانة الاوبرا ــ خمسين « لوى » كمكافأة شرفية لم أطلبها .. وفضلا عن ان هذا المبلغ لم يكن يعادل ما كنت أستحقه وفقا للوائح ، فان دفعه لم يكن ذا صلة البتة بحق الدخول دون مقابل ، الذى طالبت به رسميا ، والذى كان أمرا مستقلا تماما عن الموضوع !

ولقد جمع هذا التصرف بين عدم المساواة والفظاظة الجائرة ، حتى ان الجمهور ــ الذى كان فى أوج عداوته لى ــ لم يحجم عن إبداء استنكاره جهارا وبالاجماع ، وصاح كثيرون ــ ممن كانوا يسبوننى فى الليلة السالفة ــ بأعلى أصواتهم فى دار « الاوبرا » ، بأن من العار أن يحرم من حق الدخول ــ وبهذا الأسلوب ــ مؤلف يستحقه عن جدارة ، بل وله أن يصحب معه شخصين بالمجان ، وهكذا صدق المثل الإيطالى القائل : « يعرف الصديق فى المحنة » .

Ogn'un ama la giustizia in casa d'altrui

(١) ادنى الدرجات فى المسرح .. « اعلى التياترو » .

ولم يكن لدى إزاء هذا سوى قرار واحد ، هو أن أسترد تمثيليتى ما دمت قد حرمت الجزاء المتفق عليه . ومن ثم كتبت إلى السيد دارجنسون ، الذى كان يتولى إدارة « الأوبرا » ، وأرفقت رسالتى بمذكرة لم أكن قد تلقيت عنها ردا ، فظلت المذكرة ــ وكذلك الرسالة ــ دون جواب ودون رسالة . ولقد ظل صمت هذا الرجل الظالم راسخا فى فؤادى ، ولم يساعد على تنمية التقدير الضئيل الذى كنت دائما أحسه نحو شخصيته ونحو مواهبه . وهكذا احتفظت «الأوبرا» بتمثيليتى وسلبتنى الجزاء الذى كنت قد نزلت فى مقابله عن حقوقى فيها . وعندما يحدث هذا العمل من الضعيف نحو القوى ، فانه يعتبر سرقة .. أما إذا حدث من القوى نحو الضعيف فهو ليس سوى انتفاع بما للغير وحسب !

أما الكسب المالى الذى دره هذا العمل الفنى ، فمع أنه لم يرق إلى ربع ما كان يدره على أى مؤلف سواى ، إلا أنه كان ــ بالنسبة إلى ــ من الضخامة بحيث أنه كان كافيا لأن يمكننى من العيش عليه سنوات عدة ، وأن يعوضنى عن عملى فى النسخ ، إذ أن هذا العمل كان كاسدا على الدوام . فلقد نلت مائة «لوى» من الملك ، وخمسين من السيدة دى بومبادور ــ عن عرض التمثيلية فى (البيل فى) ، حيث قامت هى نفسها بدور كولان ــ وخمسين من « الأوبرا » ، وخمسمائة من « بيسو » مقابل نشرها .. أى أن هذا العمل الثانوى ، الذى لم يكلفنى سوى عمل خمسة أسابيع أو ستة ، در على من النقود ــ برغم سوء حظى وبرغم غبائى ــ ما يعادل مادره على كتابى « إميل » ، الذى

استغرق منى عشرين عاما فى التفكير ، وثلاثة فى التأليف ! ..
على أننى دفعت ثمنا غاليا، فى مقابل الكسب المادى الذى اجدته
على هذه التمثيلية .. وقد تمثل هذا الثمن فى المضايقات التى
لا نهاية لها ، والتى ترتبت عليها . إذ كانت هذه التمثيلية بذرة
الاحقاد الخفية الناشئة عن الغيرة ، والتى لم تتكشف إلا بعد
ذلك بوقت طويل ! .. ولم أعد ـ منذ نجاحها ـ أجد من جريم
وديدرو ، أو من أى من الأدباء الذين كنت أعرفهم ـ فيما عدا
القليل ـ الحفاوة والصراحة وحسن المعاشرة التى كنت
أخالنى قد عثرت عليها لديهم من قبل . وأصبحت لا أكاد أظهر
فى دار البارون ، حتى يكف الحديث عن أن يكون عاما ..
ويتجمع القوم فى فرق صغيرة ، ويدور التهامس ، بينما أظل
وحيدا لا أجد من أبادله الحديث .. ولقد تحملت طويلا هذا
الانفضاض عنى، ولما كنت أرى أن السيدة دولباخ ـ التى كانت
لطيفة وحفية ـ قد ظلت تكرم وفادتى باستمرار ، فاننى رحت
أتقبل جفوة زوجها بقدر ما كانت هذه الجفوة محتملة . ولكنه
فى أحد الأيام تحرش بى دون داع ، ودون مبرر ، وفى غلظة
بالغة ، فى حضور ديدرو ، الذى لم ينبس بكلمة .. وفى حضور
مارجنسى ، الذى كثيرا ما أعرب لى ـ منذ ذلك الحين ـ عن
إعجابه بالهدوء والاعتدال اللذين اتسمت بهما إجاباتى ..
وانتهى الأمر إلى أن طردت من منزله بفضل هذه المعاملة المهينة،
فخرجت منه وقد عقدت العزم على ألا أعود إليه إطلاقا .
على أن هذا لم يمنعنى من أن أتحدث بأمانة واحترام عنه وعن
منزله ، فى حين أنه لم يذكرنى دائما إلا بعبارات حاقدة ،
جارحة ، فما وصفنى مرة إلا بـ « خادم المدرسة » الصغير ،

دون أن يملك ـ برغم ذلك ـ أن يعين إساءة واحدة ، أيا كان
نوعها ، بدرت منى نحوه أو نحو أى امرىء كان يهتم بأمره .
وهكذا انتهى إلى أن حقق تنبؤاتى وهواجسى ! .. أما أنا ،
فأعتقد أن أصدقائى المذكورين كانوا على استعداد لأن يغفروا
لى تأليف الكتب ـ وان تكن كتبا رائعة ـ لأن هذا المجد لم يكن
غريبا عنهم . بيد أنهم لم يكونوا يغتفرون لى أن وضعت أوبرا،
ولا أن لقى هذا العمل الأدبى الفنى نجاحا باهرا ، لأن أحدا منهم
لم يكن فى وضع يمكنه من أن ينهج عين هذا النهج ، ولا أن يطمع
فى عين ما نلت من تقدير وتكريم ! .. كان ديكلو وحده هو الذى
سما فوق الغيرة ، بل انه بدا أكثر مودة لى ، واصطحبنى إلى
دار الآنسة « كينول » ، حيث لقيت رعاية ، وانسا ، وملاطفة،
بقدر ما افتقدت فى دار السيد دولباخ !

* * *

وبينما كانت « العراف » تمثل فى « الأوبرا » كان مؤلفها
موضوع مناقشة فى « الكوميدى فرانسيز » ، ولكنه كان أقل
حظا من تمثيليته .. ذلك أننى إذ عجزت ـ خلال سبع أو
ثمانى سنوات ـ عن عرض « نارسيس » فى مسرح الإيطاليين
(أوزيتاليان) ، بغضت هذا المسرح الذى كان ممثلوه يسيئون
أداء المسرحيات الفرنسية . ومن ثم فقد كان حريا بى أن أكون
أشد رغبة فى أن تعرض تمثيليتى فى المسرح الفرنسى ـ الكوميدى
فرانسيز ـ منى فى أن تعرض لدى الإيطاليين . وأفضيت
برغبتى إلى « لانو » الممثل الفكاهى ، الذى كنت قد تعرفت
إليه ، والذى كان معروفا ـ كذلك ـ بأنه رجل فاضل ذو نفوذ.

ولقد أعجب بتمثيليتى الفكهة « نارسيس » ، واخذ على عاتقه ان يعمل على إخراجها دون إعلان اسم مؤلفهـا . وحصل لى ـ فى الوقت ذاته ـ على ترخيص بالدخـول ، دون مقـابل ، سررت به كل السرور ، إذ كنت دواما أوثر المسرح الفرنسى على المسرحين الآخـرين (الأوبرا ، والإيطالى) . واستقبلت التمثيلية باستحسان ، برغم أنهـا قدمت دون ذكر المؤلف .. بيد أن لدى ما يحملنى على أن اعتقـد أن الممثلين ، وكثيرين غيرهم ، لم يكونوا يجهلونه . ولقد قامت الآنستان «جوسان» و « جرانفال » بدورى العاشقين . ومع أن الأداء أسفر عن نقص فى البراعة ، إلا انه ـ بوجه عام ـ لا يمكن أن يوصف بأنه سىء تماما . على أننى دهشت ـ وتأثرت ـ لما تبدى من استغراق الجمهور ، إذ راح يصغى فى صبر وهدوء ، من أول التمثيلية إلى آخرها ، بل وسمح بعرضها مرة ثانية ، دون أن يبدى أية بادرة تنم عن ملل !

أما أنا ، فقد بلغ من ضجرى ـ فى العرض الأول ـ أننى لم أستطيع المكث إلى النهاية . فتركت المسرح وذهبت إلى مقهى (دى بروكوب) ، حيث وجدت « بواسى » وبعض الآخرين، الذين يحتمل أن يكونوا قد ضجروا مثلى . وهنـاك ، اعلنت فشلى بصوت عال ، معترفا فى شجاعة وتواضع بأننى مؤلف التمثيلية ، ومتحدثا عنها بما كان الجميع يرونه فيها . ولقد لقى هذا الاعتراف العلنى من مؤلف تمثيلية رديئة ساقطة ، إعجابا قويا ، حتى انه بدا لى اقل ما يكون إيلاما ! .. كذلك وجدت جزاء لعواطفى الصادقة فى الجراة التى أقدمت بها على

اعترافى . واعتقد أننى ـ فى هذه المناسبة ـ لقيت فى الكلام زهوا يفوق ما كنت خليقـا بأن أجده من حيـاء زائف لو اننى لذت بالصمت ! .. على أننى ـ إذ تبينت أن لا شك هناك فى أن التمثيلية قد تروق كمادة للمطالعة ، وإن كان التمثيل قد شوهها ـ عملت على طبعها ، وبدأت فى المقدمة ـ التى كانت من خير ما كتبت ـ اكشف عن مبادئى فى صراحة تفوق قليـلا كل ما فعلت من قبل .

وسرعان ما سنحت لى فرصة الإقدام ـ فى غير ما تحفظ ـ على عرض هذه المبادىء فى مؤلف أدبى عظيم الأهمية . فقـد حدث فى ذلك العام (١٧٥٣) ـ على ما اظن ـ ان اتخذ محفل ديجون من موضوع « منشـأ عدم المساواة بين البشر » مادة لبرنامج مسابقته . وهزنى هذا الموضـوع العظيم ، وأذهلنى أن جرؤ المحفل على عرضه للمباراة . على أنه إذا كان قـد أوتى هذه الشجاعة ، فقد رأيت أن بوسعى أن أوتى الشجاعة على الخوض فيه .. وشرعت فى ذلك .

❊ ❊ ❊

ولكى أفكر فى هذا الموضوع العظيم ، وأنا مرتاح الخاطر ، قمت برحلة إلى (سـان جيرمين) ، حيث قضيت سـبعة أيام أو ثمانية ، مع تيريز ومضيفتنا ـ التى كانت امـرأة طيبة ـ وإحدى صديقاتها . وانى لأحسب هذه النزهة بين أحب ما قمت به من نزهات فى حياتى .. وكان الجو جميلا ، وقـد اضطلعت هاتان المرأتان الطيبتان بالمطالب والنفقات . وراحت تريز تتسلى بصحبتهما . أما أنا، فقد خلوت من الشواغل، ورحت أشاطرهن

ابتهاجهن فى أويقات الوجبـات ، متخففا من كل هم . وكنت أقضى بقية النهار موغلا فى الغابة ، حيث أخذت ابحث ، وحيث وجدت صورة العصور الأولى ، فرحت أتعقب التاريخ خلالها فى جراة ، مهونا من شأن أكاذيب البشر التافهة .. وتجاسرت على أن أكشف طبيعتهم ، وأتعقب سير الزمن والأشـياء التى شوهت هذه الطبيعة .. وبالمقارنة بين الإنسان ـ كما صنعه الإنسان ـ والإنسان كما صنعته الطبيعة ، كشفت له ـ فى كماله المزعوم ـ عن المصدر الحقيقى لمصـائبه وشـقائه . وارتفعت روحى ـ وقد انتشت بهذه التأملات السامية ـ إلى مقربة من مقام الربوبية ، فأطلت من هناك على أقرانى من أبناء البشر ، وهم يسيرون عميانا فى طريق الأباطيل والأوهام ، وطريق أخطائهم ، ومحنهم ، وجرائمهم .. ورحت أصيح بصوت واهن ما كانوا ليستطيعون أن يسمعوه : « أيها الحمقى ، الذين لا يكفون عن الشكوى من الطبيعة ، ألا اعلموا أن كل مساوئكم إنما تنبثق منكم ! » .

وكانت نتيجة هذه التأملات : « حديث فى عدم المساواة » ، وهو مقال صادف هوى من نفس ديدرو ، فاق كل ما صادفته كتاباتى الأخرى ، وقد أولانى نصيحة بشـأنه ، كانت أنفع النصائح[1] ، ولكنها لم تجد فى أوربا كلها من القراء من أدركها

(١) علق « روسو » على هذا ، بقوله : « لم يكن لدى ـ فى الوقت الذى كتبت فيه هذا ـ اى حدس عن مؤامرة ديدرو وجريم الكبرى ، والا لكنت قد رايت بسهولة كيف استغل الأول ثقتى ، لكى يخلع على كتاباتى هذا الأسلوب =

سوى قليلين ، ولم يشأ واحد من هؤلاء أن يتكلم عنها ! .. وكان المقال قد كتب من اجل المسابقة ، فأرسلته وأنا واثق ـ سلفا ـ بأنه لن يفوز بنجاح ، إذ كنت أعرف عن يقين أن جوائز المحافل لم تخلق للأعمال الأدبية التى من هذا النوع !

وأدت هذه النزهة وهذا الشـاغل إلى تحسـن مزاجى وصحتى . إذ كنت منذ عدة سنوات معذبا باحتباس البول ، وقد استسلمت نهائيا للأطباء ، فاستنزفوا قواى ـ دون أن يخففوا علتى ـ وهدموا بنيتى . ولكنى عندما عدت من (سان جيرمين) وجدت مزيدا من القوى ، وشعرت بكثير من التحسن . وتبعت هذه البادرة ، فعقدت العزم على أن أشفى أو أن أموت دون معونة الأطباء أو العقاقير . وودعتهم إلى الأبد ، وشرعت أعيش ليومى ، أستريح عندما أعجز عن المشى ، وأسير بمجرد أن أملك القدرة على السير . وكانت الحياة فى باريس ، بين قوم أدعياء محبين للمظاهر ، لا تروق لى .. كان تعصب الأدباء

= الجاف ، وهذا الجو القاتم اللذين لم يستمرا بعد أن توقف عن توجيهى .. فالجزء الخاص بالفيلسوف الذى سد أذنيه ـ خلال احدى نقاط الجدل ـ حتى يكتسب صلابة دون أنات رجل فى محنة ، من اسلوب ديدرو ، وقد أمدنى بكثير غير هذا الجزء ، ويفوقه شدة ، حتى اننى لم أقو على حمل نفسى على استعماله . على انتى عزوت تلك الروح القاتمة الى ما جرى له فى « زنزانة » فانسين .. وأن هذه الروح لتبدو مرة أخـرى ، وبنسبة كبيرة ، فى مؤلفه « كليفال » بيد أنه لم يخطر ببالى اطلاقا أن أرتاب فى أن هذا كان ينطوى على أدنى نية خبيثة » !

وتحزبهم ، ومنازعاتهم المخزية ، وافتقارهم إلى النقاء الذى يتجلى فى كتبهم ، والمظهر المترفع الذى يخدعون به المجتمع .. كل هذه كانت بغيضة إلى نفسى ! .. وما اقل ما وجدت من رفق وسلامة قلب وصراحة فى الاتصال بالناس ، لا سيما أصدقائى ! .. حتى لقد عافت نفسى هذه الحياة الصاخبة ، وأخذت أتوق ــ فى رغبة صادقة ــ إلى الإقامة فى الريف . ولما لم أجد أى أمل فى أن تمكننى مهنتى من الاستقرار هناك ، رحت أسارع إلى قضاء بضع الساعات ــ التى كنت أستطيع أن أمرغ فيها من العمل ــ هناك . واعتدت ، لعدة أشهر ، أن أخرج للرياضة وحيدا ــ عقب الغداء فى بداية الأمر ــ فى غابة (بولونيا) ، لأدير فى فكرى موضوعات لمؤلفاتى المقبلة . ولم أكن أعود قبل هبوط الليل !

من سنة ١٧٥٤ إلى سنة ١٧٥٦

رأى « جوفكور » ــ الذى كانت علاقاتى به فى أوج توثقها إذ ذاك ــ أن لا بد له من الرحيل إلى (جنيف) بحكم عمله ، فعرض على أن أرافقه فى هذه الرحلة . ووافقت على ذلك . وإذ لم أكن بصحة جيدة أستغنى معها عن عناية «الدادة»(١) ، فقد تقرر أن تكون معنا فى الرحلة ، وأن تتولى أمها حراسة البيت . وأعددنا عدتنا على أن نرحل نحن الثلاثة معا ، فى أول يونيو سنة ١٧٥٤

---

(١) يقصد تيريز .

وجدير بى أن أنظر إلى هذه الرحلة على أنها فترة التجربة الأولى التى صادفتنى خلال سنى عمرى الاثنتين والأربعين ــ إذ ذاك ــ والتى نبهتنى إلى تلك الفطرة المفعمة بالثقة التى فطرت عليها والتى اعتدت دائما أن أسلم نفسى إليها دون ما تحفظ ولا حرج . وكانت لدينا مركبة متوسطة ، راحت تقطع بنا الرحلة على مسافات جد قصيرة، دون أن تستبدل جواديها. وكنت كثيرا ما أهبط وأسير على قدمى . ولم نكد نقطع نصف طريقنا ، حتى أبدت تيريز أعظم نفور من أن تبقى وحيدة فى العربة مع « جوفكور » ، فما أن رغبت فى الهبوط ــ بالرغم من رجائها ــ حتى هبطت هى الأخرى وسارت . وظللت ألومها وقتا طويلا على هذه النزوة ، بل ورحت أعارضها بشدة ، حتى رأت نفسها مضطرة ــ فى النهاية ــ إلى أن تصارحنى بالسبب .. وخيل إلى أننى أحلم .. وهويت من حالق ، عندما سمعت أن صديقى السيد دى جوفكور ، المسن الذى جاوز الستين ، والمصاب بالنقرس ، والمنهار البنيان ، والذى هدته حياة اللهو والعبث .. صديقى هذا كان يبذل غاية جهده ، مذ بدأنا الرحلة، ليفسد امرأة لم تعد شابة ولا جميلة ، امرأة كانت لصديقه .. وكان يسعى إلى ذلك بأحط الوسائل ، وبأدعاها إلى الخجل، حتى لقد قدم إليها كيس نقوده .. وحتى لقد حاول أن يثير نزواتها بأن راح يقرأ عليها كتابا فاحشا ، وبأن أخذ يريها الصور الفاضحة التى امتلأ بها الكتاب ! .. ولقد ألقت تيريز بالكتاب الخبيث ــ مرة ــ من العربة ، وهى فى غمرة السخط . وقالت أن الرجل فى أول يوم فى الرحلة ، انتهز فرصة إيوائى إلى

الفراش قبل العشاء – إذ كنت أعانى صداعا شديدا – واستنفد الوقت كله – وقد كان خلاله وحيدا معها – فى محاولات وتصرفات أكثر لياقة بالحيوان المهتاج ، أو بالجدى ، منها برجل محترم ، ائتمنته على نفسى وعلى رفيقتى !

يا للمفاجأة ! .. ويا له من ألم فى الفؤاد جديد على ! .. أيقدر لى ، أنا الذى كان يؤمن حتى ذاك الوقت بأن الصداقة لا تنفصل عن كل المشاعر المستحبة والنبيلة التى تكسبها بهاءها – أن أجد نفسى لأول مرة فى حياتى ، أقرن هذه الصداقة بالازدراء ، وأسحب ثقتى وتقديرى من رجل كنت أحبه ، وكنت أعتقد اننى محبوب منه ؟ ! .. لقد أخفى التعس مسلكه المعيب عنى ، ولكى أتجنب إحراج تيريز ، ألفيتنى مضطرا إلى أن أخفى عنه استيائى ، وإلى أن أدفن فى قرارة فؤادى مشاعر ما كان له أن يعلم بها إطلاقا ! .. فيا وهم الصداقة الوادع القدسى ، لقد كان جونكور أول من رفع نقابك لعينى ، وكم من أيد قاسية قد حالت – منذ ذلك الحين – دون هبوط هذا النقاب على وجهك ثانية !

وتركت جونكور فى (ليون) ، لأتخذ طريقى خلال إقليم (سافوا) ، إذ لم أقو على أن أمر – من جديد – على مقربة من « ماما » دون أن أراها . ولقد رأيتها .. ولكن ، يا إلهى ! .. فى أية حال ؟ بل فى أى هوان ؟ ! .. ما الذى تبقى لها من صفاتها الأولى ؟ .. أفهذه هى السيدة دى فاران بعينها ، التى كانت متألقة ، والتى أوفدنى إليها أسقف بونفير ؟ .. لشد ما حزن قلبى ! .. ولم أر لها من مخرج سوى أن تترك إقليمها . ورحت ألحف عليها فى حرارة ، ودون جدوى ، مرددا ما ألححت

عليها به عدة مرات فى خطاباتى ، ضارعا إليها أن تأتى فتعيش معى فى سكينة ، وتسمح لى بأن أكرس أيامى وأيام تيريز من أجل أن نحيل أيامها سعيدة . ولكنها أبت أن تصغى إلى متشبثة بمعاشها الذى لم تسحب منه شيئا ، منذ أمد طويل ، برغم أنه كان يدفع بانتظام . ووهبتها – مرة أخرى – قسطا طفيفا من نقودى ، يقل عما كان ينبغى أن أعطيها ، وأقل مما كان يجب أن أقدم لو لم أكن موقنا تمام اليقين من أنها لن تفيد منه بـ « سو » واحد !

ولقد قامت – أثناء مكثى بجنيف – برحلة فى (شابليه) ، فجاءت لزيارتى فى (جرانج كانال) . وكان يعوزها المال كى تواصل الرحلة ، ولم أكن أحمل معى ما كان لازما لها ، فأرسلته إليها بعد ساعة ، بوساطة تيريز . يا للمسكينة « ماما » ! .. فلأذكر دليلا واحدا جديدا ، على طيبة قلبها : ذلك أنه لم يكن قد تبقى لها من حليها ، سوى خاتم صغير ، فخلعته عن أصبعها لتضعه حول أصبع تيريز ، التى نقلته فى التو إلى أصبع « ماما » من جديد ، وهى تقبل تلك اليد النبيلة وترويها بدموعها ! .. آه ! كانت تلك هى اللحظة المواتية لكى أسدد دينى ! .. كان خليقا بى أن أهجر الكل لأتبعها ، وأن ألازمها حتى ساعتها الأخيرة ، وأن أقاسمها حظها ، مهما يكن ! .. ولكنى لم أفعل شيئا من هذا القبيل ، فقد شعرت – وقد شغلت عنها بغيرها – أن الرابطة التى كانت تشد كلا منا إلى الآخر قد تفككت ، إذ

كان ينقصها الرجاء فى أن أستطيع ان أحيل علاقتى بماما إلى
شىء نافع لها !.. ولقد بكيت حسرة عليها، ولكننى لم اتبعها..
وليس بين بواعث تأنيب الضمير التى صادفتنى فى حياتى، ما هو
أشد ولا أبقى من هذا الباعث !.. وانى لأستحق ألوان العقاب
الفظيعة التى لم تكف عن تعذيبى منذ ذلك الحين.. فليتها تكفر
عن جحودى !.. الجحود الذى تبدى فى مسلكى فعلا ، ولكنه
مزق قلبى فى عنف ما كان ليحدث لو أن هذا القلب كان قلبا
جاحدا يوما !

* * *

كنت قبل رحيلى من باريس قد شرعت فى صوغ إهداء
« حديث فى عدم المساواة » ، وقد فرغت منها فى (شامبيرى) ،
وسجلت تاريخ ذلك اليوم مقرونا باسم المكان ، إذ رأيت أن من
الأفضل الا أقرن التاريخ باسم باريس أو جنيف ، كى اتفادى
كل المضايقات . وإذ وصلت إلى (جنيف) ، أسلمت نفسى
لتحمسى وهيامى بالنظام الجمهورى .. هذا التحمس المستهام
الذى قادنى إلى هناك، والذى ازداد بالاستقبال الذى حظيت به.
وفى غمرة المآدب والمجاملات التى أحاطتنى بها كل الأوساط ،
استسلمت بكل كيانى إلى الغيرة الوطنية ، وقد أخجلنى أن أحرم
من حقوقى كمواطن بسبب اعتناقى دينا يخالف دين آبائى[1] ،
فقررت أن أعود إلى هذا الأخير علانية . ورأيت ان الأنجيل

(١) كان « روسو » قد تحول من الكاثوليكية الى البروتستانتية فى صباه.

واحد لجميع المسيحيين ، وأن لب العقيدة ما اختلف
إلا باختلاف أولئك الذين اقحموا أنفسهم فى تفسير ما كانوا
عاجزين عن فهمه . ولقد كان من حق الحاكم الفرد — فى كل
بلد — أن يعين أسلوب العبادة ، وأن يبت فى مسألة العقيدة
المعقدة .. ومن ثم فان واجب الرعية أن يقروا العقيدة وأن
يمارسوا أسلوب العبادة اللذين نص عليهما القانون . وكان
طول اختلاطى بأهل البحث والدراسة أبعد من أن يزعزع إيمانى،
بل انه عززه، لا سيما وأننى كنت أنفر من المنازعات والتعصب.
ولقد أدت دراسة الإنسان والكون — فى كل مكان — إلى إطلاعى
على القضايا الرئيسية والعقلية التى توجهها . ولقد علمتنى
قراءة التوراة — لا سيما الانجيل الذى انصرفت إليه عدة
سنوات — كيف ازدرى التفسيرات الجوفاء الحمقاء ، التى
خلعها على تعاليم عيسى المسيح أناس ليسوا أهلا لإدراكها على
الإطلاق !.. ومجمل القول أن الفلسفة إذ قربتنى من جوهر
الدين ، صرفتنى عن هذا الركام من قواعد الإيمان الزائفة التى
حجبت عن الناس هذا الجوهر !

وكما كنت أومن بأن صاحب العقل المدرك ليس بحاجة إلى
طريقتين يختار بينهما فى الوصول إلى المسيحية . فاننى كنت
أومن كذلك بأن كل ما هو قاعدة ونظام — فى كل دولة — إنما
يدخل فى نطاق التشريع والقانون . ومن هذا المبدأ المعقول ،
الاجتماعى ، السلمى — الذى جر على ما جر من اضطهادات
قاسية — انسابت هذه النتيجة : إذا شئت أن أصبح مواطنا ،

فإن من واجبى أن أكون بروتستانتيا ، وأن أعود إلى دين وطنى . وعقـــدت عزمى على ذلك ، بل أننى استشرت فى ذلك راعى الأبرشيه التى كنت أقيم فيها ، والتى كانت خارج المدينة .. ولم أكن أرجو سوى الا اضطر إلى أن أمثل أمام مجمع الكرادلة . ومع أن المراسم الكنسية كانت حاسمة فى هذا الصدد ، إلا أنه رؤى التجاوز عنها إكراما لى ، فعينت لجنة من خمسة او ستة أعضاء ، لتتلقى إقرارى بعقيدتى ، فى جلسة خاصة . ولسوء الطالع ، شاء القس « بردريو » ــ وكان شخصا لطيفا ، لينا، ربطتنى به روابط من الود ــ أن يلح على بأن من دواعى الغبطة أن القى كلمة فى هذا الاجتماع الصغير . وأزعجنى توقع هـــذه الكلمة ، إلى درجة أننى ــ بعد دراسة شغلت بها ليل نهـــار لثلاثة أسابيع ــ أعددت خطابا قصيرا .. وارتبكت عندما حانت لحظة إلقائه، حتى أننى عجزت عن أن أنطق بكلمة واحدة منه .. وتصرفت كأغبى تلاميذ المدارس ! .. وتولى أعضاء اللجنة عنى الحديث ، ورحت أجيب فى عى بـ « لا » و « نعم » ، ثم قبلت فى الطائفة ، وردت إلى حقوقى كمواطن .. وكذلك ادرج اسمى فى قائمة « الحرس الوطنى » الذى كان يتقاضى موارده من أبناء المدينة والطبقة المتوسطة فحسب[1] ، ودعيت إلى اجتماع غير عادى للمجلس العام، لتلقى اليمين من «السنديك» موسار[2]. ولقد تأثرت للعواطف الطيبـــة التى ابداها لى المجلس ومجمع

(١) ذكر « روسو » أنه كان يقيم خارج المدينة ، فكان ضمه الى الحرس نوعا من التكريم له .

(٢) « السنديك » هنا لقب كان يطلق على رئيس الهيئة .

الكرادلة ــ فى هذه المناسبة ــ وللاجراءات الكريمة الحفية التى صدرت من جميع المستشارين والقساوسة والمواطنين ، حتى اننى ــ بدافع من الرجاوات الملحة من ديلوك الطيب ، ومن ميلى الصادق بوجه خاص ــ لم أعد أفكر فى العودة إلى باريس إلا لكى اتخلص من مسكنى ، واسوى أعمالى البسيطة ، وأجد عملا للسيدة لوفاسير وزوجها ــ يقيهما العوز ــ ثم أعود مع تيريز فنستقر فى (جنيف) بقية أيامى .

وإذ استقر رايى على هذا القرار ، أرجأت كل الشواغل الهامة ، لكى أهنأ بأصدقائى إلى ان يحين وقت الرحيل إلى باريس . وكانت أكثر الوان التسلية إرضاء لى ، هى الطواف حول البحيرة فى قارب مع ديلوك الأب، وزوجة ابنه ، وتيريزى . وقضينا سبعة أيام فى هذه الجولة ، فى أبدع طقس عرفته . وقد احتفظت بالذكريات الحارة للمواقع التى أطربتنى ــ عند الطرف الأقصى للبحيرة ــ واوردت بعض أوصافها فى « هيلويز الجديدة » عندما كتبتها بعد سنوات !

وكانت الصلات الرئيسية التى عقدتها فى جنيف ــ عدا صلتى بديلوك الذى تحدثت عنه ــ هى صداقتى للقس فيرن ، الذى كنت قد عرفته فى باريس من قبل ، والذى كانت لدى عنه فكرة طيبة تفوق ما تبدى منه فيما بعد .. وصـــداقتى للسيد بردريو ، الذى كان ــ فى ذلك الحين ــ راعى أبرشيه ريفية، واصبح اليوم أستاذا للأدب ، والذى سأظل دائما أتحسر على صحبته المفعمة باللطف والدعة ، وإن كان هو قد رأى أن نصم هذه المعرفة ، كان عملا سليما .. وهناك السيد « جالابين » ،

الذى كان أستاذا لعلم الطبيعة — إذ ذاك — ثم أصبح مستشارا! و « سنديك » ، وقد قرأت عليه رسالتى عن عدم المساواة — بعد أن تجاوزت عن المقدمة والاهداء — فبدا عليه أنه طرب لها .. والأستاذ « لولان » ، الذى ظللت على تراسل معه حتى وفاته ، والذى ذهب فى ثقته بى إلى درجة أن عهد إلى بأن ابتاع بعض الكتب للمكتبة العامة .. والأستاذ « فيرنيه » ، الذى ادار لى ظهره — ككل الناس — بعد أن أريته الأدلة على ود وصداقة كانا خليقين بأن يمسا قلبه ، إذا كان لقلب رجل من رجال الدين أن يتأثر بشىء ! .. وشابوى ، الكاتب الذى خلف جوفكور فى العمل ، والذى رغب فى أن يخلفه فى الصداقة ، وسرعان ما خلفه فعلا .. وميرسيه دى ميزيير ، وقد كان صديقا قديما لأبى ، كما أثبت أنه كذلك بالنسبة لى ، ولكنه — بعد أن كان قد استحق تقدير وطنه من قبل ، ثم أصبح مؤلفا مسرحيا ومرشحا لمجلس المائتين — تحول عن آرائه ، وعرض نفسه للسخرية حتى وافته منيته .. على أن التعارف الذى وضعت فيه أكبر أملى ، هو تعارفى مع « مولتو » .. وكان شابا توحى مواهبه وذكاؤه المتأجج بمستقبل عظيم له . وقد اعتدت دائما أن أشعر بعطف عليه ، برغم أن مسلكه نحوى كثيرا ما يثير الريب ، وبرغم أنه كان على علاقات ودية بألد أعدائى .. على أننى — برغم كل هذا — لا أستطيع أن أصد نفسى عن التطلع إليه كشخص يرجى أن يكون يوما هو الذائد عن مذكراتى ، والمنتقم لى ، بوصفى صديقه !

***

وفى غمرة هذه المتع والمرفهات ، لم أفقد ميلى إلى النزهات التى كنت أنطلق فيها وحيدا على قدمى ، فلم أكف عن ممارستها .. وكم من نزهات طويلة تمشيت خلالها على ضفاف البحيرة ، لم يكن يمكث خلالها فى رأسى — الذى اعتاد العمل — شىء من الهواجس . وكنت أقلب فى ذهنى أثناءها المشروع الذى كنت قد رسمته من قبل ، لكتابى : « المذاهب السياسية » ، الذى لن ألبث أن أتحدث عنه .. كذلك كنت أفكر فى كتابة « تاريخ فاليه »(١) .. ومأساة شعرية لم يجردنى موضوعها — الذى لم يكن سوى حياة « لو كريس »(٢) — من الأمل فى خنق الضحكات ، وإن كنت قد جرؤت على أن أقدم هذه المرأة التعسة على المسرح مرة أخرى ، فى وقت لم يكن من المحتمل فيه أن تعود حياتها إلى المسرح الفرنسى . كذلك حاولت أن أعالج موضوع « تاسيتوس »(٣) ، وترجمت الكتاب الأول من « التواريخ » .. ولسوف توجد هذه الترجمة بين أوراقى .

---

(١) اقليم « الفالية » فى الأراضى السويسرية ، فى الوادى الأعلى لنهر الرون .

(٢) امرأة رومانية ، قتلت نفسها يأسا وكمدا عندما اغتصبها ابن حاكم روما المستبد ، فادت مأساتها الى قيام النظام الجمهورى فى روما سنة ٥١٠ قبل الميلاد .

(٣) تاسيتوس كاتب رومانى أوردنا سيرته فى صفحة ١٧٥ من هذا الجزء و « التواريخ » من أشهر مؤلفاته .



وفى غمرة هذه المتع والمرفهات لم أفقد ميلى الى النزهات التى كنت انطلق فيها وحيدا على قدمى .

وبعد اربعة أشهر من الإقامة فى (جنيف) ، عـدت إلى (باريس) فى شهر أكتوبر ، متحاشيا المرور بليون حتى لا التقى فى طريقى بجوفكور . ولما كنت قد قررت ــ فى تدبيراتى ــ الا أعود إلى (جنيف) إلا فى الربيع التالى ، فقد عاودت فى الشتاء عاداتى وأعمالى ، التى كان اهمها مراجعة النسخ التجريبية (البروفات) لرسالتى « حديث فى عدم المساواة » ، التى كانت تطبع فى (هولندا) ، لدى المكتبى « ريى » الذى كنت قد تعرفت إليه فى جنيف . ذلك لأنه لما كان إهداء هذا الكتاب معقودا للنظام الجمهورى ، وكان مثل هذا الاهداء لا يروق للمجلس(١) ، فقد انتظرت حتى أرى وقعه فى جنيف قبـل أن أعود إليها . ولم يكن هذا الوقع فى صالحى ، بل إن ذاك الاهداء ــ الذى لم توح به سوى أنقى العواطف الوطنية ــ خلق لى فى المجلس أعداء ، كما جلب على غيرة بعض المواطنين . فقد كتب لى السيد « شوبه » ــ « السنديك » الأكبر ، فى ذلك الحين ــ رسالة مهذبة ولكنها فاترة ، ستوجد فى أوراقى ، فى الملف « ا » ، رقم (٣) . وتلقيت من بعض الخاصة ــ وبينهم ديلوك وجالا بير ــ تهانى قليلة ، كانت هى غاية ما جوزيت به ، فلم أجد واحدا من أبناء (جنيف) يشكر لى صادقا تلك الحمية المنبعثة من القلب، والتى تبدو ملموسة فى الكتاب . ولقد صدم هذا الفتور كل من لاحظوه . وأذكر أننى كنت أتناول الغداء ــ ذات يوم ــ فى دار السيدة دوبان ، فى (كليشى)، بصحبة كروميلان ــ وزير الجمهورية(٢) ــ والسيد دى « ميران » ، فقال هذا فى صراحة

(١) مجلس المائتين ، الذى كان بمثابة الهيئة النيابة لجمهورية جنيف .

(٢) الوزير المفوض لجمهورية جنيف فى باريس .

مسموعة ، ان المجلس كان مدينا لى بمكافأة وبتكريم عام ، من اجل هذا الكتاب ، وانه إنما يخزى نفسه إذا قصر فى هذا . ولم يجرؤ كروملان ـ الذى كان ضئيل الجسم ، أسود القلب ، دنىء المكر ـ أن يرد على ذلك فى حضورى ، ولكنه لوى ضبه فى حركة بشعة أضحكت السيدة دوبان !.. وكانت الفائدة الوحيدة التى عادت على من هذا المؤلف ـ إلى جانب أننى أرضيت به فؤادى ـ هى لقب « المواطن » الذى خلعه على أصدقائى ، ثم حذا الجمهور حذوهم ، وما لبثت أن فقدته عقب ذلك ، لفرط استحقاقى إياه ! على أن هذا النجاح الخابى ما كان ليحولنى عن تحقيق أوبتى إلى (جنيف) ، لو لم تتغلب على ذلك بواعث كانت ذات نفوذ قوى على فؤادى . فان السيد ديبيناى كان راغبا فى أن يضيف إلى قصر « لا شيفريت » جناحا كان ينقصه ، فأنفق فى سبيل إنجاز ذلك ، مبالغ جسيمة . وفيما كنت ذاهبا ـ ذات يوم ـ مع السيدة ديبيناى ، لمشاهدة عملية البناء مضينا فى سيرنا إلى ما بعد الموقع بحوالى ربع فرسخ ، أى إلى مقربة من خزان مياه المتنزهات الملحقة بالقصر ، فى متاخمة غابة (مونمورنسى) ، حيث كان ثمة مبنى صغير رشيق ، أقيم ليكون مطبخا خلويا ، وقد الحق به كوخ صغير مهدم ، يدعى « ليرميتاج »(١) .

وكان هذا الموقع المنعزل ، الملائم بى ، قد ملك على حواسى عندما رأيته للمرة الأولى ، قبل رحلتى إلى جنيف . وفى إعجابى به ، انبعثت منى هذه الكلمات : « آه ! .. يا له من مقام بهيج يا سيدتى ! .. ها هوذا ملاذ كانما خلق لى ! » .. ولم تكترث

(١) L'Ermitage ، أى صومعة الناسك .

السيدة ديبيناى لقولى كثيرا ، فى ذلك الحين . ولكننى ـ فى زيارتى الثانية ـ دهشت عندما وجدت فى مكان الطلل القديم ، منزلا صغيرا ، يكاد يكون جديدا بأكمله ، وقد قسم تقسيما بديعا ، وأصبح جد مهيأ ليكون مقاما لأسرة تضم ثلاثة أفراد ! .. ذلك أن السيدة ديبيناى عملت على إنشاء هذا المبنى فى صمت ، وبنفقات جد ضئيلة ، مستخدمة فى ذلك بعض العمال الذين كانوا يشتغلون فى القصر ، وبعض المواد التى كانت متوفرة هناك !

وعندما رأت دهشتى ، قالت : « ها هوذا ملجؤك يادبى ، فقد اخترته بنفسك ، وقد أنالتك إياه الصداقة ، عسى أن يضع خاتمة لتفكيرك الجائر فى البعد عنى ! » . وما أعتقد أننى شعرت يوما بتأثر أشد ولا أعذب مما شعرت به إذ ذاك !.. وغسلت بدموعى يد صديقتى الكريمة . وإذا لم أكن قد تخليت تماما عن عزمى فى تلك اللحظة ، فان هذا العزم قد تصدع على الأقل ! .. وأصبحت السيدة ديبيناى ـ التى أبت أن تنهزم أمام رغبتى فى الاستقرار فى جنيف ـ شديدة الالحاح ، واستعانت بكثير من الوسائل المتباينة ، وبكثير من الأشخاص ، لكى تتغلب على .. بل انها ذهبت فى ذلك إلى حد أن عينت السيدة لوفاسير وابنتها فى خدمتها .. وبهذا انتصرت فى النهاية على إصرارى . وإذ تنحيت عن فكرة الاستقرار فى وطنى ، قررت ، ووعدت بأن أقيم فى (ليرميتاج) . وبينما كان المبنى يجف(١) ، تكفلت

(١) كانت العادة ـ فى ذلك العهد ـ أن يترك المبنى خاليا عقب الفراغ من بنائه ، ريثما يجف اللبن والملاط المستخدمان فى انشائه .

السيدة دبيناى بأمر الأثاث . ومن ثم فان المكان كان معدا تماما للسكنى فى الربيع التالى .

* * *

وكان من الأشياء التى ساعدت كثيرا على أن أبت فى الأمر، استقرار المقام بفولتير ، على مقربة من جنيف . فقد أدركت أن هذا الرجل كان موشكا أن يحدث انقلابا هناك ، وانني خليق بأن أجد فى وطنى عين النقائص ، والمظاهر ، والأخلاق التى كانت تنفرنى من باريس ، ومن ثم فلا بد من النضال دون انقطاع، ولن يبقى لى من خيار فى مسلكى سوى أن أكون أحد اثنين : إما متحذلقا متغطرسا لا يطاق ، أو مواطنا رديئا جبانا !.. ولقد ادى الخطاب الذى كتبه لى « فولتير » عن كتابى الأخير ، إلى أن أشير إلى هواجسى فى ردى ، فكان الأثر الذى أحدثته إشارتى معززا لرأيى . ومنذ ذلك الحين ، اعتبرت جنيف فى حكم الضائعة ، ولم أكن مخطئا فى حدسى . ولعله كان من الخليق بى أن أتحدى العاصفة ، لو أننى شعرت بمقدرة على ذلك ، ولكن .. ما الذى كنت أملك أن أفعله ـ وأنا وحيد ، خجول ، عيى ـ ضد رجل متكبر ، غنى ، يستند إلى مؤازرة الكبار ، ويجيد الكلام البراق ، وقد صار معبود النساء والشباب ؟ .. لقد خشيت أن أعرض شجاعتى للخطر ، دون جدوى ، فلم أنصت إلا إلى فطرتى المسالمة ، وإلى حبى للطمأنينة والخمول .. فهو إذا كان قد خدعنى إذ ذاك ، فإنه لا يزال يخدعنى اليوم ، فى هذا المضمار عينه ! .. ولو أننى آثرت المقام فى جنيف ، لجنبت نفسى كثيرا من المحن والتعاسات ، ولكنى ـ بكل ما أوتيت من حمية ومن غيرة وطنية ـ أشك فى أننى كنت مستطيعا أن أقوم بعمل عظيم ، أو نافع ، لبلادى .

وكان ترونشان قد استقر فى جنيف حوالى ذلك الوقت ، فما لبث أن جاء إلى باريس بعد قليل ، ليقوم بدور الدجال(١)، وليتسلل ببعض كنوزها . وما أن وصل ، حتى قام بزيارة الشيفالييه جوكور .. وكانت السيدة دبيناى تواقة إلى أن تستشيره شخصيا ، ولكن الوصول إليه ـ خلال صفوف الجماهير ـ لم يكن ميسورا . وهرعت إلى ، فأقنعت ترونشان بأن يذهب لزيارتها ، وإذا بهما يعقدان روابط صداقة عززاها ـ فيما بعد ـ على حسابى أنا ! .. هكذا كان نصيبى دائما ، فما جمعت بين صديقين ـ كنت أعرف كلا منهما على حدة ـ إلا واتحدا ، دون توان ، ضدى . ومع أنهم فى المؤامرة ـ التى دخلها آل ترونشان من ذلك الحين ، لكى ينحطا ببلادهما إلى درك العبودية ـ كانوا يشعرون بمقت نحوى ، إلا أن الطبيب ظل طويلا يبدى لى آيات حسن النية . بل إنه ذهب إلى درجة أن كتب لى ، بعد عودته إلى جنيف ، عارضا على منصبا فخريا يضعنى على رأس المكتبة العامة هناك . ولكن رأيى كان قد استقر ، فلم يزعزع هذا العرض عزمى .

وعدت ـ فى هذه الفترة ـ أتردد على دار السيد دولباخ .. وكانت مناسبة ذلك ان الموت عدا على زوجته ـ كما عدا على السيدة فرانكويى ـ ابان إقامتى فى جنيف . وقد حدثنى ديدرو ـ إذ أشار إلى ذلك فى خطاباته ـ عن الحزن العميق الذى نزل بالزوج ، فحرك الأسى فؤادى ، وتحسرت

---

(١) تيودور ترونشان الطبيب السويسرى ، الذى ولد فى جنيف سنة ١٧٠٩، ومات سنة ١٧٨١

ـ فى نفسى ـ على هذه المرأة الطيبة، وكتبت إلى السيد دولباخ. إذ أن هذا الحادث المحزن جعلنى أنسى كل أخطائه ، وما إن عدت من جنيف ، وكان هو الآخر قد عاد من جولة قام بها فى فرنسا ليسرى عنه الأسى ، حتى ذهبت لزيارته مع جريم وأصدقاء آخرين ، وواصلت زيارته ـــ بعد ذلك ـــ إلى أن رحلت إلى (ليرميتاج) . وعندما شاع فى الوسط المحيط به ، أن السيدة ديبيناى ـــ التى لم يكن قد تعرف إليها بعد ـــ كانت تعد لى مسكنا ، انهالت على السخريات كالمطر ، وقيل إننى عاجز عن أن أعيش بدون تملق وإطراء المدينة ، وبدون متعها وملاهيها، وأننى لن أطيق البقاء فى عزلة ، ولو لخمسة عشر يوما !.. ولما كنت أدرك حقيقة مشاعرى ، فقد تركتهم يقولون ما حلا لهم ، ومضيت فى طريقى . ومع ذلك ، فإن دولباخ ساعدنى على أن أعثر على مأوى للشيخ الطيب (لوفاسير)(١) ، الذى كان قد تجاوز الثمانين من عمره ، والذى كانت زوجته تشعر بأنه عبء ثقيل يبهظها ، فكانت لا تكف عن أن ترجونى أن أريحها منه!.. وقد وضع فى ملجأ للفقراء ، حيث عجل كبر سنه وحزنه لبعده

---

(١) عقب « روسو » على هذا بقوله : « هذه احدى الحيل التى تخدعنى بها ذاكرتى . فقد علمت لتوى ـــ وبعد كتابة هذا بأمد طويل ـــ خلال حديث مع زوجتى عن أبيها الطيب ، ان الذى ساعد على انزاله بالملجأ ، لم يكن السيد دولباخ ، وانما كان السيد دى شينونسو ، الذى كان اذ ذاك من أعضاء لجنة « فندق الله » . وقد نسيته تماما ، وذكرت السيد دولباخ فى مكانه ، الى درجة اننى كنت على استعداد لأن أقسم أنه الذى قام بالخدمة » .. والفندق الذى يعنيه « روسو » هنا ، من أقدم ملاجىء باريس .

عن أسرته ، بإرساله إلى القبر ، بمجرد أن حل بالمكان تقريبا ! .. ولم تأس زوجته وأطفاله عليه كثيرا ، ولكن تيريز ـــ التى كانت مشغوفة بحبه ـــ لم تجد قط عزاء لمصابها فيه ، ولم تصفح عن نفسها قط إذ تركته ـــ وهو على شفا نهاية أجله ـــ يقضى أيامه الأخيرة بعيدا عنها !

* * *

وتلقيت فى هذه الفترة تقريبا ، زيارة لم أكن أرتقبها قط ، وإن كان صاحبها من أقدم المعارف . وأعنى به صديقى « فينتور » ، الذى فاجأنى ذات صباح لطيف ، عندما كان آخر شخص يخطر ببالى . وكان معه زميل .. وكم لاح لى أنه تغير ! .. فبدلا من أخلاقه الكريمة السالفة ، لم أجد فيه سوى مظهر مفسود منحل ، منعنى من أن أكاشفه بدخيلتى .. أو لعل عينى لم تعودا كما عهدتهما ، أو أن الافراط فى العبث قد أطفأ ذكاءه ، أو أن كل تألقه السابق كان يعتمد على إشراقة الصبا ، التى لم يعد محتفظا بها ! .. ولقد عاملته فى غير اكتراث تقريبا ، وافترقنا فى فتور . ولكنه لم يكد ينصرف ، حتى أهاجت ذكرى ألفتنا القديمة .. ذكريات صباى ، تلك الذكريات التى كانت فى رونقها ، وفى بهائها ، وفى كمالها ، مقصورة على هذه المرأة الملائكية التى لم تكن ـــ اليوم ـــ أقل تغيرا منه .. وطرائف وأقاصيص تلك الأوقات الهانئة .. وذلك اليوم الشاعرى الذى قضيته فى (تون) ، فى براءة وطرب بين تلكما الفتاتين الفاتنتين اللتين كان كل ما أنعمتا به على ، مجرد قبلة على اليد ، ولكنها خلفت ـــ مع ذلك ـــ [illegible] دائمة !..

وإذا كل النشوات البهيجة التى أسكرت قلبى الشاب ، والتى شعرت بها إذ ذاك فى أقوى صورها ، والتى كنت أظنها قد ولت إلى الأبد . . كل هذه الذكريات العاطفية الناعمة ، جعلتنى أبكى شبابى الذى أدبر بمباهجه ، والذى ضاع على ! . . آه ! كم كنت جديرا بأن أبكى عودة هذه الذكريات ــ العودة المتأخرة ، الحزينة ــ لو أننى تنبأت بالأسى التى كان مرتقبا أن تكبدنيه !

وقبل أن أغادر باريس ، وفى أثناء الشتاء الذى سبق اعتكافى ، حظيت بمتعة صادفت هوى من قلبى ، وأقبلت على تذوقهـا بكل نقائها . ذلك أن «باليسو» ــ وكان عضوا فى محفل نانسى ، أذاعت صيته بضع تمثيليات وضعها ــ كان قد ظفر بعـرض إحدى هـذه التمثيليات فى (لونيفيل) . على مشـهد من ملك بولندا . وكان من الجلى أنه أراد أن ينشد الحظوة ، إذ دس فى تمثيليته شخصية رجل جرؤ على أن ينـاجز الملك بقلمه . ولكن « ستانيسلاس » كان رجلا كريما ، لا يميل إلى الهجو ، وقد استنكر أن يجرؤ أحد على تصوير الشخصيات بهذا الشكل فى محضره . فكتب السيد الكونت دى تريسان ـ بأمر من الملك ـ إلى « داليمبير » وإلى أنا ، فأنبأنى بأن نية صاحب الجلالة قد اتجهت إلى تحقيق إقصاء السيد باليسو ، عن المحفل . على أننى رجوت السيد تريسـان مخلصا ــ فى ردى ــ بأن يشفع لدى ملك بولندا للحصول على عفو عن باليسو . وصدر العفو فعلا . وإذ كتب لى السيد دى تريسان ليخبرنى ـ باسم الملك ـ بذلك ، أضاف أن هذا الحادث سيثبت فى سجلات المحفل ، فرددت بأن هذا سيكون بمثابة توقيع عقاب دائم ، أكثر مما هو

عفو . وأخيرا ، حصلت ــ بعد عناء ورجاء ــ على وعد بأن تظل المسألة كلها بعيدة عن السجلات ، وألا يبقى أى أثر منها بصفة رسمية . وقد صحب الوعد إقرارات تقدير من جانب الملك ، ومن جانب السيد دى تريسان ، مما أثار زهـوى إلى حد كبير . وشعرت فى هذه المناسبة بأن تقدير أولئـك الذين هم جديرون بالتقدير ، يبعث فى النفس شعورا أعذب وأسمى من شعور الخيلاء والغرور ! . . وقد ضممت خطـابات السيد دى تريسان وردودى إلى أضابيرى ، وستوجد أصولها فى ملف « أ » ، تحت أرقام ٩ و ١٠ و ١١

إننى لأشعر كل الشعور ، بأنه إذا قدر لهذه المذكرات أن ترى الضـوء يوما ، أننى أخلد بنفسى هنا ذكرى واقعة كنت أرغب فى أن أمحو آثارها ، ولكننى أثبت كثيرا غيرها ، على الرغم منى . فإن الهدف الأكبر لمشروعى هذا ، يتمثل دائما أمـام عينى . فإن الواجب الذى لا محيص عنه ، والذى يتطلب أن أحقق هذا الهدف بأكمل صوره ، لا يدع لى سبيلا للنكوص ، من أجل اعتبارات واهية تعمل على أن تعوقنى عن غايتى . إننى فى موقفى الفذ الفريد ، أدين للحقيقة بما لا أدين لسواها بأكثر منه . فلكى أعرف القراء بنفسى ، لا بد لى من أن أعرف كل نواحى هذه النفس ، طيبها ورديئهـا . إن اعترافاتى مرتبطة ـ بالضرورة ـ باعترافات كثير من الناس ، وإنى لأبوح بهذه وتلك بنفس الصراحة ، فى كل ما يتعلق بى ، دون أن أجـد ما يقتضى أن أعامل أى امرىء غيرى بمـا لا أعامل به نفسى ، ولست أتمنى سوى أن أوتى مزيدا من الصراحة يفوق ما أبديت .

إننى أصبو إلى ان اكون دائما منصفا وصادقا ، فأقول عن الغير كل خير ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، ولا اذكر من الشر إلا ما يتعلق بى ، وبقدر ما أكون مضطرا إلى ذكره .

فمنذا الذى يجد من حقه أن يطالبنى ـ وانا فى هذا الموقف الذى أقحمت فيه ـ بمزيد ؟ .. ان اعترافاتى لم تكتب إطلاقا لكى تظهر فى حياتى ، ولا فى حياة الأشخاص الذين تتناولهم . ولو كان لى السلطان على مصيرى ومصير هذا المخطوط ، لما رأى النور إلا بعد موتى وموت هؤلاء الأشخاص بوقت طويل. ولكن الجهود التى يبذلها الشائنون ذوو النفوذ ـ مدفوعين بجزعهم منها ـ لكى يمحوا كل اثر لهذا المخطوط ، يضطرنى إلى ان ابذل كل ما يسمح لى به اشد القوانين ، واقسى الوان العدالة ، فى سبيل صون هذه الآثار . ولو كان مقدرا لذكرياتى ان تموت معى ، حتى لا امس اى احد ، لتحملت اى ظلم جائر وعابر يترتب على ذلك . اما وقد قدر لاسمى أن يعيش ـ اخيرا ـ فإن من واجبى أن أحاول أن اسلم الأجيال معه ذكريات الرجل التعس الذى كان يحمله .. كى ابديه على ما كان عليه فى الواقع والحقيقة ، وليس كما عمل اعداؤه الظالمون دائبين على أن يصوروه !

الكراسة التاسعة

سنة ١٧٥٦

لم يسمح لى التلهف على سكنى « ليرميتاج » بأن أنتظر حتى يعود فصل الطقس البديع ، فما ان تم إعداد مسكنى حتى اسرعت إلى الإقامة فيه ، وسط السخريات المدوية من ثلة دولباخ ، الذين راحوا يتنبأون علانيـة بأننى لن أستطيع ان احتمل العزلة ثلاثة اشهر ، وانهم لن يلبثوا أن يرونى عائدا لأعترف بإخفاقى ، ولأعيش مثلهم فى باريس . أما انا ـ وقد قضيت خمس عشرة سنة بعيدا عن بيئتى ـ فاننى إذ رأيت نفسى وشيك العودة إليها ، لم ابد أى اكتراث مطلقا لمزاحهم الساخر . فاننى منذ أن القيت ـ على الرغم منى ـ فى المجتمع، لم اكف عن التحسر على (شارميت) ، وعلى الحياة الناعمة التى حظيت بها هناك .. كنت أحس اننى خلقت للاقامة فى الريف، فكان من المستحيل ان أهنأ بالعيش فى غيره .. فى البندقية : فى غمرة الشئون العامة ، وفى منصب خاص بنوع من التمثيل الدبلوماسى ، وفى آمالى الطامحة ومشروعاتى للرقى .. فى باريس : فى دوامة المجتمع الراقى ، وفى الملاذ الحسية التى تكتنف حفلات العشاء ، وفى حفلات المسرح اللامعة ، وفى سحب المجد الزائف الذى حف بى .. فى كل هذه وتلك ، كانت ذكريات ادغالى ، وجداولى ، وتجوالى على القدمين ، حاضرة أبدا لتشغل بالى وتبعث الأسى فى نفسى ، وتنتزع منى التنهدات والحنين والحسرة !

كل الأعمال التى كان فى طوقى أن أجعل نفسى فى ربقتها ، وكل المشروعات الطامحة التى راحت تنمى حميتى باطراد ، ولم يكن لها من غاية سوى أن أبلغ يوما تلك البحبوحة الريفية الهانئة، التى رحت أهنىء نفسى ــ فى تلك اللحظة ــ على أننى احرزتها .. فاننى وإن لم احظ بالاستقلال الكريم ــ الذى كنت اعتبره وحده الكفيل بأن يقودنى إلى هذه الهناءة ــ إلا أننى رايت ان بوسعى ، نظرا لوضعى الخاص ، أن أستغنى عنه ، وأن أصل إلى نفس النهاية بطريق أخرى جد مختلفة . على أننى لم اكن املك دخلا ما ، وإن كنت امتلك اسما ومواهب .. وكنت معتدلا ، وقد حرمت نفسى من معظم الحاجات الباهظة النفقات .. تلك التى كانت منشودة لدى الناس عامة . وإلى جانب ذلك، فبالرغم من كسلى ، إلا أننى كنت مجدا عندما أشاء ، ولم يكن كسلى راجعا إلى أننى عاطل خمول ، بقدر ما كان خلة الرجل المستقل الذى لا يحب أن يعمل إلا عندما يروق له العمل . ولم يكن احترافى نسخ القطع الموسيقية رائجا ، ولا مربحا ، ولكنه كان مصدر رزق مضمون ، وقد حبذ المجتمع شجاعتى إذ أقدمت على اختياره . فقد كان لى دائما أن اطمئن إلى عمل ، وأن أطمئن إلى رزق كاف لعيشى إذا أنا عملت جادا . وكانت الفرنكات الألفان التى تبقت من أرباحى من «عراف القرية» ومن مؤلفاتى الأخرى ، بمثابة رصيد يقينى الضيق . كما ان المؤلفات العديدة التى كانت تحت الاعداد ، كانت تبشر ــ دون ما تطفل على الناشرين ــ بموارد كافية لأن تمكننى من العمل على سجيتى ، دون ما إرهاق لنفسى ، بل ودون أن أجور على أوقات

الفراغ المخصصة للتريض والتجوال . وكانت أسرتى الصغيرة، مؤلفة من ثلاثة أشخاص ، شغل كل منهم بما هو نافع ، ولم تكن إعالتها مبهظة . وقصارى القول ان مواردى ــ بالنسبة لحاجاتى ورغباتى ــ كانت قادرة بحق على أن تتيح لى السعادة الدائمة فى الحياة التى اختارتها ميولى .

ولقد كان بوسعى أن أرتمى تماما فى أحضان الجانب الأكثر إدرارا للربح ، وبدلا من أن أذل قلمى للنسخ ، كان بوسعى أن أكرسه تكريسا تاما للكتابة التى كانت ــ فى الاعتكاف الذى اخترته ، والذى شعرت بأننى قادر على مواصلته ــ كفيلة بأن تمكننى من أن أعيش فى سعة ، بل فى بذخ ، لو أننى وافقت على أن أجمع بين حيل المؤلف والعناية بنشر كتب جيدة . بيد أننى كنت أشعر بأن الكتابة من أجل كسب العيش ، لن تلبث أن تخنق نبوغى ، وأن تقتل موهبتى التى كانت فى قلبى أكثر مما كانت فى قلمى ، والتى لم تنبعث إلا من أسلوب فى التفكير راق، أشم ، هو وحده القادر على تغذية تلك الموهبة .. فما من شىء قوى ، ولا من شىء عظيم يمكن أن ينساب من قلم أجير مرتش ! .. إن الحاجة ــ وربما الجشع ــ كانت كفيلة بأن تدفعنى إلى أن أتعجل أكثر من أن أتقن . ولولا أن الرغبة فى النجاح زجت بى إلى الدسائس ، لكان من المحتمل أن تجعلنى أناضل لأقول ما قد يطيب للناس ، وليس ما هو صادق ونافع ! .. وبدلا من المؤلف المبرز ، الذى كان بوسعى أن أغدوه ، فاننى ما كنت لأصبح سوى مسود للورق ! .. لا ، لا ! .. لقد كنت أشعر دائما أن مكانة المؤلف لا يمكن أن تصبح مرموقة ومحترمة ، إلا

إذا كان التاليف بعيدا عن أن يكون حرفة .. إذ أنه من الصعب، كل الصعب ، أن يفكر الإنسان تفكيرا نبيلا ساميا ، إذا ما كان مضطرا إلى الا يفكر إلا طلبا للرزق !.. ولكى يكون الكاتب قادرا ، ولكى يجسر على ان ينطق بالحقائق الجليلة ، ينبغى الا يعول على النجاح ويركن إليه . ولقد دفعت بكتبى إلى الناس بضمير مطمئن إلى أننى إنما تكلمت من أجل الصالح العام غير حافل بأى شىء آخر . فإذا رفض الكتاب ، فيا تعسا لأولئك الذين لم يشاءوا ان يفيدوا منه . اما أنا ، فما كنت بحاجة إلى رضاهم وقبولهم لكى أعيش، فإن مهنتى كانت كفيلة بأن تعولنى، إذا لم تلق كتبى مشتريا .. وهذا بالذات هو الذى جعلها تباع وتروج !

***

وفى التاسع من أبريل سنة ١٧٥٦ ، غادرت المدينـــة فلم اعد إلى سكنى المدن قط ، إذ اننى لا أعتبر من السكنى فى شىء، تلك الفترات الوجيزة التى قضيتها ـــ فيما بعـــد ـــ سواء فى باريس أو فى لندن أو غيرهما من المدن. فقد كانت مجرد إقامة عابرة ، أو إقامة بالرغم منى دائما ! .. ولقد اقلت السيدة ديبيناى ثلاثتنا فى عربتها ، وتولى خادمها الريفى أمر متاعى البسيط ، واستقر بى المقام فى بيتى الجديد ، فى اليوم ذاته . ووجدت معزلى الصغير مهيأ ، ذا أثاث بسيط ولكنه كاف ، وينم عن ذوق !.. كانت اليد التى عنيت باعداد هذا الأثاث قد اضفت عليه ـــ فى نظرى ـــ قيمة تفوق كل تقدير ، وقد لذ لى أن أكون ضيف صديقتى ، فى بيت من اختيارى ، شيدته هى خصيصا لى !

ومع ان الطقس كان باردا ، بل كان ثمة جليد ، فإن الأرض كانت قد بدأت تخضوضر ، وكانت زهور النرجس وورود الربيع قد ظهرت ، وشرعت البراعم تتفتح على الأشجار .. وقد امتازت ليلة وصولى بأول شدو للبلبل فى أعقاب الشتاء، وقد انبعث من غابة كانت تتاخم البيت ، فكأنما كان البلبل ذاته عند نافذتى !.. وبعد نعاس خفيف ، استيقظت وقد نسيت تبدل مسكنى ، فخلت أننى لا ازال فى شارع (جرينيل) ، لولا ان شدو البلبل نبهنى ، فهتفت فى نشوتى : « ها قد تحققت كل أمانى أخيرا !» .. وكان أول ما فكرت فيه هو أن أسلم نفسى لمفعول الأشياء الريفية التى كانت تحيط بى . وبدلا من ان اشرع فى تنسيق مسكنى، فاننى شرعت فى إعداد نفسى لنزهاتى، فلم يبق ثمة درب ، ولا شجرة ضخمة ، ولا غيضة (مجموعة من الشجر) ، ولا بقعة منعزلة حول مسكنى ، إلا وتفقدتها فى اليوم التالى .. وكنت كلما ازددت تعرفا بهذا المعزل الفاتن ، ازددت إحساسا بأنه ما خلق إلا لى ! .. كانت هذه البقعة البعيدة عن العمران ـــ وإن لم تكن موحشة ـــ تنقلنى فى الخيال إلى آخر أطراف المعمورة .. كانت قد أوتيت تلك المفاتن التى تملك القلوب ، والتى لا يجدها المرء قط على مقربة من المدن . وما قدر لامرىء انتقل إلى هناك فجأة ، أن يصدق انه كان لا يبعد عن باريس بأكثر من أربعة فراسخ !

وبعد بضعة أيام من الاستسلام لنشوتى الريفية ، فكرت فى تنسيق أوراقى وتنظيم مهامى ، فخصصت فترة الصباح للنسخ ـــ كما اعتدت أن افعل دائما ـــ وفترة ما بعد الغداء للتريض



وبعد نعاس خفيف ، استيقظت وقد نسيت تبدل مسكنى ، فخلت أننى ما ازال فى شارع (جرينيل) .

والتجوال ، مزودا بكراسة بيضاء صغيرة وقلم من الرصاص ، إذ أننى لم أستطع أن أكتب أو أن أفكر على سجيتى إطلاقا ، إلا فى الهواء الطلق والفضاء ، ولم أجد بنفسى ميلا إلى أن أغير أسلوبى ، بل أننى قدرت أن غابة (مونمورنسى) ــ التى كانت تكاد تصل إلى بابى ــ لن تلبث أن تغدو مكتبى ومكان عملى! ..

وكانت لدى عدة مؤلفات بدأتها من قبل ، فعمدت إلى مراجعتها .. كنت مبدعا كل الإبداع فى مشروعاتى ، ولكن تنفيذها كان يسير ببطء ، فى ضوضاء المدينة . وقد توقعت أن أمضى فيها بمزيد من العجلة ، إذا ما تخففت من كل ما اعتاد أن يشغلنى عن العمل .. وأعتقد أننى قد حققت هذا التوقع تماما .. وبالنسبة لرجل كثير المرض ، كثير التردد على قصر «لاشيفريت» وايبيناى واوبون وقصر مونمورنسى ، كثير التشاغل عن عمله فى داره بفضل الفضوليين المتعطلين ، دائم الانشغال بالنسخ نصف نهاره .. إذا قدر كل هذا ، واحصيت المؤلفات التى انجزتها خلال السنوات الست ــ التى قضيتها فى ليرميتاج ومونمورنسى ــ لتجلى ، فيما أوقن ، أننى إذا كنت قد بددت وقتى خلال هذه الحقبة من الزمن ، فإن تبديده لم يكن فى خمول ، على الأقل !

وبين الأعمال الأدبية المتباينة ــ التى كانت على الرف ــ كان المؤلف الذى أطلت التفكير فيه ، والذى أقبلت عليه بأعظم قدر من الشغف ، والذى وددت أن أعمل فيه طول عمرى ، والذى أعتقد أنه ختم شهرتى .. ذلك هو كتابى فى «المذاهب السياسية» . إذ كانت قد انقضت ثلاث عشرة أو أربع عشرة سنة ،

مذ خطرت لى فكرته ، عندما كنت مقيما فى البندقيـــة ، حيث اتيحت لى الفرصة كى أشهد عيوب نظام الحكم فيها، برغم ماكان له من صيت . ومن ذلك الحين، اتسعت آرائى بفضل الدراسات التاريخية لقواعد الأخلاق ، فقدر لى أن أرى ان كل شىء كان يتصل اتصالا جوهريا بالاعتبارات السياسية ، وأنه ما من شعب يملك ــ مهما يكن تقدمه ــ أن يصبح فى حال غير التى تعده لها طبيعة نظام الحكم فيه . ومن ثم ، فإن المسالة الكبرى ــ مسألة خير نظام ممكن للحكم ــ انكمشـــت فى نظرى إلى ما يأتى : ما كنه نظام الحكم الصالح لتكوين الشعب الذى يكون أفضل صفات ، واكثر تنورا ، وأوسع حكمة .. وبالايجاز ، الشعب الذى يكون « أحسن » شعب ، بأوسع معانى كلمـــة « أحسن » ؟ .. ولاح لى أن هذا السؤال كان وثيق الارتباط بسؤال آخر ، قريب الشبه منه ، وإن لم يكن مثله تماما . ذلك هو : ما هى الحكومة التى تحرص ــ بطبيعتها ــ دائما ، على أن تكون وثيقة القرب من القانون ؟ .. ومن هنا خطر لى سؤال آخر : ما هو القانون ؟ .. وتبعته سلسلة من الأسئلة لها عين القيمة . ورأيت أن هذا كله يفضى إلى حقائق عظيمة ، ذات نفع بالنسبة لرفاهية الجنس البشرى ، ولا سيما رفاهية وطنى ، حيث لم أجد ــ خلال الرحلة التى قمت بها إلى هناك ــ دراية بالقانون وبالحرية صحيحة ، ولا واضحة بالقدر الذى كان يرضينى . ولقد آمنت بأن الإيعاز بهذه الدراية ــ بطريق غير مباشر ــ هو أسلم وسيلة ملائمة لكرامة هؤلاء القوم ، وخير شفيع لى كى يغفروا لى أن استطعت ان أمد بصرى إلى أعلى وأبعد مما بلغته ابصارهم !

ومع أننى كنت قد عكفت ــ لخمس سنوات أو ست ــ على وضع هذا المؤلف ، إلا أننى لم أكن قد قطعت فيه شوطا يذكر . فإن الكتب التى من هذا القبيل ، تتطلب تأملا ، وفراغا ، وطمأنينة . فضلا عن أننى كنت أعمل فيه فى الخفاء ـ كما يقال ـ دون ان أفاتح أحدا ــ ولا ديدرو نفسه ــ بما اعتزمت . فقد كنت أخشى الا يبدو ملائما كل الملاءمة لروح العصر ، وللبلد الذى كنت اكتبه فيه ، وأن جزع أصدقائى قد يعرقل جهودى فى تنفيذه[1] . ولم أكن بعد واثقا من أنه سيتم فى وقت مناسب، وبحيث يتسنى ظهوره ابان حياتى .. وكنت راغبا فى أن أتمكن دون أى تقيد ــ من أن أهب موضوعى كل ما كان يتطلبه . ولما كنت خلوا من التحامل المغرض ، وغير راغب قط فى الجنوح إليهما ــ فاننى كنت مطمئنا إلى أننى سأظل دائما بمنأى عن اللوم .. لقد وددت ان أستخدم ــ أكمل استخدام ، دون ريب ــ حق التفكير ، هذا الحق الذى أوتيته بحكم وجودى .. ولكنى فى حرصى دائما على احترام نظام الحكم الذى كنت أعيش فى

---

(1) عقب « روسو » على هذا بقوله : « كانت حكمة ديكلو المترمتة هى التى أوحت الى بهذا الخوف . أما ديدرو ، فلست أدرى كيف، كانت اجتماعاتى به تتجه دائما الى جعلى أكثر سـخرية وهجوا واقذاعا مما كنت بطبيعتى . وهذا بالذات هو الذى ردنى عن أن أستشيره فى مشروع كنت راغبا فى الا استخدم فيه سوى قوة المنطق والمحاجة فقط، دون أنفه أثر لتعنت أو تعصب. ومن الممكن الحكم على الاسلوب الذى انتهجته فى هذا المؤلف ، على ضوء أسلوبى فى « العقد الاجتماعى » الذى أخذته عنه » ــ وقد قدم « كتابى » ملخصا للعقد الاجتماعى فى العددين (٣١) و (٣٢)

ظلاله ، وعلى عدم الخروج على القانون إطلاقا ، وعلى التزام الحذر حتى لا أنتهك حق الغير .. فى كل حرصى هذا ، لم أكن راغبا ــ فى الوقت ذاته ــ فى أن أفرط ، بدافع من الخوف ، فى امتيات هذا الحق .. حتى فى التفكير ! . بل أننى لأذهب إلى الاعتراف بأننى وجدت وضعى فى فرنسا ــ كأجنبى يعيش فيها ــ مواتيا لكى أقول الحق فى جراة .. فقد أدرك تماما أننى ما دمت لا أطبع شيئا فى الدولة ، دون ما إذن ــ وهو ما كنت اعتزمه ــ فلن اكون مسئولا أمام اى أحد فى فرنسا عن مبادئى ، وعن الترويج لها فى أى مكان آخر ! .. ولقد كان من المحتمل أن اكون اقل حرية فى جنيف ، أو فى أى مكان آخر طبعت فيه كتبى ، إذ كان للسلطات حق الاعتراض على محتوياتها . ولقد كان لهذا الاعتبار أثر كبير فى حملى على أن انصاع لإلحاف السيدة ديبيناى ، فأهجر ما كنت قد انتويته من الاقامة فى جنيف . فقد شعرت ــ كما ذكرت فى « اميل » ــ بأن المرء إذا أراد أن يؤلف كتبا فى الصالح الحقيقى لوطنه ، فليس له أن يؤلفها فى هذا الوطن ، اللهم إلا أن يكون موهوبا فى التآمر والدس والخداع !

ومما زادنى سعادة ، أننى اقتنعت بأن حكومة فرنسا ، ستعتبر أن من الكرامة أن تدعنى فى سلام ، إن لم تحمنى ، ولو أنها لم تكن تنظر إلى بعين راضية ! .. ولقد كان هذا ــ فيما بدا لى ــ نهجا سياسيا بسيطا ، وصريحا إذ أنه يرمى إلى التسامح إزاء ما لا سبيل هناك إلى منعه .. فلو أننى حملت على مغادرة فرنسا ــ وهو ما لكل الحكومات الحق فى أن تقدم عليه ــ لظلت

كتبى ماضية فى الصدور ، ولكن بتحفظ أقل .. أما إذا تركت دون إزعاج ، فأننى ــ كمؤلف ــ سأعتبر رهينة وضمانا لكتبى ، كما أن هذا كفيل بأن يمحو الآراء الخاطئة التى كانت متغلغلة فى بقية أوروبا ، إذ يكسب السلطات الفرنسية شهرة احترام حقوق الأمم عن سعة أفق ورقى تفكير !

والذين يحكمون ــ على ضوء النتيجة ــ بأن ثقتى قد غررت بى ، ربما كانوا هم المخدوعون . ففى العاصفة التى هبت على ، كانت كتبى خير حجة فى جانبى ، لولا أن شخصى هو الذى كان مقصودا .. فإن أحدا لم يول المؤلف كثير اهتمام ، ولكنهم كانوا يتوقون إلى القضاء على جان جاك نفسه .. وكان أسوأ ما جرته كتاباتى ، هو التكريم الذى كان من المحتمل أن يولونى إياه . ولكن .. يجب الا نقفز إلى المستقبل ، ولندعه إلى حينه ! .. ولست أدرى ما إذا كان هذا اللغز ــ فهو لا يزال لغزا فى نظرى إلى اليوم ــ سيلقى ما يوضحه فى نظر قرائى ، فيما بعد .

وإنما الذى أدريه هو أنه إذا كانت آرائى التى جاهرت بها ، جديرة بأن تجلب على المعاملة التى قاسيتها ، لما توانيت عن التعجيل بأن أصبح فريسة لها . ذلك لأن ما ظهر من كتبى ــ التى بسطت فيها هذه المبادىء بكل جراة ، إن لم اقل بكل شجاعة(1) ــ كان قد أحدث أثره ، على ما بدا ، قبل أن آوى إلى (ليرميتاج) ، دون أن يخطر ببال أحد أن يناجزنى الحرب ،

---

(1) يقصد كتابه : « حديث فى عدم المساواة فى الظروف والأحوال » .

أو ــ على الأقل ــ أن يعوق نشر المؤلف فى فرنسا ، حيث كان يباع فى علانية لا تقل عن التى كان يباع بها فى هولندا . ولقد ظهرت « هيلويز الجديدة » ــ بعد ذلك ــ بنفس السهولة ، وبنفس التحبيذ ، كما ينبغى أن يقال . ومن الأمور التى تبدو أبعد من أن تصدق ، أن العقيدة التى بشرت بها فى « هيلويز » هذه ، كانت عين تلك التى بشرت بها فى « أسقف سافوا » .. وكل ما أقدمت على قوله فى « العقد الاجتماعى » ، كان قد قيل فى « حديث فى عدم المساواة » .. وكل ما جاهرت به فى «اميل» ، ظهر قبل ذلك فى « جولى » .. ولكن هذه العبارات المدوية ، لم تثر سخطا ضد الكتابين الأولين(١) ، ومن ثم فما كان من المعقول أن تكون هى التى أثارت سخطا ضد الكتاب الأخير(٢) .

* * *

وهناك مشروع كتاب آخر ، من نفس النوع تقريبا ، ولكن فكرته واتتنى متأخرة عن أفكار تلك الكتب ، وقد شغلت بالى فى ذلك الحين .. ذلك هو « مختارات من أعمال الأب دى سان بيير » ، الذى لم أملك الحديث عنه من قبل ، إذ شغلنى عن ذلك سياق السرد . فلقد أوحى إلى بالفكرة الراهب دى مابلى ــ عقب عودتى من جنيف .. ولم يعرضها على مباشرة ، وإنما وسط فى الأمر السيدة دوبان ، التى كانت مهتمة ــ إلى حد ما ــ بإقناعى بالاضطلاع بالمشروع ! .. فقد كانت إحدى ثلاث أو

(١) يقصد كتابيه : « اميل » و « حديث فى عدم المساواة » .

(٢) يقصد « العقد الاجتماعى » .

أربع من حسان باريس ، تهافتن على الراهب الشيخ « سان بيير » . وإذا لم تكن قد ظفرت بالايثار منه ، فإنها ــ على الأقل ــ قد تقاسمته مع السيدة ديجويون . ولقد احتفظت لذكرى الراهب الطيب باحترام وعطف كانا مصدر فخر لها وله ، ومن ثم فإن كبرياءها كانت خليقة بأن تجد ما يرضيها إذ ترى مؤلفات صديقها الميت الحى ، تبعث على يدى سكرتيرها . ومع أن هذه المؤلفات لم تخل من موضوعات بديعة ، إلا أنها كانت معروضة بأسوأ تعبير ، إلى درجة تجعل من العسير على القارىء أن يحتمل قراءتها . ومما كان يبعث على الدهشة ، أن الراهب كان يعتبر قراءه مجرد « أطفال كبار » ، ولكنه ــ مع ذلك ــ كان يخاطبهم باعتبارهم رجالا .. فضلا عن أنه لم يتجشم أى عناء فى حملهم على الانصات إليه .

من أجل هذا عرض على الاضطلاع بهذه المهمة التى كانت نافعة ــ فى حد ذاتها ــ كما كانت مناسبة لرجل مجد فى النسخ والتعديل ، ولكنه كسول فى التأليف ، ألفى أن المجهود الذى يبذل فى التفكير مرهق ، فكان يؤثر ــ فيما يوافق هواه ــ أن ينقح ويحسن أفكار سواه ، على أن يبتدع أفكارا جديدة من لدنه ! .. وإلى جانب ذلك ، فإننى لم أقصر دورى على مجرد التفسير والترجمة ، إذ إننى لم أكن ممنوعا من أن أستغل تفكيرى فى بعض الأحيان ، وكنت مطلق اليد فى أن أصوغ عملى بالشكل الذى يمكن كثيرا من الحقائق الهامة من أن تظهر فى مسوح الراهب « سان بيير » ، دون ما تعرض للخطر الذى قد يحدق بها إذا ما ظهرت فى ثيابى أنا . وفضلا عن كل هذا :

فإن المهمة لم تكن باليسيرة .. لم تكن تتطلب أقل من القراءة ، ثم الاستيعاب والتفكير ، ثم اختيار مادة من اثنين وعشرين مجلدا مهوشة ، مضطربة التنسيق ، مليئة بالحشر والإطناب والتكرار والآراء الضحلة أو الخاطئة .. وكان لا بد من التنقيب بينها حتى يمكن العثور على طائفة من الآراء الجليلة الدسمة التى كانت تشجع على احتمال المهمة الوعرة ! .. بل أننى كنت موشكا — فى كثير من الأحيان — على أن أنفض يدى منها ، لو أننى استطعت أن أنسحب فى تصرف كريم .. ولكنى عندما تقبلت مخطوطات الراهب — التى أعطانيها ابن أخيه الكونت دى « سان بيير » ، بإيعاز من « سان لامبير » — أصبحت مرتبطا بشكل ما ، بأن أستعملها .. وأصبح الواجب يقتضينى إما أن أردها ، وإما أن أجعل لها قيمة . وبهذه النية الأخيرة حملتها إلى « ليرميتاج » ، فكانت أول عمل اعتزمت أن أكرس له وقت فراغى !

ورحت أفكر — إذ ذاك أيضا — فى مشروع كتاب ثالث ، كنت مدينا بفكرته إلى بعض ملاحظات أخذتها على نفسى ، ومما زاد من شعورى بالرغبة فى الإقدام عليه ، أننى وجدت من الأسباب ما جعلنى أصبو إلى أن أنتج كتابا ذا نفع حقيقى للجنس البشرى ، بل كتابا يكون أنفع ما قدم إلى البشر ، إذا ما قدر للتنفيذ أن يطابق الخطة التى رسمتها مطابقة ناجحة . فلقد لوحظ أن الغالبية من الناس كثيرا ما يكونون — فى سياق حياتهم — على غير ما هم عليه أصلا ، وكأنهم يتحولون إلى أناس مختلفين تمام الاختلاف . ولم أكن أبغى بإصدار كتاب فى ذلك ، أن أقر شيئا

معروفا كل المعرفة ، بل كان لدى غرض جديد تمام الجدة ، وذو أهمية بالغة .. ذلك هو أن أبحث عن أسباب هذه التطورات والتغيرات — التى تطرأ على الناس فى حياتهم — وأن أقتصر على ما يكون منها متوقفا علينا نحن أنفسنا ، وأن أبين كيف يتسنى أن نتحكم فيها بأنفسنا ، لكى نصبح أفضل وأكثر ثقة بأنفسنا واطمئنانا إليها ! .. ذلك لأنه لا جدال فى أن الرجل الشريف يعانى فى مقاومة الشهوات التى اكتمل تكوينها — والتى ينبغى عليه أن يقاومها — عناء أشد مما لو أنه كبح أو غير أو عدل هذه الشهوات ذاتها من منبعها ، لو قدر له أن يتعقبها إلى هذا المنبع . فالرجل يقاوم الغواية مرة لأنه قوى ، ولكنه — فى مرة أخرى — يستسلم لأنه ضعيف .. ولو أنه كان على ما كان عليه من قبل ، لما استسلم .

وفيما كنت أفحص نفسى ، وأبحث فى النفوس الأخرى عما يمكن هذا التباين من الحدوث ، تبينت أنه إنما يعتمد — إلى حد كبير — على ما تكون أشياء خارجية قد أحدثته — من قبل — من انطباعات داخلية ، وأننا فى تغيرنا المستمر — بفعل حواسنا وأجهزتنا البدنية — إنما نكشف ، دون أن نفطن عن أثر ذلك التغير فى أنفسنا ، وفى آرائنا ، وفى مشاعرنا ، وفى أعمالنا ذاتها ! .. وكانت المشاهدات العديدة والمدهشة — التى جمعتها — تعلو على كل طعن .. وقد بدت لى ، فى أصولها الطبيعية ، صالحة لأن تؤلف نظاما خارجيا للسلوك ، يتغير بتغير الظروف ، ويمكن من وضع العقل أو صونه فى حال تكون خير الأحوال ملاءمة للفضيلة ! .. فكم من الأخطاء يمكن انقاذ العقل

منها ، وكم من رذائل يتسنى خنقها فى مهدها ، إذا تيسرت معرفة التحكم فى النظام الحيوانى بحيث يتلاءم مع النظام الخلقى الذى كثيرا ما يتعرض للاضطراب ! .. ان أحوال الجو ، والفصول ، والأصوات ، والألوان ، والظلام ، والنور ، والعناصر ، والمواد ، والضجة ، والصمت ، والحركة ، والسكون .. كل هذه تعمل وتؤثر على جسمنا وعلى عقلنا بالتوالى .. كلها تمدنا بألف فرصة ، تكاد تكون مضمونة ، للتحكم ـ منذ البداية ـ فى المشاعر التى نتركها تتحكم فينا !

هكذا كانت الفكرة الأصلية ، التى كنت قد سطرتها على الورق ، والتى توقعت منها نتيجة عظيمة النفع لذوى المنبت السليم ، الذين يتحدون ضعفهم ، فى سبيل حبهم الصادق للفضيلة .. حتى لقد بدا لى أن من الميسور أن أجعل من هذه الفكرة كتابا مشوقا من حيث القراءة ، كما هو من حيث الكتابة ! .. ومع ذلك ، فاننى لم أحرز سوى تقدم ضئيل فى هذا المؤلف ـ الذى جعلت له عنوانا : « المبادىء الخلقية الحسية ، أو مادية الحكيم »(١) ـ فقد حالت شواغل ، لن تلبث أن تتكشف ، دون أن أعكف عليه .. ولن يلبث أن يتضح كذلك ، أن هذه كانت خاتمة مشروعى الذى كان أقرب إلى نفسى من كل ما يبدو !

* * *

(1) La Morale Sensetive, ou le Materialisme du Sage

وكنت ـ إلى جانب كل هذا ـ قد فكرت منذ زمن ، فى نظام للتربية كانت السيدة دى شينونسو قد رجتنى أن أشتغل به ، فى غمرة إشفاقها على ابنها من النظام الذى وضعه زوجها لتربيته ! .. ولقد استوجب سلطان الصداقة ان انصرف إلى هذا الهدف أكثر من سواه ، برغم أنه لم يكن ـ فى حد ذاته ـ مما يصادف هوى من نفسى . ومن ثم فان هذا المشروع هو الوحيد ـ بين كل المشروعات ـ التى ذكرتها من قبل ـ الذى انجزته . ولقد كانت الغاية التى وضعتها نصب عينى ـ وأنا أعمل فيه ـ جديرة ، كما يتراءى لى ، بأن تتيح للمؤلف جزاء آخر غير الذى أتاحه . ولكن .. لنتجنب الحديث هنا عن هذا الموضوع المحزن ، قبل أن يحين أوانه .. فسوف أضطر اضطرارا إلى الحديث عنه فيما بعد !

ولقد أمدتنى هذه المشروعات المتباينة بموضوعات للتأمل والتفكير فى نزهاتى اليومية . إذ أننى ـ واعتقد أننى ذكرت هذا من قبل ـ لا أستطيع التفكير إلا وأنا أتمشى ، فما أن أقف ، حتى أكف عن التفكير ، فليس فى وسع عقلى أن يتحرك إلا مع قدمى . على أننى اتخذت الحيطة ، فوفرت لنفسى عملا أؤديه داخل البيت فى الأيام المطيرة . ذلك هو « قاموس الموسيقى » ، الذى كانت مواده وأصوله مبعثرة ، ناقصة ، مشتتة بحال تجعل من الضرورى إعادة كتابة السفر كله ، من أوله إلى آخره تقريبا . ولقد ابتعت بعض الكتب التى كنت بحاجة إليها من أجل ذلك ، وقضيت شهرين فى السعى إلى الحصول على كثير من الكتب الأخرى ، التى استعرتها من

« مكتبة الملك » ، والتى ابيح لى أن اصحب بعضــها معى إلى « ليرميتاج » . هذه كانت المواد التى تهيىء لى العمل فى البيت ، عندما لا يسمح الطقس لى بالخروج ، أو عندما أسأم النسـخ والنقل . ولقد وافقنى هذا التدبير إلى درجة أننى واظبت عليه فى « ليرميتاج » وفى قصر « مونمورنسى » على السواء ، ثم فى (موتيير) بعد ذلك ، حيث اكملت هــذا المؤلف ، بينما كنت ماضيا فى مؤلفات غيره . وقد اعتدت دائما ان أجد فى تغيير الأعمال مادة للترويح حقا !

وتبعت فى دقة بالغــة ـ ولفتــرة من الزمن ـ النظام الذى ذكرته ، فوجدته صالحا للغاية ، ولكن الفصل الجميل (الربيع) لم يلبث أن زاد من تردد السيدة دبيناى على ضيعة (ايبيناى) أو ضيعة (لاشيفريت) ، فوجــدت من الشواغل ـ التى لم تكن تكبدنى من قبل شيئا ، ولكنى لم أحسب لهــا فى تدبيرى حسابا ـ ما عطل كثيرا من مشروعاتى الأخرى . فلقد قلت ـ من قبل ـ إن للسيدة دبيناى خصالا بالغة اللطف ، إذ كانت تحب أصدقاءها حبا خالصا ، وتخدمهم بكثير من الشــهامة ، ولا تضن عليهم بوقت ولا بمال ، ومن ثم فانها كانت تسـتحق ـ عن جدارة ـ أن تجازى عن ذلك برعاية خاصة . ولقد كنت ـ حتى ذلك الحين ـ أؤدى هذا الواجب ، دون أن افكر فى انه واجب ، ولكننى لم البث أن فهمت ـ فى النهاية ـ أننى مغلول بسلسلة لم يكن يحول دون شعورى بوطأتها سوى الصداقة وحدها ! .. ولقد ضاعفت من هذا العبء بنفورى من المجتمعات الحافلة ، إذ تكرمت السيدة دبيناى فعرضت اقتراحا بدا ملائما

بالنسبة لى ، واكثر ملاءمة بالنسبة لها ، ذلك هو أن تحيطنى علما بالأوقات التى تكون فيها على انفراد ، أو على وشـك الانفراد . ولقد وافقت على ذلك ، دون أن أفطن إلى ما كنت اقيد به نفسى . وترتب على ذلك اننى لم أعد أؤدى لها زيارات فى الوقت المناسب لى ، ولكن فى الوقت المناسب لها هى ، وأننى لم اطمئن يوما إلى أن نهارى رهن رغبتى . ولقد أفسد هــذا القيد ـ إلى حد كبير ـ ما كانت توفره لى زياراتى لها ـ فيما مضى ـ من متعة .. وتبينت ان الحرية ـ التى طالما وعدتنى بها ـ لم تمنح لى إلا بشرط الا أحظى بها إطلاقا ! .. ولقـد رغبت ـ فى مرة أو مرتين ـ فى أن أجــربها ، فاذا بكثير من الرسائل ، وكثير من المذكرات ، وكثير من أمارات الخوف تنهال من السيدة دبيناى معربة عن قلقها على صحتى .. حتى تبينت تماما الا شفيع لى فى عدم الاسراع إليها لدى أول بادرة تنم عن رغباتها ، إلا بأن الزم فراشى تماما !

وكنت مضطرا إلى ان أخضع لهذه الربقــة ، فانصعت فى تساهل يفوق ما كان ينتظر من عدو لــدود لكل ما يحــد من الحرية .. وقد ســاعد الوفاء الصادق ـ الذى كنت اكنــه للسيدة ـ على الحيلولة، إلى حد كبير، دون أن اشعر بالأغلال التى كانت ترتبط بهذا الموقف . ولقد استطاعت السيدة دبيناى أن تملأ بهذه الطريقة الفراغ ـ الذى خلفه غياب الثلة التىكانت تحيط بها ـ إلى حد ما . ولقد كانت التسلية التى ظفرت بهــا من نوع لا يلذ لها كثيرا ، ولكنها كانت أفضل من العزلة التامة، التى لم تكن تطيقها . على انها أصبحت اقدر على ملء الفراغ

بسهولة ، عندما شرعت تجرب قلمها فى الأدب ، ودخلت رأسها نزوة كتابة قصص ، ورسائل ، وفكاهيات ، وحكايات ، وما إلى هذه التفاهات، كيفما اتفق لها!.. على أن الكتابة لم تكن أعظم ما لذ لها بل أن أكثر ما طاب لها هو قراءة ما كانت تكتب.. فاذا هى سودت صحيفتين أو ثلاثا ، كان من الضرورى لها أن تطمئن إلى وجود اثنين أو ثلاثة ينصتون إلى هذا العمل الضخم ويحبذونه . ونادرا ما كنت أحظى بشرف أن أكون واحدا من هؤلاء الصفوة المختارة ، اللهم إلا إذا شفع لى مستمع آخر !.. ذلك لأننى كنت ـ وحدى ـ لا أكاد أساوى شيئا يذكر ، لا فى ندوة السيدة ديبيناى فحسب ، وإنما فى ندوة السيد دولباخ ، وحيثما كان جريم نجما متألقا .. وكان هذا التجاهل التام لقدرى يلائمنى تمام الملاءمة ، اللهم إلا عندما أكون مع السيدة وحيدين ، إذ أننى لم اكن أعرف أى مسلك أتخذ .. ذلك لأننى لم أكن أجرؤ على الحديث فى الأدب ـ إذ لم اكن أعتبر كفءا لإبداء الرأى فيه ـ ولا فى آداب السلوك والمجاملة والإيناس، لأننى كنت مفرط الخجل ، وكنت أخشى الظهور بمظهر مضحك أمام غانية عجوز ، أكثر من خشيتى الموت !.. فضلا عن أن هذه الفكرة لم تخطر ببالى إطلاقا عندما كنت برفقة السيدة ديبيناى ، ولا كان من الممكن أن تخطر مرة واحدة فى حياتى ، ولو قدر لى أن أعيش طيلة عمرى بصحبتها .. وما كان ذلك لأننى كنت أضمر نفورا شخصيا منها ، بل لعلنى ـ على النقيض ـ كنت احبها كل الحب كصديقة ، وكنت قادرا على أن احبها كعشيقة ! .. كان يروق لى أن أراها وأن أجاذبها الحديث . ومع ان حديثها كان طلبا ـ إذا ما كانت فى جماعة ـ

إلا أنه كان ممضا فى الجلسات الخاصة .. أما حديثى أنا ، فلم يكن لبقا سيالا ، ولم يكن ذا عون كبير فى ايناسها .. وكنت حين اخجل من الصمت فترة طويلة ، أرهق نفسى فى سبيل بعث الحياة فى الجلسة . ومع ان هذا كثيرا ما كان يتعبنى ، إلا انه أبدا ما ضايقنى ! .. كنت أبدى لها آيات الغزل عن طيب خاطر ، وأمنحها بعض قبلات أخوية صغيرة ، لم يكن يلوح لى انها ذات إثارة حسية لها .. وكان هذا غاية ما فى الأمر ! .. فلقد كانت مفرطة النحول ، شديدة البياض ، ذات صدر مبسوط كراحتى ! .. وكان هذا العيب وحده ، كافيا لأن يطفئ كل حرارة فى كيانى ، فما قدر لقلبى ولا لحسى يوما أن يريا اية أنوثة فى امراة بلا نهدين .. وقد كانت ثمة أسباب اخرى ـ لا جدوى من ذكرها ـ تجعلنى انسى الناحية الجنسية دائما ، إذا ما كنت بالقرب من السيدة ديبيناى !!

* * *

اما وقد رضت عقلى على قبول تبعية لا غنى عنها ، فاننى اسلمت نفسى لها دون ما مقاومة فألفيتها ـ فى العام الأول ، على الأقل ـ أقل عبءا مما كنت أتوقع . وكانت من عادة السيدة ديبيناى أن تقضى الصيف بأسره ـ تقريبا ـ فى الريف . ولكنها لم تقض هناك ، فى هذا العام ، سوى شطر منه .. إما لأن أعمالها كانت تتطلب وجودها فى باريس ، وإما لأن غياب « جريم » جعل الاقامة فى « لاشفريت » اقل ملاءمة لها عن ذى قبل . ولقد كنت أستغل الفترات التى لم تكن تقضيها هناك ، أو التى كانت تستضيف خلالها كثيرا من الناس ، لأنعم

بعزلتى مع تيريزى الطيبة وأمها ، على نمط يجعلنى أعرف لهذه الفترات قدرها . ومع أننى كنت قد اعتدت ــ لبضع سنوات ــ أن أتردد على الريف كثيرا ، إلا أننى لم أكن أستمتع بهذه الرحلات ، إذ أنها كانت دائما فى صحبة أشخاص محبين للمظاهر ، وكانت دائما ما تفقد بهجتها بتأثير الشعور بالتقيد والحرج ، وإن كانت قد أذكت فى نفسى الميل إلى المتع الريفية .. وكنت كلما لمحت هذه المتع عن كثب ، ازددت شعورا بحرمانى منها . كنت قد سئمت ــ كل السأم ــ « صالونات » باريس ، ونافورات الماء ، والبساتين ، وحدائق الزهور . وكان أصحابها أشد بعثا للملل .. كنت ضجرا من التطريز ، والمعزف ، وحبك الصوف ، والانحناءات ، والمجاملات الحمقاء ، والعواطف الضحلة ، ورواة القصص التافهين ، ومآدب العشاء الكبيرة ، حتى أصبحت إذا ما لمحت ــ بنظرة من ركن عينى ــ شجرة من أشجار الصنوبر ، أو عشبا من الأعشاب الشوكية ، أو سياج مزرعة ، أو مخزنا للغلال ، أو مرجا .. وحتى أصبحت إذا ما شممت ــ وأنا أمر بمزرعة ــ عبير « العجة » المتوبلة بالأعشاب الشذية .. وحتى أصبحت إذا ما سمعت عن بعد أصوات الماعز الرفيعة .. أصبحت أتمنى ازاء هذا كله ، أن يذهب كل الطلاء الأحمر ، والمساحيق ، والعطور ، إلى الشيطان ! .. وكنت أتحسر على الغداء الذى تعده الزوجة المتفرغة لبيتها فى الريف ، والنبيذ المحلى .. وكنت أود ــ من قلبى ــ أن ألكم السيد الطاهى ، والسيد رئيس السقاة ، اللذين كانا يضطرانى إلى أن أتناول الغداء فى موعد عشائى المعتاد ، وأن أتناول العشاء فى الساعة التى اعتدت أن أنام فيها ..

وكنت أود ــ فوق كل شىء ــ أن أصفع السادة خدم الموائد الذين كانوا يلتهمون بأعينهم اللقم التى آكلها ، ويبيعوننى ــ إذا لم أشأ أن أموت ظمأ ــ نبيذ مخدومهم المعتق ، بما يفوق عشرة أمثال ما أدفعه من أجله فى أرقى حانة !

ولكن .. ها أنذا أخيرا فى دارى ، فى مأوى منعزل مستحب، حر فى أن أقضى أيامى فى حياة مستقلة ، متشابهة ، آمنة ، كنت أشعر أننى إنما خلقت لأنعم بها ! .. وقبل أن أذكر الأثر الذى أحدثه هذا الوضع ــ الجديد على ــ فى فؤادى ، يروق لى أن ألخص الميول الخفية لهذا القلب ، حتى يتسنى الإلمام بجلاء بأسباب هذه التطورات الجديدة .

* * *

لقد اعتدت دائما أن أعتبر يوم اتحادى مع تيريز هو التاريخ الذى أصبحت فيه حريصا على مبادىء الخلق . فلقد كنت بحاجة إلى ود وثيق ، مذ انفصم فى قسوة ذلك الود الذى كنت مكتفيا به .. أن الظمأ إلى الهناء لا يمكن أن يرتوى فى قلب الإنسان ! .. ولقد كانت « ماما » تسعى إلى الشيخوخة، وتنحدر إلى الهوان ، وكان من الواضح لى أنها لن تسعد ثانية على الأرض ، فلم يبق لى سوى أن أبحث عن سعادة لنفسى ، ما دمت قد فقدت كل أمل فى أن أقاسمها سعادتها ! .. رحت أطفو من فكرة إلى فكرة ، ومن خطة إلى خطة ، بعض الوقت. وكانت رحلتى إلى (البندقية) خليقة بأن تزج بى فى الشئون العامة ، لو أن الرجل الذى قدر لى أن أرتبط به ، كان على شىء من الإدراك السليم . وأنا من يسهل هبوط عزيمتهم ،

لا سيما فى المشروعات الشاقة البطيئة . لذلك فان ضعف نجاح هذا العمل (الشئون العامة) نفرنى من أمثاله . ولما كنت ـ وفقا لمبدئى القديم- انظر إلى الأهداف البعيدة، على أنها احابيل للحمقى ، فقد وطنت العزم على أن أعيش ـ بعد ذلك ـ دون اية خطة مرسومة ، إذ اننى لم أعد ارى شيئا فى الحياة كان قادرا على ان يغرينى على ان اتعب نفسى !

وفى هذه الفترة بالذات ، بدا تعارفنا ، فلاح لى ان لطف شخصية هذه الفتاة الطيبة ، يتمشى مع طبيعة شخصيتى ، حتى اننى ارتبطت بها بعاطفة لم يقو الزمن ولا الزلات على إيهانها ، ولم يؤد اى شىء ـ كان يحتمل أن يفصمها ـ إلا إلى توثيقها . ولسوف تتبدى قوى هذه الرابطة فيما يلى ، عندما اكشف عن الجراح والآلام التى خلفتها فى قلبى ـ فى أوج تعاستى ـ دون أن تبدر منى شكوى واحدة ، حتى الوقت الذى اكتب فيه هذه السطور !

وعندما يعرف اننى ـ بعد أن فعلت كل شىء ، وبعد ان جابهت كل عناء لأتفادى فراقها ، وبعد ان عشت معها خمسا وعشرين سنة برغم سجية البشر ـ اقدمت فى النهاية على الزواج منها فى شيخوختى ، دون أن يكون لديها اى توقع او اى رجاء ، ودون أن ارتبط معها بخطوبة او بوعد .. عندما يعرف هذا ، يسهل على المرء ان يصدق أن الحب الجامح ، الذى عبث براسى منذ اليوم الأول ، قد قادنى تدريجا إلى آخر حماقاتى .. ولسوف يزداد المرء اقتناعا بهذا ، إذا ما عرف الأسباب الخاصة ، والقوية ، التى كانت خليقة بأن تمنعنى من

ان اقدم على شىء كهذا .. فماذا يظن إذن ، إذا انا أعلنت ـ بكل ما لا بد أن يكون قد عرفه فى خلقى من صدق ـ اننى منذ اللحظة الأولى التى رأيتها فيها ، حتى يومنا هذا ، لم اشعر نحوها بأضال قبس من الحب ، وانني لم اعد اكثر اشتهاء لمضاجعتها ، منى لمضاجعة السيدة دى فاران ، وأن الرغبات الحسية التى كنت اشبعها لديها ، لم تكن ـ فى نظرى ـ سوى استجابة للنوازع الجنسية ، دون أن يكون لها اية علاقة بالفرد؟ .. لقد يعتقد القارىء اننى إذ اوتيت بنية تختلف عن بنية سواى من الرجال ، كنت عاجزا عن ان اشعر بالحب ، لا سيما وانه لم يدخل قط بين المشاعر التى ربطتنى بتلكما المراتين اللتين كانتا اعز النساء لدى . ولكن ، صبرا يا قارئى ! .. ان اللحظة المشئومة تقترب ، وستجد انك مخدوع اكثر مما تخال !

* * *

إننى أكرر حديثى ، وانى لأدرك ذلك ، ولكنه امر لا بد منه. لقد كانت أولى ، وأعظم ، وأقوى ، واعتى حاجاتى جميعا ، تنحصر باكملها فى فؤادى .. تلك هى الحاجة إلى زمالة اشد ما تكون الفة وقربى وتوثقا .. ومن أجل هذا الغرض ـ بوجه خاص ـ كنت محتاجا إلى امراة اكثر منى إلى رجل .. إلى صديقة ، أكثر منى إلى صديق . وكانت هذه الحاجة من التفرد بحيث أن أوثق العلاقات الجسدية ما كانت لترضيها .. كنت اتوق إلى روحين فى جسد واحد وقد ظللت ـ بدون ذلك ـ اشعر بالفراغ دائما !

ولقد ظننت ان اللحظة التى لا اعود اشعر فيها بذلك ، قد حانت .. فان هذه الشابة اللطيفة ، كانت كفيلة ـ بفضل الف من الصفات الرائعة ، بل وبفضل مظهرها الشخصى الذى كان خلوا من اى افتعـال او إغواء ـ بأن تستوعب كل كيـانى فى كيانها ، لو اننى استطعت ان استوعب كيانها فى كيانى ، كمـا كنت آمل !

ولم يكن لدى ما اخشاه من ناحية الرجال ـ فقـد كنت موقنا من اننى الرجل الوحيد الذى أحبته تيريز حبـا صـادقا ـ وكانت شهواتها من الفتور بدرجة انها نادرا ما كانت تشعر بحاجة إلى رجال غيرى ، حتى عندما كففت عن أن أكون رجلها فى هذا المجال ! .. ولم تكن لى اسرة ، فى حين انها كانت ذات اسرة ، ولم تكن هذه الأسرة ـ التى كان افرادها جميعـا من صنف يخالف فى الخلق صنفها ـ بالتى استطيع ان اعتبرها كأسرتى .. وكان هذا أول اسباب شقائى ! .. ما الذى كنت اتردد فى ان أجود به ، لكى أضع نفسى من أمها موضع الابن؟.. لقد حاولت ما وسعتنى الحيلة ، دون ان اوفق إطلاقا ! .. كان من العبث أن أحاول أن أوحد كل مصالحنا ، فقد كان هذا مستحيلا .. إذ كانت الأم لا تنفك تخلق مصـالح تختلف عن مصالحى ، ثم تضعها فى وجه هذه ، بل وضـد مصالح ابنتها برغم ان الصنفين لم يكونا مختلفين ! .. ولقد اصبحت وأولادها الآخرين وأحفادها ديدانا ظامئـة إلى الدماء ، وكان

ابسط ضرر الحقوه بتيريز ، هو انهم راحوا يسرقونهـا . إذ كانت الفتاة المسكينة قد تعودت أن تنصاع ـ حتى لبنات اخواتها ـ فتركت نفسها نهبا ومطية ، دون أن تنبس ببنت شفة .. ولقد آلمنى أن ارى انه لم يكن بوسعى أن افعل شيئا لمساعدتها ، برغم اننى كنت اعتصر مواردى ونصائحى فى هذا السبيل ! .. ولقد حاولت أن اقصيها عن أمها ، ولكنها كانت تعارض هذا دائما ، فاحترمت معارضتها ، وازددت تقديرا لها ، بيد أن هذا لم يحل دون أن يكون رفضها ضارا بمصالحها مصالحى . كانت مطبوعة على الوفاء لأمها وبقية اسرتها ، ومن ثم فقد كانت ملكا لهم أكثر مما كانت ملكا لى ، بل وأكثـر مما كانت ملكا لنفسها !

مطبوعات كتابى
إصدار جديد

عزيزى القارئ :

إذا أردت أن تعرف قيمة الكنز الأدبى الخالد الذى توافيك به (مطبوعات كتابى) اليوم . فإليك ما كتبه عنه المفكر المطلع الأستاذ «سلامة موسى» فى عدد ١٩ نوفمبر عام ١٩٥٥ من جريدة (أخبار اليوم) . إذ قال :

«واعترافات چان چاك روسو من الكتب التى كان يجب أن تترجم إلى لغتنا قبل ١٠٠ أو ١٥٠ سنة ...» .



كما كتب الأديب والشاعر الكبير الأستاذ «عبد الرحمن صدقى» فى مقال بمجلة (الثقافة) بتاريخ ١٤ نوفمبر ١٩٣٩ يقول : «انقضى نيف ومائة وستون سنة على وفاة «روسو» ، وانصرف الأدباء وجمهرة القراء عن مطالعة كتب «روسو» الأخرى ، ولكنهم لم ولن ينصرفوا عن مطالعة (اعترافاته) . ذلك أن الآراء فى السياسة والاجتماع والتربية والأخلاق يدخلها التغيير والتبديل ، أما نجوى النفس البشرية فهى لا تتغير ولاتتبدل » .



والواقع أن هذه (الاعترافات) التى تقدم (مطبوعات كتابى) إليك اليوم أول ترجمة أمينة «كاملة» لها باللغة العربية ، هى أدق وأصدق مصدر لسيرة المفكر العبقرى «چان چاك روسو» ولقد كان من أهم الميزات التى كتبت الخلود لهذه الاعترافات ، انها كانت أول عمل أدبى يكشف صاحبه فيه عن نفسه ، فقد سجل «روسو» فى هذا الكتاب أدق أحداث حياته - خيرها وشرها ، طيبها وخبيثها - دون أن يجفل من مواجهة الحقيقة !

حلمى مراد

